المذكرات

بقلم

محمد كرد علي

الجزء الثاني

أضواء السلف

رقم الايداع
٢٠١٠/٢٧٧٥

المذكرات

محمد كرد علي

الجزء الثاني

أضواء السلف

بسم الله الرحمن الرحيم

دار أضواء السلف
للنشر والتوزيع

لصاحبها
علي بن عبد الله الحمد الجبرين

الرياض - الربوة - الدائري الشرقي - مخرج ١٥ ص ب ١٢١٨٩٢
الرمز ١١٧١١ ت ٢٣٢١٠٤٥ جوال ٠٥٠٥٢٨٠٣٢٨

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الثاني

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

« المتنبي »

رؤساء الوزارات

اتفق أن وسدت رياسات الوزارات لأناس لا عهد لهم بالحكم والادارة ، فمن حقي بك العظم إلى صبحي بك بركات إلى أحمد نامي بك إلى الشيخ تاج الدين الحسني إلى السيد جميل مردم بك كلهم قفزوا إلى الرياسة قفزاً ، وارتجلوا لها ارتجالاً . وجاؤا بالسادة جميل الالشي وعطا الأيوبي ونصوحي البخاري من المتمرنين على الادارة أشهراً قليلة ، لغرض اقتضى ذلك . وأتوا بوزراء مختلفة درجاتهم ، ومنهم المتعلم ومنهم العامي ، وبعضهم كالموتى لا يفتحون أفواههم بما يتوهمون أنه يؤلم مرجعاً عالياً على الأغلب . وكذلك الحال في لبنان ارتجل الوزراء والرؤساء ، ومنهم من كانوا معروفين بفساد أخلاقهم وسرقاتهم قبل الانتداب وظلوا في عهد الانتداب على فسادهم وسرقاتهم ، ومنهم من كانوا لصوصاً ويجاهرون باللصوصية ، فجمعوا بذلك ثروات طائلة صرفوها في القمار وغيره . ولو حسن الانتخاب لجيء بأقرب من هـــذه الطبقة إلى الصدق والامانة ، وادراك معنى التعاون .

عملت وزيراً مع حقي بك والشيخ تاج الدين خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان أكثر من معنا من الوزراء مقتدرين وكانوا بانتخاب المفوض السامي . وكان الرئيسان على مثل ما كان عليه أكثر رؤساء الحكومات ، يستوحون المندوب والمفوض في المسائل الكبرى . وغاية ماكان يطمع فيه رئيس الوزارة ألا يعمل وزيره ما يغضب الجماعة ، وأن يكون على اتفاق مع مستشاره ، وهو ينصرف الى التشريفات ، واتقاء خصومه ، والتمويه على أوليائه ، وارضاء مستخدمي الانتداب وكل من له صلة بهم .

وقلما كان الرئيسان اللذان اشتغلت معهما يوقفان لي عملاً ، ويرضيان مني فقط أن يأتيا للخدمة في المعارف بأناس قد لايجوز استخدام أمثالهم

فيها ، فتحصل مشادة قليلة بيني وبينها ، اريد اختيار الكفاة وأصحاب الأخلاق السليمة في الجملة ، ومن كانت لهم شهادات ، وهما يحبان مراعاة سياستها ، وحماية صنائعها .

أبى الشيخ تاج مرة أن يصادق على قائمة المعلمات والمعلمين الذين عينتهم ، وكانوا كلهم يحملون شهادات تؤهلهم للخدمة ، أو أدمج له منهم اثنين لا يحملان شهادة ، واقترب وقت فتح المدارس ، وأنا أتوسل إليه أن يعفيني من تعيين هذين الشابين المقترح تعيينهما ، حتى لا يقول المنتدبون أني اخالف القوانين المعمول بها ، ولا أفتح المجال لتصديق ما قاله فيَّ المستشار السابق ، ولما نفد صبري من الحاحه أشرت إلى المستشار أن يطلب المندوب أوراق التعيينات الجديدة مصادقاً عليها ، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي التجأت فيها إلى المندوب . ذلك أن الرئيس ما كان يسمح لنا أن نزور المندوب إلا في الأوقات الرسمية مدعياً أن ذلك أدعى إلى حفظ كرامتنا مع أنه كان ليل نهار يطلب رضا أقل واحد من جماعة الانتداب والغالب انه كان يخاف على منصبه من بعض وزرائه ومنهم من لو جوز لنفسه بعض ما جوزه هو لتركه جانباً وأستأثر بالرياسة دونه .

حرص رؤساء الوزارات في كل دور على استخدام ذويهم وخواصهم والافضال على أنصارهم وصنائعهم . وأعظم من كان له الغرام العظيم بحماية الأهل والأقارب السيد حقي العظم ، فقد حاول املاءَ الدواوين بأناس من ذوي قرباه وفيهم الصالح وغيره . وكان الشيخ تاج يكثر من استخدام الضعاف لأعمال الحكومة ولطالما بينت له مضار هذه السياسة ، فكان يورد عليَّ حججاً لتفضيل الدمشقيين في التعيين ، وأنا أقول له إن المملكة ليست عبارة عن دمشق فقط ، وإن هذا التخصيص سيدعو الحلبيين الى الانفصال ، إذا ظل المركز يحرمهم الوظائف .

حاول الشيخ وقد فرضت عليه فرضاً ، أن يتخلص مني غير مرة ، وأراد منذ الاشهر الاولى أن يخرجني من الوزارة مع الاستاذ سعيد المحاسني

وزير الداخلية فحدثت أزمة وزارية كان المقصود في ظاهرها اخراج ثلاثة وزراء ، ومنهم السيد جميل الالشي ، ولكن هذا كان معنا نحن الاثنين في الظاهر ، والحقيقة أنه كان من أخاص المخلصين للشيخ ، ثم سمحت المفوضية باخراج الحاسني ولم توافق على اخراجي .

وحاول الشيخ في رأس الوزارة أن يورثوه رواتب والده من الاوقاف وهو عارف أنه لا يحسن التدريس ولا يستطيع المواظبة فاخفق على ما بذل من وعد ووعيد. وممن هددهم الاستاذ الشيخ عبد المحسن الاسطواني قاضي دمشق ورئيس التوجيهات العلمية فرده وفرق هذه الاموال على عشرات من القراء العميان وحاول الشيخ تاج الدين بكل ما لديه من حيلة أن يقنع السيد الاسطواني بتوجيه دروس أبيه اليه وهدده بالعزل ان لم يجبه الى طلبه فقال انك مقتدر على تنحيتي من المنصب ولكنك لا تحكم على قلبي وديني . وتذرع رئيس الحكومة باقالة الاستاذ الاسطواني فلم تجبه السلطة الفرنسية الى طلبه .

كان بعض رؤساء الوزارات والوزراء من الآخذين بمبادئ الماسونية ، يستعينون بقوة هذه الجمعية السرية على الوصول الى المناصب ، وقلّ أن رأيت موظفاً كبيراً لم يدخل الماسونية ، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندنا كانوا من الطامعين في حمايتها ، وهم موضع نظر بسيرتهم ، دخلت الماسونية أرضنا منذ العصر الماضي وقلما تم على يدها شيء ينفع ، ذلك لأن المقدمين فيها لم يقوموا بما تدعو إليه قوانينها من الخير ، ورأينا معظم الرؤساء منهم يستحلون أكل أموالها ، وإذا كان الخير في فطرة بعضهم فانهم لا يلبثون أن يبتعدوا عنها كاتمين أسرارها ، آسفين على ما أضاعوه من المال والوقت مدة ارتباطهم بها .

مسألتان مضحكتان حدثت احداها في أيام رئيس الوزارة حقي بك والثانية في عهد الشيخ تاج الدين ، وبعرضها هنا فكاهة وتسلية . حرص الأول أن يكسو الوزراء والموظفين ألبسة مزركشة بالقصب أيام التشريفات ، وأن يصنف خدام الدولة أصنافاً ، يجعل لكل صنف منهم بذلة خاصة وقصباً خاصاً . وكانت تساوي البذلة يومئذ نحو ثمانية عشر جنيهاً مصرياً ،

إذا عزم صاحبها على بيعها لالساوي جنيهين ، وكان السيد حقي العظم للوصول إلى ما يحرص عليه من ذلك وللسرعة في انفاذه ، يأتي الى مجلس الوزراء بالرسام والخياط وصانع القصب ، يعرض على وزرائه النموذجات ، ويشاورهم في الطراز الذي يقع اختيارهم عليه . والمجلس يضيع وقته في هذه الامور وأرباب المصالح ينتظرون منه البتّ في أشغالهم . وقد استعملت كل ماعندي من حجة حتى أقنعه بأن ابتداع هذه الكسوات يجحف بالموظفين وأكثرهم فقراء فأصرّ على انفاذ مشروعه . ولما صنع لنفسه بذلة قلت له : الآن حصل المقصود فان اكتساء رئيس الحكومة بالقصب يجزيء عن اكتساء الموظفين كلهم ، على نحو ماقلت له لما عرض عليّ وسام جوقة الشرف : لما كنت دولتك تقلدت الوسام فكأن الوزراء كلهم تقلدوه ، ونحن إلى الآن لم نأت مانستحق به هذا التشريف فاقتنع وأعفاني . وانتهت معضلة القصب بعد أن أضعنا بها بضع جلسات من جلسات مجلس الوزراء ، وما انتهت في الحقيقة إلا لما شكاني الرئيس إلى المندوب ، وسألني هذا عن سبب الامتناع ، وعن استنكافي من لبس القصب فقلت : إني لم ألبس هذا القصب أيام الدولة العثمانية ، وسلطنتها الضخمة سلطانها ، فأنا لا أرى أن ألبس بذلة رسمية في هذه الحكومة الصغيرة ، وإني مستعد للتنحي عن الوزارة أو يلغى المشروع فألغي .

أما المشروع الثاني في وزارة الشيخ تاج فقد كان الخطب فيه أسهل ، لأنه كان محصوراً بالوزراء ، ذلك أنه حرص على الباس وزرائه (الفراك) وسألته لما عرض علينا أن يقتني كل وزير كسوة منها : وما هي الفراك ، أليست البذلة التي يكتسيها غلمان الفنادق ؟ فقال : نعم . هي من هذا النوع فقلت له : وما الفائدة من اقتنائها ، فقال : اذا دُعيتم إلى المفوضية وغيرها لحفلة راقصة تجدونها حاضرة . فقلت له : أنا لا أعرف الرقص ، وما اعتدت أن أرقص للقرد في دولته ، فأرجوك اعفائي من هذه الكسوة ، ومن هذه النفقه الضائعة . واستحسن على ما يظهر بعض رصفائي قولي ، ونجونا

من بذلة الفراك . أما رئيس الوزارة فاستصنع واحدة منها ، كان يلبسها في الحفلات الراقصة والساهرة ؛ وما كانت تليق له وهو بدين قصير القامة أعرج وعلى رأسه عمامة ، وثوب الفراك مقطع من أمام ومن وراء .

وبلغني عن أحمد نامي بك أحد رؤساء الحكومات في سورية ، أن حب الأناقة بلغ منه أن كان يُبدل بضع حلل في اليوم والليلة ، وله في الأزياء والتأنق غرام ، وهو لا يكاد يفارق المرآة ينظر فيها إلى هندامه ونظامه أبداً ، ويسأل خلصانه عما يرون في كسوته من نقص يمكن تلافيه . ونامي بك كان من أصهار سلاطين العثمانيين ، ولذلك سمي الداماد أي الصهر ، وكان أبوه فخري بك شركسياً مصرياً عرفته ، وكان رئيس بلدية بيروت زمناً ، وكانت له مشاركة في الآداب ، وعلى جانب من الاخلاق ورأيت نامي بك في داره يوماً وقد تليت أمامه قصيدة في مدحه لأحد متشاعري بيروت جاء فيها ذكر التاج . وكان في المجلس أحد وزرائه السيد يوسف الحكيم ـ وهو الذي رأى أن يحيطه بسور يحول بينه وبين الناس ـ لما ورد ذكر التاج أقسم بالله أنه لا يليق هذا التاج إلا لهذا الرأس ، يعني نامي بك .

وكان يوسف الحكيم في ابعاد صاحبه عن القوم مثل ما كان من السيد احسان الجابري حاجب الملك فيصل بن الحسين لما بويع ملكاً على سورية فكان حرصاً على جلال هذا الملك ، يعين لمن يواتيه الحظ بالمثول بين يدي الملك دقيقتين أو أربعاً ، ويقول للملك أن ينهض لواحد ، ولا ينهض لآخر ، ويقلل من الكلام أو يكثر ، على حسب ما يرى . وكذلك فعلت الحكومة الوطنية فحظرت على رئيس جمهوريتها ابن الأناسي ألا يخرج من قصره ، ولا يظهر لأحد ، ولا يسأل عن أحد ، وأحاطوه ببضعة أفراد من الدرك في حبسه المزوق .

في الفترة التي مضت بين اشتغالي بوزارة حقي بك واشتغالي مع الشيخ تاج ، كان رئيس الحكومة السورية التي سموها حكومة الاتحاد السيد

صبحي بركات ، وهو من أهل انطاكية لا ينطق بجملة واحـدة صحيحة باللغة العربية ، وقد وصل إلى الرياسة بطريقة عجيبة ، كان يقاتل الفرنسيين مع ابراهيم بك هنانو صاحب ثورة الشمال . وتوسط له أحد أقربائه ممن يعتمد عليهم الفرنسيون ، فعدوه من المؤلفة قلوبهم ، وعهدوا اليه برياسة اتحاد سورية ، وكان صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي يعد رفعت آغا والد صبحي بركات من أعظم رجال سورية لأنه كان يقاوم الأتراك في عصره .

قال ابن بركات في دار الحكومة علناً ، إنه لم ير أحداً خدمه مثلي ، ولم يطلب منه جزاءً على عمله بالتلميح ولا بالتصريح . وكان كلما فتح لي موضوع الوزارات ليرضيني ، أقول له تعاون كما يجب مع المنتدبين ، وسير الاشغال بما يفرض عليك ، ولا تذكرني في هذا الموضوع لأني لا أطمع في وزارة ، وأنا راض بمركزي ، وأريد لك النجـاح . وقال مرة في حلب لأحد أصدقائي عمر نبهان ، بعد أن أقيل من منصبه بمدة : إن كل ما فعله في دمشق لم يأسف على صدوره منه إلا ما كان من مشاكستي . ذلك لأنه كان يتخيل أني أطلب منه وزارة ، فكذب ظنه لمـا رآني في الثورة تعرض عليّ الوزارة أربع مرات وأرفضها . ولما جعل رئيس مجلس النواب ، وطلب من فرنسا مطالب نافعة ، وذهب إلى باريز للمطالبة بها حمدته على مافعل امام أصحابي ، وقلت إنه كفر بذلك عما سبق له عند تولى الامر ، فواجب الكتلة الوطنية الآن ، وقد استلمت الحكم أن تكافئه لانه أضاع بما صرح به منصبه ، فبلغه مافهت به وأحب أن يزورني ليشكر لي ويعود إلى التواصل بعد التقاطع ، فابيت وبقينا متباعدين .

كان صبحي بركات يشارك في بعض الموضوعات ، ومن طبعه أن يطيل لسانه في وزرائه وفي غير وزرائه ، وإذا غضب اختلّ توازنه . غضب علي مرة فلما لم يستطع أن ينتقم مني ، أحب القضاء على المجمع العلمي العربي ، وسبب غضبه أن وزير المعـارف في حكومته الدكتور رضا سعيد الأيتوني أقام في رمضان مأدبة لرئيسه وللوزراء ودعاني معهم ،

وكتب بطاقاتٍ باسم كل مدعو وضعها على الأطباق ، يعين بها لكل إنسان مكانه الذي يجلس فيه . فكان المقعد الذي اختاره لي صاحب الدعوة بعد شقيق رئيس الحكومة . فقلت لأحد أخصاء الداعي وأنا خارج من الدار إن صاحبك بلغ من المصانعة مبلغاً عظيماً . إنكم تعرفون مبلغ احتقاري للتشريفات ، ولكن الرجل تعمد تحقيري بوضعه لي بعد أخي صبحي بركات ، وسني ومقامي يؤهلاني لأكون فوق شقيق الرئيس على كل حال ، وليس لأخيه من المزايا إلا أنه شقيق رئيس الحكومة ، وما زاد على كونه فلاحاً من فلاحي أنطاكية . فنقل صاحب الدعوة كلامي إلى رئيس الحكومة ، فغضب غضباً عظيماً ، وتجهم لي فقاطعته ، ودام التقاطع أشهراً ، ثم أرسل لي أحد وزرائه السيد جلال زهدي بعد مدةٍ يسترضيني ويدعوني إلى معاودة الاجتماع مع الرئيس فقلت له : أسألك بالله وبكل عزيز أن تقول له : كفاه إدلالاً علينا بمنصبه ، وما مكانته إلا من طريق هذا المنصب فقط ، وليعلم أنه إذا استقال غداً لا يبقى له أحد من كل من يصانعه اليوم . ليلزم داره وألزم أنا داري ، انرى من يقرع بابه كل يوم . وأظنه يوم مفارقة الحكومة لا يختلف إليه إلا من يأملون عودته إلى الحكم ، وقليل ما هم ، فغاظه هذا الكلام أكثر مما غاظه كلامي الأول في أخيه ، وأقيل ابن بركات وبقي في حلب ودمشق كما تنبأت له لا يقترب منه أحد.

والدكتور الأيتوني وزير المعارف يومئذٍ من أكبر من خدموا السيد صبحي بركات ، قام له مدة وزارته بمثابة وكيل خرج في داره ، يشتري له حاجاته البيتية ، وإذا مرض أحد عنده بات عنده ممرضاً لمريضه ، ومع كل هذا غضب عليه مرة ، فقال في الملأ يوم الجمعة في قاعة الاستقبال : كنت أظن رضا سعيد شيئاً فاذا هو كرش مملوء ...

وقد أرسل لي ابن بركات في الثورة السيد لطفي الحفار ليأخذ رأيي في وزارة جديدة نؤلفها ، ونترك له حبيبه جلال زهدي فيها ، وإذا لم نقبل

به يتركه ، على أن يكون هو الرئيس ، فقلت له . إني في أشد الضيق ، ونالله لو أعطيت خمسمائة ليرة ذهبية كل شهر على أن اكون وزيراً معه لا أقبل ، وكيف أرضى برياسة من قال منذ أيام علناً انه لم ينم ليله نوماً هادئاً مثل الليلة التي ضربت فيها دمشق وخربت على رؤوس أهلها ، وذكرم بكل قبيح ، وشتم أعراضهم ، وهو الذي احتفل بعرسه ودمشق تلتهب بالنيران ، وأتى بالراقصات والمغنيات يرقصن ويغنين في داره ، فكان هو يطرب ومن ورائه وأمامه يصعد أنين المظلومين ، وبكاء المنكوبين ، فان كان نسي ما قال فأنا وأهل بلدي لا ننسى . واقام مثل هذا الفرح في دار فؤاد بك المدرس بحلب وأتى بالراقصات ، والبلاد تذوب بالثورة كما يذوب الملح . وقد نصحت له بالكف عن هذا الاستهتار الذي يأتيه في بيروت ، من الجلوس في الحانات ، والراقصات من حوله ، فقال : أنا أتمتع بحريتي ؟ فقلت له : رئيس حكومة اسلامية لا يستطيع أن يكون حراً على هذه الصورة ، فهل شهدت رئيس حكومة لبنان أو رئيس جمهوريتها ، يجلس مثل هذه الجلسة في مكان عام ، إن كان لا بد من الاجتماع إلى هذه الطبقة فاعمد إلى دارك ، وليكن ذلك على الأقل بدون تبذل .

ونشأت لي صداقة مع الجنرال أندريا قائد موقع دمشق أيام الثورة ، وقال لي عند أول اجتماع معه : إنكم كلكم ثوّار ، فقلت له : إن الثائرين منا خرجوا إلى الغوطة يقتتلون مع جماعتكم . فقال : لا ، إن منكم الثائر بالسلاح ، ومنكم الثائر بالفكر . فقلت له : أنا لا أقول بقولك . فقال : إن كان الأمر على ما تقول فلمَ لا تعينوننا على اظهار الثائرين . فأجبته مرتجفاً : يا جنرالي ليست هذه صنعتي . فانتبه وغيّر مجرى الحديث . وقلت له ذاك اليوم : ألطامعون في استبقاء سورية أم في الاحتفاظ بصبحي بركات ؟ فقال : اللهم سورية فقلت : نحّوا إذاً صبحي بركات عن منصبه فالنفوس حانقة عليه . ومن الغد قصد الجنرال الى المفوضيه في بيروت ، وبعد ثلاثة أيام كان ابن بركات في داره كأحد الافراد لا سلامات ، ولا شرطي ،

ولا حاجب ، وأنصاره أمثال وزيره الحلبي نصري بخاش الذي ما كان يعرف إلا خدمة المراجع العليا بما يكتب لها ، وكالذي جعله عضو محكمة التمييز وهو رومي هاجر حديثاً من الأناضول ، ولا يتكلم كلمتين بالعربية فضلاً عن أن يقرأها ويكتبها ويتفهم أسرارها ، واسمه نيقولاكي أفندي .

دخلت على الشيخ تاج الدين في مكتبه الرسمي فرأيت عنده صديقي الاستاذ سامي العظم يلتمس منه أن يوافق على تعيين شخص من بني العظم أعرف أنه لا يصلح لشيء . فقلت له : يا سامي ، إلامَ تستعملون هذه الخرق البالية ؟ وتحشون دواوين الحكومة بمن كان عليكم رحمة بهذه الأمة أن تتركوهم في بيوتهم ، وتأخذوا للخدمة من الشباب حملة الشهادات العالية الذين ملأوا المقاهي ، وهم لا يجدون عملاً لهم بعد الدراسة ، والتفتُّ إلى رئيس الوزراء وقلت له : كما فعلت بفلان ، وأنا أعرف أنه قريبه ، وجعلته مدير ناحية داريا وهو أمي يكتب له كاتب القرية أوراقه الرسمية ، ثم انه غني يملك مزرعتين ، فلماذا لا تتركونه لمزرعتيه ، وإني لأفضل أن أملك مزرعتين على أن أكون وزيراً ، ولو أمكنني المقايضة لقايضته . فسكت ، ثم قلت له : وفلان الذي جعلته مدير ناحية دمر فقال إن بني فلان افتقروا وليس عندهم ما يأكلون ، فقلت له : وهل الحكومة رباط أو زاوية دراويش يقصدها أرباب البطالة والجياع ، فترى من واجبها إطعام كل من جار عليه الدهر ، أو جلب لنفسه الفقر بسوء تصرفه . ثم إنك جعلت مدير ناحية تدمر رجلاً دخل مستشفى المجاذيب مرتين ، وفي عقله شيء إلى اليوم ، فهل يجوز أن يتولى مثل هذا العمل ؟ فقال : وهذا افتقرت أسرته . فقلت : تالله تفتأ تقول لي افتقرت وانك ترحمها بتعيين أحد أفرادها لتعيش فاذا كان الأمر يسير على هذا الشكل فلماذا نفتح المدارس ونربي الشبان ؟ ونحن لا نختار للوظائف إلا من يرقّ قلبنا عليهم ، وعندي أن تقتصدوا من هذه الموازنة الضخمة التي تخصون بها وزارة المعارف كل سنة ، وتأخذوا موظفيكم حيث شئتم ، وليمُت هؤلاء المتعلمون جوعاً حتى يُطعم من يؤثر

بالرحمة . فاضطرب الرئيس لهذه المجاهرة وقال لي : تفضل الى غرفتك !

كان الشيخ تاج الدين منذ الأشهر الأولى لوزارته يحاول أن يبدلني ، ووعد بوزارتي غير واحد ممن يريد إسكاتهم من المستوزرين . وتذرع أن ينحيني عن الوزارة ، فما قبلت المفوضية باقتراحه ، وترامى إليّ أنه قيل له : إذا ترك فلان وزارته تسقط الوزارة ، فخاف عليها وأرجأ صرفي من الخدمة إلى فرصة أخرى . ومما قالوه له في المفوضية إن الرجل لساناً وقلماً ، وهو سيسألنا عن سبب إقالته فماذا يكون جوابنا وهو عارف بعمله محبوب منا ومن الشعب ؟

رجاني وكيل المندوب أن القي كلمة في مدرج الجامعة السورية ، وكان من انصار رئيسها (وكان يبره بالمال) ليجعلها بزعمه كصلح يعقد بيني وبين رئيسها ، وكان بيني وبينه تخالف في الأخلاق والعقلية . وسرت في نهاية الاحتفال مع المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية ، وأنا خارج من التكية السليمانية ، فقال لي : ونحن بمعزل : إني أبلغك سلام المسيو هوپنو (مدير السياسة) وهو يقول إنا ممتنون منك ، ونفتخر بوجود شخصية مثل شخصيتك في الوزارة . فأسرعت إلى الشيخ تاج ، وذكرت له ما بلغته ، فاصفارّ وجهه ، وانكب على مكتبه ، وأطرق دقيقتين ، ثم رفع رأسه فقلت له : أظن أن الذي دعاه إلى هذا الكلام ما كان شاع من صرفي ، فعاد إلى الاطراق أيضاً دقيقتين ، ولما رفع رأسه وهو على هذا الاضطراب ، ولم يفه بكلمة واحدة ، قلت له : السلام عليكم ، وانصرفت . والغالب أن مدير السياسة أبلغني ما أبلغني حتى لا يعرو همتي فتور في العمل إذا عرفت أن التشبث في المفوضية يجري بتنحيتي .

قلت للشيخ تاج الدين إن الوعاظ قد جرى تصنيف درجاتهم ، ونالوا رواتب ما كانوا يحلمون بها ، ودفعت لهم الحكومة المتأخرات من المشاهرات ، فمن الواجب أن يعلموا الاهلين دينهم ، وما ينفعهم في دنياهم ، ومن أخذ الاجرة طولب بالعمل . وزينت له أن يأمرهم بالتدريس لشدة الحاجة

إلى ذلك ، وضربت له مثلاً بسكان الشاغور أحد أحياء دمشق ، وقلت له إن عددهم لايقل عن ستة عشر الفاً ، وقلما تجد بينهم من يعرف الحلال والحرام ، لايحسنون التطهر ولا التعامل ، ولا إقامة الشعائر على الاصول ، فاذا كان من سكان الحاضرة من هم على هذه الشاكلة فما بالك بالقرى البعيدة فقال : سأذكر ذلك للمفتي . وبعد ايام عدت فسألته هل أوعز الى المفتي ليشرع الوعاظ بالتدريس ، فاجاب : إن المفتي يحاذر أن يشغبوا عليه ، فلا يجرؤ أن يدعوهم إلى ماتريد فقلت : إن المفتي إذا أمرته يأتمر حالاً بامرك ، وجماعة الوعاظ مرتبطون بمقامك مباشرة ، فانت تدعوهم الى واجبهم فيطيعونك . فقال : سنرى . وعدت بعد أيام وذكرته بالموضوع فتململ ، وقال : وأنت ماذا تنتظر من هؤلاء المشايخ فقلت : لأنا بتعليم العوام دينهم تقتصد الحكومة من السجون ومن الشرطة والدرك ، وتجود الصحة وتخف الامراض ، ويقل الشغب وترتاح السكان . فقال : دعك من هذا وهل يعلمونهم غير الخرافات ؟ فقلت له : وهل دين الاسلام خرافات ؟

وقصصت ماوقع لي مع الرئيس بعد حين على أكبر علماء البلدة فقال : كان عند الشيخ جواب سؤالك لكنه تعمد ألا يجيبك ، ذلك لان الخمسة والاربعين واعظاً الذين أخذوا كما قلت رواتب جيدة ، ما كان العلماء يقبضون مثلها ، لا يقتدر على التدريس منهم سوى سبعة ، والباقون من العوام ، لايحسنون التدريس ولا الوعظ ، وهم المصفقون له ولابيه ، فقلت له كنت أحب وقد دخلت الدسائس في السياسيات ، أن يكون الدين عنها بمعزل ، وبقي هؤلاء المدرسون الجهلة الى اليوم يقبضون الرواتب فقط .

واقترحت على الشيخ أن تدرس العلوم الاسلامية في المدرسة السميساطية وكانت خراباً فعمرت ، وذلك بأن يختار لها بواسطة وزارة المعارف في مصر عالم مصري ، يديرها ويتولى تدريس بعض الفروع التي يؤثرها وينتخب لمعاونته في التدريس من يشاء من أساتذة السوريين . ومما ذكرت

أن هذه المدرسة إذا خرجت كل سنة عشرة من الطلبة يتولون المناصب الدينية ، لاتمضي أعوام حتى يكثر الكفاة من أهل هذا السلك ، فيصبح علم الطالب بعد ذلك شرطاً أساسياً في تقلد الوظائف الدينية ، وأكدت له أنه إذا تم هـذا ، وجعل أحد رجال المعارف عضواً دائماً في مجلس المدرسة ، والمعارف لاتخلو في كل زمان من علماء ، يعود هذا عليه بسمعة طيبة ، خصوصاً وأبوه شيخ وجـده شيخ وهو شيخ ، وسلسلتهم في المشيخة كالحلقة المفرغة لا يعلم أين طرفاها .

وذكرت للرئيس أن هذا المشروع لايحتاج أول الامر إلى أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية تؤخذ من اموال الاوقاف ، فقال : إن مدير الاوقاف لايرضى باعطاء هذا المبلغ الضخم ، فقلت له : إن مدير الاوقاف قريبك وصنيعتك ، ولا يتأخر عن اعطـائك ماتأمر به من مال الوقف الذي لم يقفه المسلمون إلا على إقامة الشعـائر وتعليم الدين ، والغالب انه لم ير من مصلحته ان يتعلم احـد التعليم الديني ويفضل ان يكونوا من الجهلة ليسوقهم إلى انفاذ اغراضه .

بدا للشيخ تاج الدين او لغيره ان تنشر دولة سورية كتابا في اعمالها خلال ثلاث سنين ، فعهد الي بكتابته ، وقال ، يبغي بعث همتي ، : إنه سيكون لك تأليف جديد ، فأجبته هازئاً : في أيامك السعيدة ألفت وعرفت ، ومن قبل لم أؤلف ولم أعرف ، ولما هيأت مواد الكتاب للطبع عرضتها عليه فاعتذر بكثرة أشغاله عن قراءتها وسمح بطبعها . ولما كتبت مقدمته قرأتها عليه فسمعها متكارهاً . ولما صدر التقرير — ثم نقل الى الفرنسية — قال لي إنه طالعه ولم يعجبـه ، فقلت له : إن التقرير يعزى اليه ويصدر باسمـه ، وليس فيه اشارة الى أنه تأليفي ، فالرئيس استعار قلمي فقط ، فليس من اللائق إذاً أن يمدح نفسه في تقريره ، وبالارقام فقط يقنع من يقنـع بصلاح حكومته . ولمـا نشر التقرير في الشام ومصر وفرنسا وردت على الشيخ كتب ثنـاء واستحسان فاطلعني

على بعض ماورد عليه ، وقال لي : إنه لو كان رئيساً للجمهورية ، وقيل له : هل تؤثر أن ينقص من رياستك عام ويخرج مثل هذا التقرير عن حكومتك ، لفضل انقاص مدة رياسته وصدور مثل هذا التقرير . وعندئذ قلت له : صحيح يا أستاذ أنا لا أعرف ولا أحاول أن أعرف سوق العوام إلى السياسة التي أحبها أو يحبها غيري ، ولا أحسن الكذب على هذا والتمويه على ذاك ، ولكن لي عملاً في الوزارة قلّ ان يستطيع أحد أن يقوم به مثلي . وهذا اشارة إلى ماكان يشتكي منه من أني لا أعمل معه في السياسة .

ولما قال هذا عرض عليّ أن أتناول من صندوق الحكومة الف ليرة سورية مقابل وضعي لهذا التقرير فقلت له : لست موظفاً صغيراً لأسف الى أخذ مكافأة على شيء قمت به ، وما أنا إلا أحد أفراد ستة قاموا بهذا وكنت أنا المدون له ، وابرزته بهذه الحلة ، ومن المضاضة على وزير ان يأخذ أجراً على ما هو داخل في نطاق واجبه ، وهو يتناول مشاهرة جيدة تزيد عن حد الكفاية . فاستغرب هذا الكلام .

ما كان الشيخ تاج في الواقع يرغب في كتابتي كثيراً ، لأنها لا تعبر عن كل ما يجول في صدره ، رجاني أن اكتب له ترجمة حياته فكتبتها له في صفحة واحدة فلم ترضه . وبعد أيام ضحك وأخرج لي ورقة وقال : أنظر ما كتبوه لي ، وإذا بترجمة حياته كتبت بمبالغات مدهشة ، كان أقل ما فيها ان دمشق لم تخرج من عهد معاوية بن أبي سفيان رجلاً من عيار تاج الدين بن بدر الدين ، بدهائه وحلمه وعقله ، فضحكت وقلت له : من كتب هذا ؟ فتلكأ ولم يجب . فقلت له : أخبرني فقال : فلان ، أحد أرباب الجرائد ، فقلت له : لا عجب ، فالكتابة عند هـذه الطبقة على مقدار المنفعة . إفهم هذا عني ، إن هـذه الترجمة سخيفة جداً وأعداؤك ينالون بها منك . ما معنى قول من تبرع لك بهذا الكذب أنك أحلم وأعقل ممن جاء بعد معاوية بن أبي سفيان ؟ وهل ترضى أن يخدعك مخادع بمثل

هذا الكلام ؟ إن على هذه الأرض مشى خلفاء وملوك وعلماء وعظماء ما أخرج التاريخ أعظم منهم . على هـذا الصعيد « يا شيخي » مشى سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبـد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعليهـا مشى الرشيد والمأمون ، وعليها مشى نور الدين وصلاح الدين ، وعليها مشى ابن تيمية وابن عساكر . فاذا نشرت هـذا كنت محل نقد العقلاء ، فطواها وأظنه لم ينشرها ، كما نقش اسمه على كل مخفر وحائط ودار حكومة وجامع وجسر ومدرسة بنيت أو رممت في أيامه ، فلما جاءت حكومة الكتلة حطمت كل ما ذكر اسمه عليه من الاحجار .

كدت أخشى أن يقول من يقرأ بعض فصول هذه المذكرات : إني جعلتها كتاباً أنال به من بعض المنظور إليهم . إنها الحقيـــقة التاريخية أدونها ، وإذا ثلجت نفسي بقول الحق ، لا أبالي أن أقول ما قاله أبو ذر الغفاري : « قول الحق لم يدعْ لي صديقاً » ، وإذا كان القوم لم يعتادوا سماع الكلام على الرجال بهذا الأسلوب ، وهذه الحرية ، فأنا لا أستطيع أن أقول فيهم غير الذي عرفته ، ولا أن أبتدع لهم قرائح لم يرزقوها ، وغاية ما أنحراه ألا أتقوّل عليهم . فاسمع هذه القصة تتمة لهذا الباب المجيب الذي طال إلى ما لا أريد .

مرض رئيس الوزارة مرةً ، ولما تماثل للشفاء أراد أن يكون الاحتفال بسلامته احتفالاً يسمع صداه البعيد والقريب ، وما كان له مال يستعين به في ذلك ، وكان صرف النفقات السرية قبل انقضاء السنة ، واستزاد بضعة ألوف من الليرات ، فهداه ذكاؤه إلى طرق باب ما خطر على بال إنسان . خطر له أن يطوف أرباب « السيارات » أي مشايخ الطرق في الشوارع ويقوموا بهذا الزيّاح ، رافعي أعلامهم ، ضاربي طبولهم ، ناشري سبحاتهم ، قابضين على حياتهم وثعابينهم ، متعممين بعمائمهم الخضر ، مكتسين أكسيتهم البلق ، وان يختموا لطوافهم في أنحاء البلدة بدار الحكومة يحيون رئيسها على سلامته . ولما لم يجد الشيخ أمامه مالاً يرضي به هؤلاء المطبلين تناول من ميزانية الصحة مبلغاً من المال كان وضع فيها لمداواة المسلولين .

كنت متغيباً في القرية ، واتصل بي ما حدث في الحاضرة عند عودتي ، وأنه قتل أحد الأهلين أمام دار الحكومة في (الدوسة) داس حصان أحد المشايخ رجلاً في جملة من داس عليه . وأسفت أسفاً كثيراً لما جرى ، وذكرت الأمر لأحد الوزراء الذين يعتمد عليهم الرئيس ، ولمته لتوقفه عن نصحه ، حتى لا يحيي مثل هذه البدعة القبيحة بدعة السيارات ، وكانت بطلت من دمشق ونواحيها منذ سنين فاقسم أنه لم يبلغه شيء قبل طواف المشايخ ، وسماع صياحهم في الطرقات ، وقال : ألا تعرف الى هذا أن الشيخ لا يستمع لنصيحة أحد ، فقلت له : إنه أساء بما فعل ، ونحن ندعي أمام الغريب أنا أصبحنا أمة متمدنة ، وهو باحيائه هذه السنه السيئة يعود بنا الى ما قبل عصرين أو ثلاثة . وكان من أثر أخذ مخصصات المسلولين أن ألغيت من قابل هذه المادة من موازنة الصحة ، لأن المستشار المالي قال إنه لا حاجة اليها ، لأنها أخذت لغير ما وضعت له فوقع الاستغناء عنها .

أما حقي بك فما اظنه على طول مقامه في الرياسات خالف المنتدبين في مسألة واحدة ، وكان يجيب على كل مسألة تعرض عليه بالايجاب والقبول ، حتى لقد قال أحد رجال الانتداب ، وقد أضجره باستكانته ، وسرعة موافقته على المسائل المعروضة : إنا نريد رئيس وزارة يقول لنا تارة نعم ، وتارة لا ، لا أن يقول لنا نعم دائماً فان هذا لا فائدة فيه . ولذلك سماه وأمثاله بعض الظرفاء بالواوية أي الذين يقولون أبداً « وي » oui ويقال في أميركا لهذا الصنف من الناس الذي يجيب الى كل ما يطلب (يس مان) .

وأذكر أنه أملى علي كتاباً بالتركية وأنا معه في الوزارة ، وما علمت أنه يريد أن يرى خطي ، لأنه وضع في البريد الى تركيا على ما يظهر كتاب اشتبه به المشتبهون أنه مني ، ويشعر بالصالي بالأتراك بعد خروجهم من هذه الديار . ولو كان ذكوراً لقال لمن قالوا له أن يفحصني على هذه الصورة ، إني من المستحيل أن أشايع الترك ، أو اسألني على الاقل عن الكتاب المشتبه

به ، وهو الذي يعرفني معرفة أكيدة من مصر قبل توليه هذه الوزارات نحو عشرين سنة .

وظلَّ حقي بك منذ أول الاحتلال الى عهد قريب في منصة الحكم حتى تقاعد . وغضب عليَّ مرة لان جريدة المقتبس تناولته بالنقد فأكدت له بالواسطة ان الجريدة تخليت عنها واخي يتصرف بسياستها وحده ، وما أدري إذا كان اقتنع بكلامي ، اما انا فحاولت أن اقنع شقيـقي بالكف عنه فما اطاعني . وكان من اثر غضب حقي بك هذه المرة ان اوعز الى قريبه السيد عبد القادر المظم ، يعضده نسيبه الآخر السيد بديع المؤيد العظم ، ألا ينتخبني لرئاسة الجامعة ، وحلَّفاه بالطلاق ألا ينتخب غير الدكتور رضا سعيد اخيهم في الماسونية .

ولا انسى لحقي بك معاونتي ، وهو رئيس الوزارة ووكيل رئيس مجلس الشورى، على اخذ تقاعدي في نطاق القانون وكان السيد مصطفى نعمت من الاعضاء يقاومني كثيراً وكذلك جماعة المالية والسيد جميل مردم وزير المالية يومئذ وخلفه السيد شاكر نعمت الشعباني . وهذا لم يبادر الى امضاء تقاعدي الذي ينص عليه القانون إلا لما اوعز اليه محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية بسرعة اتمامه . ومن الغريب أن يظهر هذان الحلبيان مصطفى نعمت وشاكر نعمت وهما من ضباط اركان الحرب عند العثمانيين بهذه المقاومة لي بدون موجب وما ادري كيف يكون تحكمهما إذا كان صاحب العلاقة بهما ضعيفاً .

ومن مزايا حقي بك انه مهذب تهذيباً تاماً واقرب الى الخير منه الى الشر ، وعفيف عن أموال الدولة ، ويعتقد بصحة مذهبه لا يوارب فيه . فقد قال منذ اول يوم اتى الشام من مصر ، وكان ينزلها من سنين طويلة : انا افرنسي ، وكل ما يصدر عن الافرنسيين صواب ، وظل ثابتاً على رأيه لم ينافق كغيره ، ممن يعمل اذا وظفت له وظيفة كأعظم الانتدابيين ، وإذا صرف من الخدمـــة شاغب وادعى الوطنية وبكى وناح على حقوق سورية الضائعة .

ومن خطيئات حقي بك تذرعه احياناً بتوظيفه اشخاصاً في سيرتهم ما ينفر منهم ، وكنت في القريتين فاتصل بي انه عين او كاد قائم مقام عليها ، رجلا حرص على تعيينه في خدمة الحكومة فكتبت له اذكر ما اعرفه من سيرته فصرف النظر عن تعيينه . وبعد سنين أصر على رئيس الجمهورية لجعل صاحبه مدير شرطة دمشق فقال له الرئيس محمد علي بك العابد : يمكن تعيين هذا الرجل وزيراً ورئيس وزارة ورئيس جمهورية ولا يمكن أن يكون مديراً للشرطة ، فأصر حقي بك على تعيين مرشحه ، فقال له رئيس الجمهورية ، على فرط حلمه وتهذيبه : انا لا اقدر ان اعمل مع من لهم مثل هذه العقلية ، وكان رئيس الجمهورية على حق في هذا الرفض ، لأن الموصى به على غاية الاقتدار في القوانين ، وقليل البضاعة من الأخلاق .

مع المندوب

دعاني مندوب المفوض السامي الكولونيل كاترو إلى تناول طعام المساء مع المسيو فرانكلين بويون . وكان هـذا قادماً من أنقره ، وقد عقد مع الأتراك محالفة ادعى أنه حفظ بها حقوق امته . وكان يشيد كثيراً بمناقب الترك ونهضة الأتراك ، ومما قال إن عندهم وزراء لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين ، ويتكلمون الفرنسية كالفرنسيين ، وأخذ يفيض من هـــذه المبالغات ، والغاية من ذلك التورية بأنه حالف دولة عظيمة ، وبالغ بنهضتهم لأنهم أروه أنها في نفسها نهضة افرنسية .

وكان المدعوون بالطبع ينصتون ، ويشغلهم الطعام الذي بين أيديهم عن غيره ، وأكثرهم لا يعرف اللغـة الفرنسية إلا أن المندوب صاحب الدعوة أراد أن يسمع الحاضرين نغمة اخرى ، فسألني عن رأيي في الأتراك ، فاكتفيت بأن قلت له خلاصة ما قرأته منذ شهرين في المجلة العالمية البارزية ، نقلاً عن مجلة ايطالية ، من أن العالم الشهير لمبروزو من علماء تشريح الدماغ قال : إن الولد التركي تنمو قواه إلى الثالثة عشرة ، على نحو ما تنمو قوى الأطفال عادة ، فاذا جئت تفحص عقله بعد سنين اي في سن العشرين مثلاً تجده كما عهدته في الثالثة عشرة ، وهكذا حتى آخر سن الشباب والكهولة الخ . قلت هذا ما قرأته ولا أعلم مبلغه من الصواب ، والذي أعرفه أن لمبروزو عالم جليل لا يقول جزافاً . فدهش فرانكلين بويون لهذا الكلام ، وكان لسان حال كاترو « لم آمر بها ولم تسوءني » .

كان كاترو على صفات ممتازة ، ومنها الاستقامة واخافة المراشين من جماعته وجماعتنا ، والقاء رهبته في قلوب مستشاريه ، إلا أنه كان لا يرى أن يترك لأعظم الشخصيات في الولاية المنتدب عليها استقلالاً فكرياً ،

ويكره من يراجعه في بعض آرائه . وروى لي أحد الوزراء ، ممن كان مذهبه مماشاة الانتداب ، أنه عثر لكاترو على تقرير قال فيه إن المخلصين حقاً لفرنسا في سورية هم أربعة فقط (وذكر اسماءهم) والأخير كان وزير المالية وهو أشدهم اخلاصاً لأنه أعطى فرنسا الخط الحديدي الحجازي بكل ما فيه من أدوات وقاطرات وشاحنات ، وما له من معامل وأماكن بدون أدنى جلبة . والحقيقة أن هؤلاء الأربعة كانوا منذ اليوم الأول ينفذون رغائب المندوبين بدون اعتراض البتة ، ومن هذا الراموز يطلب المندوب ان يكون الناس كلهم بالطاعة والخضوع ، وامثال هؤلاء مئات في سورية لأن الناس عبيد الدنيا ، ودنيانا بيد المنتدبين ، من شاءوا اطعموه واشبعوه ، ومن شاءوا حرموه واجاعوه .

سافرت إلى فرنسا في سنة ١٩٢١ فقال لي المندوب كاترو نجتمع في الوقت الفلاني هناك ، فاسأل عني في محل كذا . وبعد انهاء عملي سألت عنه فقيل إنه في الجزائر يتعهد املاكه ، فرحت إلى لندرا ازور المتحف البريطاني وجامعتي كمبردج واكسفورد ، ولما عدت لم ار ان أسأل عن المندوب ثانية ، وكانت نفسي تحدثني ان من نيته ان يستعملني لغرض له في باريز ما ادري ما هو ، ولكنه على كل حال ينفعه ولا ينفعني . وركبت القطار إلى مدريد فالاندلس فجبل طارق ومنها إلى مرسيليا فليون فسويسرا فألمانيا فايطاليا فمصر فسورية .

ولما جئت مصر قرأت في المقطم تصريحاً منسوباً إليّ قالوا إني قلته لأحد أصحاب المجلات الفرنسية وخلاصته ان سورية اصبحت بفضل فرنسا جنة ارضية ، وان السيد بديع المؤيد احد رصفائي في الوزارة صرح بمثل هذا التصريح وانا وافقته عليه ، فبعثت في الحال تكذيباً لما نشر باسمي ولا علم لي به ، وهو ظاهر البطلان ، إذ يستحيل ان تجعل حكومة الانتداب سورية جنة في عامين ، ولم يكن مضى على احتلالها اكثر من ذلك . وعرض على زميلي ان يكذب فقال : وهل انا مجنون كصاحبي حتى اترك

منصبي من اجل كلمة قيلت على لساني كذباً . والحق معه فانه لايزعجه ان يكذب عليه وربما يجوز الكذب احياناً . ولما بلغت دمشق قيل لي ان السلطة غاضبة عليّ لتكذيبي خبر المقطم ولأني ذهبت إلى المانيا ، وكان في دمشق ضابط استخبارات يحب ان يكون السوريون كلهم عبيداً للانتداب .

زرت كاترو فآخذني على ما بدر مني ، ولا سيما على عدم الاجتماع به في باريز ، وعدّ عليّ من الذنوب اني زرت المانيا ، واجتمعت إلى جمال باشا (قائد الجيش الرابع زمن الحرب) عدوهم الدود ، إلى غير ذلك من الأمور التي ارتكبتها ، ولا ترضي حكومة الانتداب ، فقلت له : هذا ما جرى ، وانا ذهبت لأزور ابن اختي شفيق حسان في مونيخ ، وعرجت على برلين وليبسيك لابتاع كتباً لي وللمعارف ، خصوصاً وقد سنحت لي فرصة لذلك ، وقيمة الألف مارك ليرة عثمانية واحدة ، فابتعت مقداراً من الأسفار ، وإذا زرت جمال باشا فلأن له عليّ يداً ، والوفاء يقتضيني ان اتعهده ، وهو اليوم فرد لا قوة له ولا حول ، وقد حماني زمن الحرب وانا اذكر له هذا الجميل ، واحب ان افهمه ضمناً انه لو كان عامل اخواني الذين قتلهم بمثل ما عاملني لكانوا له اليوم وهو في محنته مثل ما انا له وزيادة . وقلت : إنكم كنتم الى امس تصفون مصطفى كمال باشا زعيم الترك بأنه رئيس عصابة اشقياء ، فلما قضت سياستكم بملاطفته صرتم تطلقون عليه في جرائدكم لقب مصلح تركيا الأكبر . فاجتماعي بجمال باشا ، وإن كان كما تقول هو من اعدائكم ، لا يضر احداً ، وليس له الآن من السلطان ما كان له في هذه الديار زمن الحرب . فقال لي : فعلى هذا لا نستطيع ان نعمل معاً . فقلت له : الحل الأجدر بي وبكم إذاً ان تقبلوا استقالتي ، وإن شئتم دفعتها اليكم الساعة ، فقال : ادفعها إلى رئيس الحكومة ، وانصرفت ، فمهد إليّ برياسة المجمع العلمي العربي فقط .

ولما اقتضت مصلحة حكومته ان تستدعيه من سورية تأسفت لنقله ، وقلت لغير واحد من المنتدبين وغيرهم إن فرنسا لا تحسن صنعاً بهذه الطريقة .

القائمة على المبادرة إلى نقل موظفيها ، بعد تمكنهم من معرفة البلد الذي نزلوه ، واحاطتهم بدقائق الاعمال التي تقلدوها ، وكان من المصلحة ابقاؤهم زمناً طويلاً كما يفعل الانكليز في مصر . وكاترو هذا إذا كانت له بعض اغلاط لايرتكبها فيما احسب في المستقبل ، وقد زادت تجاربه والسمت معرفته ، وذكرت له الصفات التي عرفتها فيه ، وقلت إني اعذره على ما وقع بيني وبينه من سوء تفاهم ادي إلى التخلي عن منصبي ، فهذا من الحوادث الشخصية .

ومضت الأيام ، ولقيت صديقي الاستاذ نسيب مسلم في باريز ، وكان محبوباً عندهم ثم غضبوا عليه يوم ثورة دمشق ، لاعتراضه على ضربهم قرية مضايا بدون مسوغ ، وكان قائم مقام الزبداني ، فأخرجوه من الخدمة فقال لي : إنه لقي كاترو في الاستانة ، وكان ملحقاً عسكرياً بسفارة دولته فيها ، فقص عليه ما قلته فيه ، عندما جرى نقله من دمشق ، فقال له : عجيب ، وهل قال لك ذلك ؟ إني ليسرني قوله . قال له : نعم ، قال هذا في حضور جماعة ، وكان في قوله جاداً مخلصاً . وبعد أشهر اجتاز كاترو بدمشق وأحب الاجتماع إلى اناس اختارهم ، فكنت في جملتهم ، وأردت أن أتملص من زيارته ، فأصر علي بالاجتماع إليه متصرف البلد صديقي السيد نورس الكيلاني ففعلت . ولما اجتمعنا في دار الحكومة سألني عن حالي فقلت له : إن حالي أحسن حال ، ارتقى المتحف ودار الكتب والمجمع العلمي ، لانصرافي إلى النظر في شؤونها . وشغلت أوقات الفراغ بتآليفي ، فطبعت منها في هذه الفترة في القاهرة ودمشق سبعة مجلدات . وهواء العلم أنعش للقلوب من هواء السياسة الفاسد . وإني لأشكر لمن كان السبب في إحراجي وإخراجي من الوزارة . فانقبض وجهه من الجملة الأخيرة ، ثم قلت له : وأنت قل لي كيف حالك مع الأتراك وما رأيك فيهم بعد أن زدت بهم خبرة ؟ وقلبنا الحديث .

وعاد الكولونيل كاترو إلى سورية بعد حين مديراً لاستخبارات الشرق مع المفوض السامي المسيو بونسو ، واتفق أن كنت متفيئاً في الجبال الاستجمام

مبرة الإنجليز الاستعمارية التعويضية التي ادركتها كردعلي

فلم أستطع أن أزور المندوب ، كما تقضي بذلك العادات المتبعة ، واغتنمت بعد مدة شخوص المفوض السامي الى دمشق ، وبعثت إليه كتاباً أطلب مقابلته خمس دقائق للسلام عليه ، والاعتذار عن قصوري بالقيام بالواجب في جيئته الأولى ؛ فجاءني كتاب من مدير الاستخبارات بدمشق يسألني عما كان في نيتي أن أقوله للمفوض السامي،وهل لزيارتي صبغة سياسية ، فأجبته شارحاً للحال ، ذاكراً تقصيري في المرة الأولى بالواجب ، وأن ليس لي ما اعرضه عليه إلا إذا رأى في وقته متسعاً لزيارة المجمع العلمي ليطلع على ما جمعه من الآثار والمخطوطات وغير ذلك . فبعث لي مدير الاستخبارات بموظف يسألني إن كان ثمة أشياء لا أحب أن أكتبها بتوقيعي ، وطلب أن أذكرها له ليعرف المقصد من زيارتي . وقال إن فلاناً من ضباط الاستخبارات قال : إني اوشك ألا يقبلني المفوض السامي . فقلت له : أبلغه إذاً أني حاولت أن ألقاه لأقوم بواجبي ، ولا احب تصديعه بزيارتي بعد الآن ، فانتقل ما جرى إلى المفوض السامي ، فما استحسن على ما يظهر فعل دائرة الاستخبارات ، وارسل لي مندوبه في دمشق المسيو بيرآليب بصورة رسمية يعتذر باسم المفوض السامي عن زيارتي ، وأنه في قدمته الثانية تكون أول زيارته للمجمع العلمي ،

كان السبب في حنق الكولونيل كاترو عليَّ أنه طلب مني العلم الكبير الذي كان يحمل امام الملك فيصل ، لما بويع ملكاً في دمشق ، وكنت اخذته في جملة ما أخذت من الأعلام وغيرها ووضعته في المتحف ليحفظ . طلب أخذ هذا العلم ليجعله في المتحف العسكري بباريز ، فأجبته إن العلم أصبح ملك الأمة وأشبه بالمال الموقوف ، والوقف لا يجيز إخراج شيء بعد دخوله في ملكه ، وإذا أعطيت العلم يتعذر عليَّ الخروج في شوارع دمشق ، لأن أهلها يصمونني بالخيانة ، وألحَّ عليَّ مرتين في أخذه فأشحت في المرة الثالثة بوجهي عنه ، وتشاغلت عن حديثه ، فاحمر حنقاً وأبغضني من ذلك اليوم .

خطة الاستعمار بتمشي نفوذ الأقليات في بلاد الاسلام

قال لي الكولونيل كاترو وهو پروتستانتي المذهب : إن الكاثوليك كانوا يأملون بمجيء الفرنسيين إلى هذه الديار أن نطرد المسلمين من الوظائف ونستعيض عنهم بكاثوليك ، وهذا ما لا تأتيه حكومة في الأرض . والغالب أن سياسة الكاثوليك نجحت بعدئذ ، فلم يدخل المفوضية وتوابعها في سورية مستخدم إلا من الكاثوليك والموارنة ثم من الروم الارثوذكس والبروتستانت واعتمد الانكليز في فلسطين على النصارى أيضاً ومزجوهم بجماعة من الدروز ، وكانوا في مصر أيام الاحتلال ، لا يعتمدون على غير النصارى السوريين .

انتخب الأطباء بدمشق الدكتور يوسف عرقتنجي مدير صحة في سورية وهو كاثوليكي النحلة ، فأرسل مرسوم نصبه إلى البعثة ليصادق عليه فوقف مدة ، وعلمت بالأمر فذكرت للكولونيل كاترو أن أوراق الرجل متأخرة ولم يتم تعيينه ، فقال لي : إنه مسيحي ، والمسلمون لا يرضون عن هذا التعيين ، وأجبته إن اطباء المسلمين هم الذين اختاروه لهذا المنصب ، ونحن هنا لا ننظر إلا إلى الكفاءة ، ونغمة الطائفية هذه مما يردد في لبنان ، والرجاء ألا تنقل الى هنا ، فانها مضرة بنا . فعند ذلك رضي أن يوقع تعيين مدير الصحة الجديد .

نكتة

دعاني رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الى تناول الغداء في داره ، وأكد علي بالحضور ، وكنت أستنكف من غشيان داره في غير الاعمال الرسمية ، واتصوّن عن شهود مائدته ومائدة غيره ، إلا اذا عرفت المدعوين بأعيانهم ، لئلا يكون منهم من استثقله ويستثقلني ، وقال لي إن مجيئك ضروري في هذه المرة . والدعوة لاكرام صديقك المسيو بينار (كاتم سر البعثة الالمانية في باريز) والمدعوون مديرو المدارس الالمانية في بيروت وحلب ودمشق وعقيلاتهم ، وكلهم ممن لعرف فاجبت الطلب .

ولما جلسنا الى الخوان قال لي الشيخ : قصّ على السيد بينار القصة التي قصصتها عليّ منذ ايام ، فقلت : قصة الجمال ؟ فقال : نعم قلت : نصرف النظر عنها ونفكر في ايراد قصة اخرى ، فقال : هذه طريفة في بابها . فلم ألبث ان قلت : كان في الاستانة في آخر أيام دولة بني عثمان شاب اديب من ابناء الاعيان معروف بخفة الروح وسمة الفضل ، وهو صاحب جريدة هزلية سياسية اسمها (قره كوز) اي خيال الظل ، وكانت الكثرة ماتحوي من المغزى تترجم بعض الصحف الالمانية والفرنسية ما ينشر فيها من النكات والقصص . واسم منشئها صلاح الدين بك جمجوز كان من اصدقائي رجال الصحافة التركية ، وهو نائب في مجلس النواب عن مدينه استانبول . سأله بعض المكارين ذات يوم رأيه في الحاج عادل افندي رئيس مجلس النواب العثماني وكان من قبل شيخاً معمماً . فأجابه إنه رئيسنا ، وليس من حقي ان اقول فيه الا خيراً ، فقال السائل : قل لنا ما درجته من المعرفة ، وهل يليق لهذا المنصب الكبير ؟ فقال : هذا مالا أعرفه . ولما ألح السائل بطلب جواب سؤاله قال : اذاً اقص عليكم قصة وانتم وشأنكم ، وانشأ يقول : كان في سالف

الزمان جمّال رأى لما اشرف على الموت ان يجمع جماله ويطلب منها ، وهو في آخر عهده بأيام الدنيا واول عهده بالآخرة ، الصفح عمابدرمنه نحوها مذ كانت في خدمته . فقديكون ارتكب معها اموراً ما كانت منه عن قصد ، كأَن يضربها بعصاه ، ويشح عليها بالعلف او الماء او يسير بها مراحل طويلة أو يحملها احمالاً لا تطيق حملها ، اذا نفق معه بعض الجمال ، فيحمل الجمال الحية حمولة ما نفق معه إلى غير ذلك .

وكان هناك جمل في أخريات الصفوف فتقدم قائلاً لصاحب الجمال : كل ما بدر منك نقيم لك الاعذار فيه ، وليس لنا أن نؤاخذك عليه إلا مسألة واحدة لا نغتفرها لك ، وهي أننا كما ترانا مئة جمل طوال عراض ، وأنت ما برحت طول الوقت الذي قضيناه في اسفارك تقطرنا بذنب حمارك الصغير الذي تركبه ، هذا ما لا يسعنا السكوت عنه . فضحك المدعوون ضحكاً كثيراً حتى كادت احدى السيدات أن تقع عن الكرسي وكأن الحضور طبقوا القصة على الشيخ تاج الدين .

ولما انصرف المدعوون آخذني الشيخ على استئثاري بالكلام في الدعوة ، زاعماً أني لم اترك لغيري مجالاً ليتكلم في نوبته ، فقلت له : لقد حرت في أمري معك ، إذا سكت تطلب مني الكلام ، وإذا تكلمت ترميني بالاكثار . تندبني لأنوب عن حكومتك في مواطن تكون معرفة اللغة الفرنسية شرطاً فيمن يمثل سورية ، فأقول لك عندك وزراء غيري يعرفون اللغه ، فتقول : نعم ، ولكنهم يتكلمون خمس دقائق ويصمتون ، وأنت تتكلم طول الليل والسامعون ينصتون لك ، وقلت له : ما هذه الحال معك ؟ وأنا لم أقصر خلال المائدة من ان انقل لك ما يقال : وانقل الى ضيوفك ما تقول وأجمل اقوالك . وانصرفنا وهو لا يظهر غضباً ، وأظنه نوى في سره فقط ألا يدعوني ما حيي .

وقعة في مصر

قامت منذ بضع سنين ضجة على الجامعة الاميركية في القاهرة ، ووصمتها بعض الصحف الوطنية بأنها «مدرسة تبشير لا دار علم» وأن غايتها تنصير المسلمين ، وقد نصّرت أناساً فيما قيل . واتفق أن كنت متعاقداً مع هذه الجامعة لالقاء محاضرات علمية في دارها ، فكتب لي من مصر بعض الغُيُر على الدين أن أمتنع من الفاء ما وعدت بالقائه . وحاولت بعض الجمعيات بالقاهرة أن تثني عزمي عن أن أهبط وادي النيل وأرادتني بعض الصحف الاسبوعية التي عرفت بغرامها بالادب المكشوف والفن المكشوف على الامتناع عن القاء محاضراتي ، ولما حاججتهم بأن غيري من المصريين المسلمين يحاضر في الجامعة الاميركية ايضاً ، فيسعني ما يسعهم ، قالوا إن المحاضرين المصريين ليس لهم مثل مكانتي في ديار الاسلام ، فلا يضير المسلمين إلقاؤهم محاضرات في هذه الجامعة التبشيرية !

وحظيت بلقاء جلالة الملك فؤاد الاول فكان مما تفضل وقاله لي : وهذه المحاضرات ألا ترى صرف النظر عن إلقائها في الجامعة الاميركية ؟ فقلت : إنني يا مولاي تعاقدت والجامعة قبل ان تشير الصحف إلى انها مدرسة تبشير بأكثر من شهر ، ولا يليق بالرجل ان يرجع عما امضاه ، فان كانت مصر على ما لها من الوسائط لم تعرف إلى اليوم إذا كانت الجامعة الاميركية مدرسة تبشير ، فأنا في الشام أولى بألا اعرف ، اينتظر القائمون بهذه الضجة فان رأوني أخدم العرب بهذه المحاضرات ، فأنا لا اريد منهم جزاءً ولا شكوراً ، وإن رأوها مضرة تخدم الجامعة فقط ، فليطلقوا فيَّ ألسنتهم . وعندي ان هذه الجامعة لو بدا لها أن تمتنع من إلقاء هـــذه

المحاضرات لكان الواجب عليّ أن أؤدي إليها مالاً حتى تمكنني من إلقائها في قاعتها لما أتوقع من نفعها . »

وجاءني من إدارة الأمن العام رجل عرفته قديماً في الصحافة ، ودعاني بلطف إلى زيارة المدير ، فبادرت إليه . فقال لي إن عميد كلية الشريعة في الأزهر الشيخ مأمون الشناوي كتب إلى شيخ الأزهر يقول له إني أفرر تشريعاً في الجامعة الأميركية ، وما كان التشريع المزعوم إلا أني قلت نقلاً عن المؤرخين إن امراء المسلمين في الأندلس كانوا أيام عزهم يتزوجون من بنات امراء النصارى ، فلما تراجع أمر المسلمين أصبح امراء النصارى يتزوجون من بنات المسلمين كرهاً .

وحسّن لي مدير الأمن العام أن اقابل الشيخ الظواهري شيخ الأزهر في مكتبه ، ولما اجتمعت إليه عاتبني على عدم زيارتي له — وكان سأل أحد معارفي عما إذا كنت زرت الشيخ المراغي شيخ الأزهر السابق ، فامتعض لما علم أني زرته مرتين — وقال لي : أرأيت كيف أتيت بك لزيارتي بواسطة الأمن العام ؟ وأخذني إلى داره وغدّاني معه ، فأراني غضبه ورضاه .

ومما استفدت ذاك اليوم من علمه الواسع أن أباه كان من أولياء الله ، ورجا أن تحفني بركاته ، وأن من كراماته أنه كان يطعم خمسين الف إنسان من طعام رجل واحد ! ذكرت هذا الحديث العلمي الذي أسمعنيه الشيخ الظواهري لأحد شيوخ الأزهر الاستاذ الزنكلوني فقال لي : أما ذكر لك أيضاً أن أباه دخل على الخديوي إسماعيل في بعض الأيام ، وقال له إنه رآه في منامه في حالة حسنة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، رآه راكباً بغلة والرسول يمشي في ركابه ، فصاح الخديوي مستهجناً نفاقه وأمر بطرده من مجلسه ، وقال له كان عليك أن تعكس المسألة وتقول إنك رأيتني على الأقل أسير في ركاب الرسول . ومن أنا حتى يمشي رسول الله في ركابي ؟ أنا أتمنى أن أكون غبرة أقدام محمد (ﷺ) .

واثبت شيخ الأزهر بمحاضراتي في الجامعة الأميركية فحذف بعض جمل قليلة ، ذكرني بما كان من قلم المراقبة على العهد العثماني ، وبمحكمة التفتيش الديني في العصور الوسطى في الغرب . وتأخرت الجامعة عن نشر المحاضرات مدة لأن الاستاذ الظواهري طلب الى ادارة الأمن العام أن تحول دون نشرها ، فلم تنشر في كتاب إلا بعد اعتزال الشيخ الظواهري مشيخة الأزهر ، فنشرناها كما كتبتها اول مرة . وهذا كل ما استطاع الشيخ الظواهري ان يأتيه تأديباً لي على اغفالي زيارته لما هبطت مصر ، وعلى جرأتي على زيارة الشيخ المراغي منافسه في رياسة الأزهر . فانظر إلى اي حد يبلغ حب الدنيا ببعض علمائنا .

دعاني صديقي الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني من هيئة كبار العلماء ، ومن شيوخ الأزهر ، ومن تلامذة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، إلى داره مرتين ، فاعتذرت بكثرة أشغالي ووعدت بالتشرف به قريباً ، وفي المرة الثالثة اعدد ضيافته ودعاني بلسان صديقي الدكتور منصور فهمي فسألته عمن يكون معنا في الدعوة ، فقال : أصحابك أولاد عبد الرازق الشيخ مصطفى بك وعلى بك ، وربما جاء الاستاذ المراغي شيخ الأزهر ، وما أظنه يحضر لأنه مدعو إلى مأدبة رسمية لا يسعه التخلف عنها . فحضرت ودهشت أن رأيت في الدعوة مفتي مصر الشيخ عبد المجيد سليم وعميد كلية أصول الدين في الأزهر الشيخ عبد المجيد اللبان ، وهما ممن عرفت . فلما رأيتها عتبت في باطني على الداعي ، لأنه لم يذكر من يكون معنا على جليته . وأخذت اعرض لما عاملني به صاحبها بالأمس شيخ الأزهر السابق ، يوم الدعوى عليّ بأني أضع تشريعاً جديداً في الجامعة الأميركية . فقلت للحاضرين وكلهم مشايخ ، والخطاب موجه للمفتي والعميد ما فحواه : إنكم يا سادتي تسيئون إلى الدين بالهيمنة عليه بهذه الصورة ، وهل تعرفون ما تنطوي عليه القلوب ، والقلوب لا يعرف ما فيها غير علام الغيوب ؟ تنكرون دين هذا فتعدونه من أصحاب النار ، وترضون بإيمان ذاك وتدمجونه في أصحاب

الجنة ، هذا والاسلام يطعن به في مدينة القاهرة ، ويطعن برسول الله في كتب ونشرات ، والعلماء لا يردون على هذه المطاعن ، ويحاولون أن يقفوا في سبيل رجل مثلي صرف حياته في خدمة الاسلام والمسلمين والعرب والعربية ، فيما نشر من كتب ومجلات وجرائد ، وما ألقى من محاضرات ومسامرات ، وما جرأ انسان أن يقول له وهو في جهاده منذ أكثر من أربع وأربعين سنة أنه خالف الشرع في مسألة ، أو أحصيت عليه زلة يستوجب بها التكفير ، وتآليفه اليوم تقرأ في الأقطار الاسلامية من دون نكير . خير لكم يا سادتي وأسباب النشر موفورة لديكم ، وفي مصر أكثر من مئتي مطبعة تطبع لكم ، أن تردوا في كتب ورسائل غارات المغيرين على الدين ، لا أن تنالوا فقط من رجل هو من صميم المسلمين ، تشبعت نفسه بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم من أعلام الاسلام . إن العلم أيها السادة لم يقف عند افق الأزهر ، وفضل الله غير محصور في أحد ولا في بلد ، يحوزه كل من اشتغل ودرس ، والمناصب الكبرى لا تنبئ بعظمة أربابها ، وما العظيم إلا من يفيد امته .

فاعتذر الشيخان عن شيخ الأزهر السابق وقالا : أما كفاه ما حل به ، وأنت من ينكر عليك علمك واخلاصك وجهادك ؟ فأجبتهم : المسألة أني احب من السادة العلماء ألا يتسرعوا في تكفير مسلم ، ويستعملوا الحكمة التي كانت ديدن الشيخ محمد عبده ، ولو كان حياً ما خرج بعض أرباب الأقلام عن حظيرة الدين ، ولتمحضوا على ما كان يشتهي لخدمة المسلمين ، ولجلبهم بجميل سياسته كما جلب قاسم أمين في عهده ، وكان من قبل ناشزاً على الاسلام .

لمت نفسي لما انتهى الحديث على هذا التعريض القاسي بالشيخين ومن لف لفهما ، وآخذتها على ما بدر مني من الحدة على من ليس لهما يد في الذي وقع ، والمسألة ان الشيخ الظواهري قواني ما لم أقل ، وأوصل المسألة إلى المليك المحبوب حتى طلب جلالته مني أن أعدل عن إلقاء المحاضرات في الجامعة الأميركية .

واحب بعض اصدقائي من أرباب الصحف أن يكتبوا شيئاً في الموضوع أو أن يتلقفوا مني حديثاً فأبيت ، حباً بمصر ، وبرجال مصر ، وبالجالس على عرش مصر . ومن المضحك أن أحد من اعتادوا التجسس عليَّ من المشايخ في دمشق أحب أن يشرك بالشماتة بي كل شامت ، فدفع اشتراك جريدة لاحدى الصحف الدمشقية ، ليكتب في جريدته أني سجنت في القاهرة . ولما عوتب الصحافي على نشره هذا الخبر الكاذب اعترف أن الشيخ أعطاه اشتراكاً فكتب له ما أراد قال : وأنتم ادفعوا لي اشتراكاً فأكتب لكم أن الشيخ المشترك ان يسجن فقط بل اكتب أنه داسه قطار فهلك ، مثال مبكٍ من اخلاق من نسميهم اهل العلم وأرباب الأفكار .

استطراد : كان صديقي الاستاذ احمد تيمور باشا قد علق بعقيدته أول نشأته — كما قال عن نفسه — شيء من آثار التربية في مدارس الأجانب : فكان يعرض ما يظهر له من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التي تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فيجد التناقض والتصادم ، فصار يتردد على كثير من كبار علماء الازهر وغيرهم لعله يجد عندهم فرجاً ، فرآهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات .

وأنا كنت كلما رأيت شيخاً من الشيوخ أعجب لهذا الذكاء كيف يعتقد صاحبه بأشياء لا تناسب الدين ، مثل رواية الظواهري كرامات والده وهي مما لا يقول به ذو مسكة من العقل ، فكيف بشيخ الأزهر في هذا العصر ، ولا تعليل لذلك إلا البيئة التي ينشأ فيها الأبناء على قدم الآباء ، وتتسلل الخرافات فيهم فيغدو الاخذ بها عقيدة مسلمة وحقائق ثابتة وقد كان بالامكان أن يخرج هؤلاء الشيوخ عما علق في عقولهم من هذه الخزعبلات ، لو سمت هممهم لأن يطالعوا كتب العلماء الأعلام من القدماء . والغالب أن منهم من يرى حزب العامة اكثر سواداً من حزب الخاصة ، ويظن ان مصلحته مع الحزب الكبير اكثر من الحزب الصغير فيتابع الجمهور على العمياء ، ولو كان في ذلك العبث بالشرع . وما إخال اكثرهم يؤمنون

بما يقولون بأفواههم . ورحم الله صديقي السيد محمد رشيد رضا فانه اصلى هذه الطبقة المخرفة في مجلته (المنار) ناراً حامية من نقده نحو أربعين سنة ، ومن لنا بمن يخلفه ويكون قوي الشكيمة مثله ، وعلى علم بالدين الصحيح السالم من تخريف المبطلين من المتأخرين .

دعاني السيد سعد اللبان نجل الأستاذ اللبان ، أحد شهود الحال في دعوة الأستاذ الزنكلوني السالفة ، إلى داره في « جاردن سيتي » وكان والده حاضراً ، وكذلك الحبيبان السيد الزنكلوني والسيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي وغيرهما من الأصحاب ، فجرَّت محاورات المدعوين إلى ذكر الطرق ، وكان الشيخ اللبان يقدس عملها فوافقه السيد التونسي ، وأورد علينا ما تحققه من حسنات الطرق في المغرب الأقصى والأدنى والأوسط ، فقلت للحاضرين وقد ضاق صدري من هذا الحديث : أنا لا أنكر أن الطريقة السنوسية في صحراء افريقية نفعت وما أضرت ، وذلك لأن أربابها يزرعون الأرض ، ويعيشون بكدهم ، ويقفون في وجوه المبشرين ، ويذكرون الله أما سائر الطرق أو معظمها فما كانت إلا أداة شر على الاسلام ، يستخدمها المستعمر في أغراضه ، واسمحوا لي بالنظر لمعرفتي بالشام والعراق وآسيا الصغرى ومصر أيضاً أن احدثكم بما فعلته الطرق في تأخير العلم والمدنية ، والعبث ببهاء الشرع الاسلامي ، وأفضت في ذلك فسكت الحضور ، وما بدا لأحد أن يرد عليَّ قولي ، وكان انكارهم في قلوبهم فقط على ما ظهر لي . ولما خرجنا من الدعوة قال لي الاستاذ الزنكلوني ما معناه : انت وزير وتكلمت كلام العلماء ، وزميلك السيد حسن حسني عبد الوهاب ، ليس وزيراً وتكلم كلام الوزراء ، أي أنه جمجم وما أبان ، مراعاة للشيخ اللبان ، ومن يقول بالكرامات من الرجال والنسوان .

المصري خارج بلاده

رأيت في المنام (١٩ رمضان سنة ١٣٥٨ ، ١ ديسمبر سنة ١٩٢٩) صديقي أحمد شوقي بك أمير الشعراء فقص علي قصة رجل مصري رآه في طرابلس الشام ، أعجب به . قال : « ان الاقدار ساقت هذا الرجل إلى ذلك الثغر فأعجبه جماله فاتخذه موطناً له نحو خمسين سنة واشتغل بالمحاماة فعاش في رفاهية واغتنى وصار له مقام بين أهل وطنه الثاني » .

هذا ما علق بذهني من هذا الحلم — وأنا ما بنيت أعمالي على الأحلام قط ، ولا كفرت بها ولا آمنت — وقد ذكرني هذا الكلام بموضوع كان يتردد على خاطري من مدة طويلة وهو « المصري خارج بلاده » ، فقلت أكتبه هنا فهو لا يخلو من طرافة ونفع فأقول :

ترك جيش ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير في الديار الشامية وما اليها ألوفاً من المصريين ، أصبحوا بعد حين من الدهر كأهل الشام في مناحيهم ، على نحو ما كان من بضعة ألوف من المصريين وردوا على فلسطين قبل الحملة المصرية ، وكانوا السبب الظاهر في إعلان محمد علي باشا الحرب على والي عكا بل على الدولة العثمانية ، لأنه طلب إرجاعهم إلى مصر فأبى الوالي على محمد علي اعادتهم ، محتجاً بأن مصر والشام شيء واحد وكلتاهما تابع للدولة . وهؤلاء المهاجرون الأول تفرقوا في أنحاء فلسطين وأحالتهم بوتقتها شاميين . والغالب أن المهاجرين في الدور الأول والدور الثاني لم يجدوا أيام هجرتهم فرقاً كبيراً بين عيشهم في بلادهم الأصلية ، وعيشهم في موطنهم الجديد ، ان لم تكن الشام يوم هاجروا أرقى من مصر . ولولا أنك تلمح في سحنات أهل غزة ويافا وحيفا وعكا مثلاً تلك السمرة الجميلة ، وتسمع في بعض

أسمائهم لفظ « المصري » لقلت انهم شاميون من عشرات البطون .

قص عليّ صديقي شكري العسلي ، انه رأى في ولاية قونية في آسيا الصغرى كتلة كبيرة من المصريين من بقايا جيش ابراهيم باشا المصري ما زالوا إلى اليوم الذي رآهم فيه يتكلمون بلهجتهم المصرية كأنهم فارقوا مصر بالأمس مع انهم نزلوا في صميم أرض الترك ، وأتت ثلاثة أجيال على هجرتهم .

وهذا ذكرني بما قاله أحد علماء المشرقيات من الاوربيين من أن قوة التمثيل في العربي شديدة جداً ، حتى لو أسكنت قبيلة عربية في وسط أوربا ، وغبت عنها أعواماً طويلة ، وعدت تتعهدها لما ألفيتها انصبغت بصبغة الأرض التي نزلتها ، بل تشهدها قد صبغت هي من كان في جوارها من السكان الأصليين بصبغتها العربية ، ونشرت بينهم لغتها وبعض عاداتها . وقد سأل أحدهم بيرلوتي الأديب الفرنسي قبل وفاته : أي الامم أحب إليك ؟ قال : العرب لأنهم لم يغيروا أخلاقهم منذ أربعة آلاف سنة .

وما أدري إن كان تم على أيدي المهاجرين المصريين في أرجاء قونية شيء مما ارتآه المستشرق في العرب فعربوا من بجوارهم . وعلى كل فانهم يصفق لهم لأنهم قضوا نحو مئة سنة في أرض الترك ، وما نزلوا عن لغتهم وعاداتهم ، هذا مع أن الامية كانت غالبة عليهم . وروايتي عنهم هذه ترد إلى أواخر عهد العثمانيين . ولست أدري إن كان ذاك القبيل من المصريين قد احتفظوا بشيء من لغتهم على عهد الكماليين ، وقد حارب هؤلاء في أرضهم كل ما ليس بتركي .

كان لي غرام منذ القديم بالبحث في خصائص الشعوب ، وبالطبع كان لبحث الشامي والمصري المقام الأول في نفسي ، أنظر التأثير الذي أحدثه الاقليم في السحنة واللغة والخلق والعادة . وأمثل الآن لذلك بخمسة أشخاص من أهل مصر عرفتهم معرفة جيدة . وكان الاثنان الأولان من أخلص

أصدقائي ، وقد عملا في التجارة مدة حياتهما . والثالث صحبته أيضاً وهو صاحب مشروعات ، وعمل الرابع في الزراعة ، والخامس حوذي صاحب مركبة ما زال حياً يرزق . رأيت المصريين اللذين اشتغلا بالتجارة في دمشق مثالاً نادراً في الرجال . يعرفان الجد كثيراً ويعرفان الهزل كثيراً . وكان كلاهما مولعاً بالمطالعة ، ويقرأ كل ما تصل يده إليه من الكتب والصحف ، ومن المطالعة ألما بأشياء ما كان واحد من عشرة آلاف من سكان البلد يعرف مثلها أو نصفها . فكانت معلومات الواحد منهما لا تقل عن معلومات صحافي راقٍ ، لو كان كل منهما يحسن لغة أجنبية ، وما كان الأول يكتب ما يعنُّ له ، بل يقيد في دفاتره ما يستحسنه فقط من كلام غيره ، واسمه عبد الرؤوف المصري (الرفاعي) واسم الثاني محمد المصري ، وهذا اعتاد الكتابة ومرن عليها فكان يكتب كتابة يقل الغلط النحوي والصرفي فيها ، وقد تعلم بالسليقة وسار مع الطبع .

اشتغل عبد الرؤوف بتجارة الطرابيش ، وكان غريباً في أمره وطوره ، وما تزوج إلا بعد أن ذرف على الستين ، وعاش أكثر من أربعين سنة في دمشق ولم يتعلم لفظة واحدة من لهجتها ، وما نزل عن لفظة واحدة من لهجته المصرية ، هذا مع شدة اختلاطه بأهله وأقاربه من أهل هذه الديار ، وهم لا ينطقون بكلمة واحدة باللهجة المصرية اللهم إلا ان كانوا معه ليسروه فقط ، ويظهر عليها التصنع والكلفة .

وجاء محمد المصري دمشق يافعاً وامتزج بأهل الميدان من أحياء دمشق واشتغل بالتجارة ، وعاشر أهل البادية والحوارنة والدروز والغوطيين والجبليين ورأيته بعد نحو خمس وأربعين سنة من هجرته شامياً صرفاً لا يستطيع عشرة منجمين حذاق أن يكشفوا أمره ، ويعرفوا أنه مصري إلا إذا حكموا عليه بمصريته من خفة روحه ونكتته الحاضرة . وقد كان يكتب في أسلوب الهزل في الجد مقالات أنشرها له في جريدة المقتبس يتناول فيها الأحوال

الحاضرة ، ويبنيها على منامات ومشاهدات ، ويقدم لها مقدمات عجيبة ، يعرض فيها بالوالي وبحكومته ورجاله . فتحدث مقالته من التأثير ما لا تحدثه عشر مقالات أفرغت في قالب الجد يكتبها السياسيون والاداريون والحقوقيون . وكان الوالي أشد ما يكون تأثراً من مقالاته ، لأنه لا يقدر أن يجد له فيها مأخذاً يستطيع به مؤاخذته ، ليسوقه إلى القضاء ويحاكمه على ما يلحق به من إهانة بزعمها ، ويعرف الوالي أن تأثير ما يكتبه « الميداني » وهذا الاسم كان توقيعه في الجريدة ، شديد الوقع في نفوس العوام . وما خلت حملاته من تأثير في إسقاط ذلك الدور المنحط ، وكان الخاصة والعامة سواء في الاعجاب بما يكتب الميداني لجمعه في كتابته بين دعابة مصر وهزل الشام .

والرجل الثالث اسمه خورشيد وهبي بك من مهندسي الري بمصر أتى هذه المدينة وهو في الثمانين وعاش فيها أكثر من ثلاثين سنة واقتنى أملاكاً في سفح قاسيون بدمشق ، وكانت لي به صلة أكيدة وصداقة دامت مدة طويلة . وابتاع قرية في وادي العجم اسمها بويضان ، وقدر أنه بالحفر عن الماء يجده لأن القرية كانت بين جبلين ، وفي الجبال مخازن المياه ، وهما جبل الشيخ (حرمون) وجبل الدروز (جبل الريان) . والغالب أنه نظر إلى بعد ما بين الجبلين في الخريطة ، وما قدر البعد الحقيقي بينهما . فأنفق أموالاً طائلة ولم تنبجس المياه . والقرية التي حاول انباض المياه في أرضها من أشح القرى بمياهها ، وأرضها صخرية قاسية .

وقال لي انه كان ينوي انشاء مدرسة زراعية مجانية لتعليم أولاد الفلاحين ، وأنه كان ذات يوم إلى نصفه في التراب يحفر والماء لا يجيبه ، وقد اشتد غضبه ، فخاطب المولى تعالى ، وقال له : « أنت مطلع يارب على سريرتي وتعرف أني أقصد بهذا العمل خدمة الفقراء ، فلماذا تضن عليَّ بالماء » وهكذا لم يوفق بعد بذله مبالغ عظيمة وجهد دل على همة شماء . والنجاح غير مقدور لكل أحد .

كان خورشيد وهو على جانب من الذكاء والفضل وحب الخير ، وكان من جهة اخرى يأتي اموراً لا تصدر عن أطفال وتنبئ ببساطة زائدة ، كان غيوراً على مصلحة البلد الذي نزله الى أبعد حدود الغيرة ، يشارك في مسائله العامة ، فيرأس مثلاً لجنة مقاطعة الترامواي والكهرباء ، ويبين عن مرونة ومعرفة ودؤوب برغم تقدمه في السن ، يقصد بذلك خدمة المدينة ومحاربة الافرنج الذين يكرههم مع أنه صرف في انكلترا اثني عشرة سنة من أيام حياته وتعلم هناك ، وهو على مناح انكليزية . وبلغني أنه حرم ابنه ارثه وأعطاه لسبطه الدمشقي ذلك لأنه كان يكره زوجته المصرية ويحب الشامية . وكثيراً ما عمل الحب في رجل تزوج اثنتين فأنكر أولاد الأولى واستهام بأولاد الثانية . وقد أشرت اليه غير مرة ألا يحرم ابنه فأبى ونجهم لي قائلاً إن أمه آلبته وآذنه . استفدت من عشرة خورشيد بك أشياء كثيرة . ومما قاله لي إنه كانت بينه وبين أحمد عرابي باشا صاحب الثورة المصرية المشهور صداقة متينة في بلدة ذكرها لي فأنسيتها . قال : وكان عرابي برتبة ملازم فكان يختلف اليه رجل انكليزي ويتحدثان في خلوة ساعات ، وبقي الانكليزي على هذه الحالة سنين مع عرابي .

والمصري الرابع الذي عرفته كان فلاحاً في قريتنا ، وكذلك كان أبوه من قبله ، عرفته وأنا فتى ، واسمه عبد المجيد المصري استخدمته سنين في مزرعتي مرابعاً ، وكنت آمنه على الانبار والبيدر والعلف والبذار واللبن وعلى السقيا والحرث والكرث ، وأثق به في حساب العملة ومحاسبة الفلاحين وأصحاب المواشي وغيرهم . فكان في غيبتي وحضوري نمطاً واحداً في الاستقامة والتدقيق ، كأن المال ماله ، يعمل كل هذا ولا يمنّ ولا يثرثر ، ولا يقول لعبت وعملت ، كما هي عادة معظم الفلاحين المستخدمين عندنا . وكان صالحاً براً لا يقطع صلاته ، ويتعمد أن يصلي مع الجماعة ، إذا كان في القرية لا في الحقول والغيطان ، وكان يتنفل ويصوم اياماً من السنة فوق الايام المفروضة عليه ،

ويمتاز عن أهل طبقته في القرية بكثير من الصفات التي تكاد تكون مفقودة فيهم وهي الامانة . وكنت إذا أراد عيالي ركوب الدواب من القرية الى دمشق اختاره من بين زملائه عندي لمرافقتهم ، لما كان عليه من التهذيب وقلة الفضول . وبقي الطابع المصري بادياً في سحنته ولا أثر فيه ولا في ابيه للهجة المصرية ، لأنهما سكنا القرية منذ زمن طويل .

والمصري الخامس محمد حمزة المصري الحوذي وهو اليوم في عشر الثمانين وله اتصال بأسرة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً وببيت الشيخ المهدى العباسي المشهور ويحفظ لهما قصصاً ، وكان الشيخ بخيت يعطف عليه ويعاونه بمبالغ من المال لا يستهان بها . تزوج بشامية ورزق أولاداً كلهم اليوم « شوام » جاء هذه المدينة منذ خمس وأربعين سنة ، ويتكلم باللهجتين المصرية والشامية على السواء ، والمصرية أشد ظهوراً فيه ، وأكثر خصائصه ماثلة فيه ، يفيض بالكلام في الدقيقة التي أركب في عربته ، حتى لأحاذر بعض الاحيان ان يستهويه الكلام ، فيغفل عن ضبط حصانيه ، أو يفلت اللجام من بين يديه ، فنقع في نهر أو جدول ، أو نصير الى هوة أو منعرج ، يورد علي النكات المستملحة ، ويشفعها بلفتات ليسمعني صوته ، وهو على المقعد الأمامي ، ويرى صورتي وأرى صورته . وحدّث عن سروره إذا ذكرت له أشياء عن مصر الحديثة ، وكم كان سروره لما عرف أني من أصحاب الشيخ بخيت ، وأعرف أشياء عن العباسي ، ويسر جداً أني أقدر النكتة قدرها ، في أكثر مايورد على سمعي . وأظنّ أنه أدرك أني انقبضت لما قصّ عليّ مرة رؤيته في الليل ، وهو يسوق عربته ، أولئك الصالحين في مشهد الاربعين بصالحية دمشق ، وجنازة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وأظن هذه الخيالات وليدة الحشيش في نفس تحب أهل التقوى في اصل فطرتها .

ويشبه مشوارنا إلى القرية كل مرة مشوار صاحبين متحابين أحدهما

راكب والثاني سائق . وحالي معه تذكرني بما كان يقوله لنا أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري : « اذا أردتم ان تنتفعوا بالعوام فلا تظهروا أن بينكم وبينهم فروقاً كثيرة ، بل أوهموهم أن الفرق قليل بينكم وبينهم لا يبلغ أكثر من درجة أو درجتين » . وسائقنا هذا أعامله على ذلك ، فيزيد في الدعاء لي ولأولادي ، وأعامله ايضاً بما تستحقه قريحته وحافظته ويوازي حديثه واكثاره .

ليس لدينا إحصاء يركن اليه لمعرفة عدد المصريين اليوم في سورية ولبنان ، والمقيد عند قنصل مصر في بيروت نحو اربعة آلاف ، على ما كان حدثني بذلك القنصل صديقي محمد بك حامد فيما اذكر ، وأكثرهم يحترفون حرفاً دنيئة . وكان عدد المصريين قبل الاحتلال الانكليزي في الشام كثيراً جداً ، ادركت بقاياهم فكان منهم القراء والمغنون والآلاتية والسواس والسماسرة والمنجمون والمهرجون والطبالون والطباخون والحوذيون والفراشون . وكان جمهورهم يومئذ يهاجر في طلب الرزق ينشدونه من أقرب طرقه ، ويندر فيهم التجار . وتقل هجرة الطبقة العالية هجرة قطعية : وربما كان انقطاع الطبقة الراقية عن الهجرة من مصر منذ دخول القطرين تحت راية الدولة العثمانية . وكان الشاميون والمصريون على عهد المماليك سواء في الجنسية والتابعية . وكانت الجنسية يومئذ جنسية الاسلام الواسعة ، لا هذه الجنسية الضيقة التي نسجنا بها على منوال الغربيين . كان القاضي المصري يعين في الشام ، والشامي يقضي بين الناس في مصر . والعالم المصري يدرّس في مدارس دمشق وحلب والقدس كما يدرّس العالم الشامي في مدارس القاهرة ومدارس الصعيد والوجه البحري .

ولطالما تمنيت لو زاد امتزاج المصري بالشامي اكثر من الآن ، ليعرف احدهما الآخر معرفة اكيدة ، وفي هذا الامتزاج من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية ما لا ينكر محله ، وستزيد غداً الحاجة الى هذا التمازج بعد أن نمت نفوس مصر فزادت خمسة اضعاف ما كانت عليـــه قبل ستين سنة ،

وعشرة أضعاف ما كانت قبل مئة سنة ، حتى كادت تضيق بعض أرجائها بسكانها ، وهم يحتاجون إلى مرتزق ، وصناعاتهم تحتاج الى مصرف . وقد تم بعد تحسين الري كل شيء في الأعمال الزراعية او كاد ، وانشأت مصر لها صناعة كصناعات الحرير والصوف والكتان والسجاد والجلود وغيرها .

واقرب الاقطار الى تصريفها الديار الشامية (فلسطين وسورية ولبنان) وهي تروج عندنا لعدة اعتبارات حتى ولو فاقتها الصناعات الغربية بمهاودة اسعارها وجمالها احياناً ، والنفاسة غالبة على ماتصنعه المعامل المصرية .

ان الحالة الاقتصادية ستضطر المصري في وقت قريب الى الخروج عن عزلته مهاجراً في طلب الرزق . وها اننا نرى بعض المتعلمين التعليم الابتدائي والوسط والعالي من المصريين متبطلين لا عمل لهم . ومع هذا نرى المصري كالفرنسي لبدأ حتى اليوم لا يحب ان يغادر بلده ، لاعتقاده انها اجمل الاصقاع ، لا يهنأ له عيش في غيرها ، ويغلط بزعمه من يهاجر منها ويهجرها .

وأعتقد ان اصحاب الصناعات الحرة في مصر اذا جربوا الهجرة الى الديار الشامية هجرة قطعية او مؤقتة سيحمدون غب هجرتهم . وافضل بادىء بدء ان يكون المهاجرون من الطبقة الممتازة ، فان لهؤلاء في كل أمة وفي كل بلد سلطاناً على النفوس لا يكون مثله أبداً لأرباب الطبقات الأخرى . فقد رأينا ما كان من منافع القنصليات المصرية في بعض عواصم أوربا وأميركا وآسيا ومدنها المشهورة ، وان مصر لتنفق مئات الألوف من الجنيهات مسانهة على وكلائها وقناصلها فتجني بها من الفوائد المادية والمعنوية ما لا يعرفه الا من يحسن تقدير هذه الامور . وكما أن الامة يمثلها أبناء طبقاتها الراقية فكذلك كل أمة لا تعرف كما يجب إلا في ارضها وديارها

نريد أناساً من الطبقة العالية من اهل مصر يقيمون بيننا على الاقل أكثر ايام السنة ، او يهاجرون الينا مهاجرة قطعية ، يقتنون المزارع ، ويعمرون القصور والدور ، وينشئون المتاجر والمصانع والمخابر ، ويكون لهم من

الصفات التي تألف وتؤلف ، وشخصٌ واحد من أرباب القدوة الحسنة يؤثر مالا تؤثر الجماعة ان كانوا من اخلاط الزمر .

قلت للسيد عبد الرحمن الكواكبي (صاحب ام القرى وطبائع الاستبداد) هل في حلب من الرجال أمثالك كثير ، قال : عشرون رجلاً ، فقلت له : أني اعرف حلب كما اعرف ما في جيبي ، إنها لم تنبغ لعهدنا غيرك ، وما أظنني مهما فتشت في أعطافها وأطرافها أجد لك عدلاً في الشهباء ، فضحك ! والمصلحة تقضي علينا الآن ان يهاجر الينا العيار العالي من المصريين لينتفع منا وننتفع منه ، يكون من الطبقة الموقرة المحترمة كما كان ذاك المحامي المصري الذي أقام في طرابلس الشام وقص عليّ شوقي قصته .

التفتيش في الريف

كنت أعنى خلال تولي وزارة المعارف بتفتيش المدارس ، فأخرج لزيارة القريب والبعيد منها ، ومن المدارس ما كنت أزوره كل سنة مرتين ، وذلك لعدم الثقة بتقارير بعض المفتشين ، وقد ثبت أن منهم من كانوا لا يصدُقون فيما يكتبون في سير التعليم ، وسيرة المعلمين والمعلمات والمديرين والمديرات ، ومنهم من كان يكتب تقريره وهو لا يعرف المدارس التي في عمله ، ومنهم من يكتب مقترحاته في مدرسة قبل أن يزورها ، ومنهم من يسخر أحد العارفين بأن يكتب له شيئاً عن معارف عمله ، وكشفت ذلك في مفتش حلبي قضى نحو سنتين في عمالة حماة وحمص ، وكان مقيماً في حمص وهو لا يعرف مدارس حاضرتها فضلاً عن مدارس الريف ، فيتوسل الى أحد العارفين صديقي الدكتور صالح قنباز فيكتب له تقاريره .

أهم ما كان يزعجني في رحلات التفتيش مسألة المبيت في الأعمال النائية عن الحواضر ، فان أرباب النفوذ ومشايخ القرى يتنافسون في ضيافة الكبراء وليس من مصلحة الوزير ، ولا من شرف منصبه ، أن يبيت في بيوت الأهلين ، لئلا تكون عليه منة لأحد ، وتفادياً من أن يستغله المستغلون فيزيد على حسابه نفوذهم ، ويرهق الفلاح المسكين ، وليس هناك دور ضيافة أو فنادق مصغرة أو اناس يرضون بأخذ أجرة عن مبيت المرء وطعامه ومن القرى ما اذا ازمع بعض الأهلين أن يفتحوا بيوتهم لذلك يمنعهم صاحب النفوذ في القرية ، مشكلة ظاهرها اكرام القادمين ، وباطنها استغلال هذا الكرم لحساب بعض الشياطين . ولهذا كنت في حرج من المبيت في الأماكن التي لا فنادق فيها ، والفنادق لا توجد إلا في حواضر معينة . فاما أن أسير المئة والمئتين من الكيلومترات في السيارة حتى أبيت في بلدة

فيها فندق ، وإما أن انقل على الأهالي أو أجلب سريراً أو سرراً وأنام في دار الحكومة مع رفاقي كما فعلت مرة في حسجة . وإما أن أقبل بالنزول على من لا أحب تناول طعامهم ، ولا النوم في فراشهم ولا ربط صلات معهم .

حدث لي مرة في دير الزور على الفرات أن أويت ومن معي إلى فندق متواضع ، فجاء رئيس البلدية يصيح لا يليق بالوزير أن ينزل في هذا المكان وشدد في أخذي وبالغ ، وأقسم الأيمان المغلظة حتى تركت الفندق إلى داره . وهناك دعا على العادة من أحب أن يدعوه ، فسلبت راحتي ، وتبرمت ببعض من لقيت ، وحجزت حريتي حتى اضطررت إلى الاستئذان للسفر قبل أن اتم مهمتي على ما احب . وفي الرحلة الثانية الى الدير نزلت في خان ، وأوقفت شرطياً على بابه ، وآخر على باب غرفتي يمنعان دخول أحد عليّ ، فجاء رئيس البلدية نفسه ، وأهان الشرطيين حتى قرع عليّ الباب فكلمته وأنا في الفراش متعب جداً بكلام جارح صرفته به عني ، فشكاني الى قائد الموقع الكولونيل غودنز ، فقال لي هذا من الغد في معرض الكلام : كان دفع رئيس البلدية أمس عنك قاسياً ، ولِمَ أبيت قبول دعوته ؟ فقلت له : إنه أحرج صدري ، وحاول أخذي إلى داره بالقوة ، فما هـذا الاكرام البارد ؟ وأحب أن أقول لك الخطة التي سرت عليها طول حياتي وهي أني لا أزيد نفوذ الأعيان ، ولا أعمل على اسقاطهم ، إن نزول الوزير عند هذا الرجل وأمثاله يزيد نفوذه ، وربما حُمل المصروف على الوزير عشرة أضعاف ما كلف ، وقيد على الأهالي الفقراء ، فكيف يليق بمن راتبه عظيم ، وحكومته تدفع له نفقات سفره ، أن يعجز الأهالي ويأكل طعاماً ثمنه من مال الفلاح المسكين ، فاستغرب الكولونيل هـذا الكلام واشاغلنا بحديث آخر .

وهناك مشاكل في النزول على الفلاحين لا يدركها إلا المجرّب . فان الفلاح إذا أكل عنده صاحب مظهر يقوم في ذهنه أن له أن يعجزه بالدقيق

والجليل من مشاكله مدى العمر ، ومشاكل الناس لا تنتهي ، فكيف يلزم الرجل الذي تناول طعام مضيفه مرة ، وبات عنده ليلة ، أن يكون صاحبه ومحاميه على الأيام . أكلة واحدة تقع على من اصابها غالية جداً لا ينجو من متاعبها ، ولو أطعم صاحبه عشر وجبات ، وأهداه ما يوازي عشرة أضعاف ما صرف . والفلاح يظن لقلة معرفته أن ذلك الضيف العزيز صار بحكم هذا الخبز والملح من جماعته ، وفي وسعه أن يعمل له كل شيء ، ومن واجبه أن يعاونه في الحق والباطل .

وعلى هذا فالرحلة لا تطيب في القاصية إلا إذا صار لكل قرية كبيرة فندق ، أو رضي وجيه القرية أن يتناول أجرة ضيافته . ثم إنا رأينا من أفرطوا في إكرام الضيوف في الريف ، والزموا بالجري على هذه الطريقة أمسوا بعد مدة فقراء . والزام الكريم نفسه اكرام من يعرف ومن لا يعرف يزيد في نفقاته الى ما لا تحمله حالته فيفلس .

سياستي مع المنتدبين

قامت سياستي مع المنتدبين على الصراحة التي لا أستطيع الخروج منها ولو حاولته ، وعلى صدق العمل وصدق القول ، فكانوا أحياناً يعجبون بما يسمعون مني ، ويصدقونني كما اصدقهم على الأغلب ، ويبالغون باحترامي ورفع مقامي .

جرت بيني وبين المسيو روبردي كه أمين السر العام في المفوضية العليا محادثات ومحاورات اقتضاها وجودي في الخدمة . وكان كثيراً ما يذكر ما لي من صراحة ، ويصارحني بأشياء ما أظن يصارح بها كثيرين . ويخاطبني اذا خلونا بأنفسنا بدون ألقاب وبصيغة المفرد ، مخاطبة الصديق صديقه . وكان قبل أن يتولى منصبه صحافياً . وقلت له مرة ان الصحافة توصل إلى كل شيء ، فقال : هذه كلمتي وانا ابو عذرها .

وزارني مرة في المجمع العلمي وغبطني على اقامتي ، وقال لي إنه يتمنى أن يكون مثلي في دائرة صغيرة كدائرتي يتوفر على اصلاحها ، ولا تحب نفسه القيام بأمور لم يخلق لها ، وإن عدّت في العرف كبيرة . وكان وقف له على باب المجمع موقف التعظيم ثلة من رجال الشرطة ، يحيونه بصفته وكيل المفوض السامي فقال : لا أحب هذه المظاهر ، وما خُلقت لهذه القيود المتعبة ، وسألني مرة لماذا لا ترشح نفسك عضواً للمجلس النيابي ؟ فاني بما أعرف من محبة الأهالي لك ، ينتخبونك للنيابة عنهم ، فقلت له : إني احب تقسيم الأعمال ، وأعتقد النجاح فيه ، فأنا أستطيع أن أدبر شؤون المعارف وأرأس المجمع العلمي ، ودخولي في النيابة يخرجني عن خطتي واختصاصي ، وأرى غيري أحق مني بأن يتولى النيابة عن الأمة ، وإذا تعرضت لتوليها تكثر عليّ الأعمال فيبدو ضعفي فيها . فقال : أحسنت

إن من اعتاد مثلك ممارسة القضايا العلمية المقررة يصعب عليه أن يكون بوقاً لغيره ، كأن يرسله حزبه ليدافع عنه في مسألة هو في باطنه يعتقد بطلانها ، فنعما عملت بزهدك في النيابة .

ولما انفصل عن منصبه في سورية ، وأصبح عضواً عن دولته أمام جمعية الأمم المدفاع عن الانتداب في سورية ولبنان ، كان كل سنة يعود إلى ديارنا ليتزود بالمعلومات الجديدة لتقريره السنوي عن الانتداب ، ويقبض الجعل المقرر (مئة ألف فرنك) ، وكان يطلب مني كل مرة أن يتحدث إلي فأذكر له ما كان الأهالي يشكون منه ، ونتكلم بحرية ، كلام اثنين يهمهما نجاح أمر البلاد .

وجاء في بعض السنين يطلب مني الاجتماع به كالعادة فخففت إليه ، وكانت سورية تغلي كالمرجل والاهلون على أحر من الجمر من التسويف في حل قضيتهم ، وقد سئمت تبدل أوضاع الحكم على غير جدوى ، وأشرف الساحل والداخل على الافلاس لما منيا به من بلية التقسيم ، ونكبة النقد المتزلزل الأسعار ، وبما نصب في الحدود من الحواجز الجمركية . وأحببت التوسع في القول مع صاحبي لعلمي بسعة صدره وسعة علمه ، وقلت عسى أن ينقل كلامي إلى من يهمهم الأمر ، فيكون منه بعض النفع لهم ولأمتي خصوصاً وهو يعرف إخلاصي لهم وحبي لمدنيتهم ، وأني لا أغش ولا اخادع وقلت له مرة : مهما أحببتكم فاني أحب هذه الديار أكثر منكم ، وبلادي ومصلحة بلادي أولاً ثم أنتم ومصلحتكم . وقال لي مرة : إن ما أتته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي لا تستطيع أن تأتي مثله في سورية على هـذا العهد .

وتسأل عن تلك الجلسة ، وما دار فيها من الابحاث الخطيرة وما بدر على لساني من آراء قد تضر بمصالحي المادية ، كما قال لي أحد الأصدقاء لما أطلعته على طرف مما دار بيني وبين السيد دي كيه ، ومما قلته له : لا ينجيكم من العنت ، ولا ينجي أرضنا من هذا الخراب السائرة إليه ،

إلا ربط لبنان بسورية ربط اتحاد أو وحدة ، فالساحل يكمل الداخل وكلاهما لا يعيش وحده ، ونحن لسنا متعصبين على ما يصورنا بعض رجال لبنان ، ونحب أن نعيش مع اللبنانيين كما عشنا معهم أجيالاً على قاعدة الحكم الذاتي ، وإذا تعذر عليكم ذلك ، فتنجون من القيل والقال بإعادة لبنان إلى ما كان عليه من الحدود في العهد العثماني ، ولتعيدون إلى سورية الأصقاع التي ما كانت تعد من لبنان وانتم وسعتم حدوده بضمكم إليه أقضية لا يحب اهلها أن يدخلوا فيه مثل صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك والحصن وعكار وطرابلس . وطرابلس هذه منفذ سورية الطبيعي الى البحر ، وأهلها من قد رأيتم في المطالبة بالانضمام الى حكومة دمشق . وإذا تم الاتحاد أو الوحدة فتبقى بيروت وشأنها إن لم تحب الدخول معنا . فقال إن طرابلس والحصن وعكار هي أرض لبنانية منذ القديم ، ولا سبيل إلى ضمها إلى سورية . فقلت له : انها ما كانت في دور من أدوار التاريخ معدودة من لبنان ، وما هي إلا قسم من سورية ، وهي سورية جغرافياً وطوبوغرافياً وادارياً . فقال انها ضمت الى لبنان ، منذ اثنتي عشرة سنة فمن ينزعها منه ؟ فقلت له : ينزعها الذي ابتدعها أول مرة وضمها إلى لبنان بجرة قلم ، وما عليه الا أن يجري عليها قلمه مرة أخرى ، فاصفر وجهه لما سمع مني هذا وتأفف وعبس ، وأظهر تململاً ما أوّلته إلا أنه يود قطع الحديث والاكتفاء بما قلت ، وأن اعجل بالخروج من عنده ، لأن في الباب أناساً يرى أن يستقبلهم ايضاً ، والوقت قصير ، وهو يكتفي مني بما قلت . وغادرت غرفته بعد دقائق وهو أشد ما يكون ضجراً من مجلسي فودعني وداعاً بارداً ما تعودته منه في الأيام الماضية .

وعاد في السنة التالية ، وكأنه ادرك ما بدر منه في العام الماضي ، وأني ربما كنت متأثراً من معاملته لي على ما بيننا من صداقة . فتوسط للاجتماع به صديقي المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا ، وهذا كتب الى المسيو كوله مستشار معارف سورية فأبلغني صديقي هذا رجاء المسيو

بونور بالاجتماع الى المسيو روبر دي كيه ، وقوله إني من اصدقائه ، فقلت له : تفضل وأبلغ المسيو بونور أني ولا شك صديق المسيو دي كيه كما قال، ولكن امتي صديقتي أكثر منه ، رأيته في السنة الفائتة قد استثقل كلامي ، وود لو أقطع سلسلة حديث كنت أراه نافعاً لانقاذ سورية من محنتها ، إنك ياصاح لعرف حق المعرفة أني من أنصار الوحدة السورية ، وقد كتبت هذا في بعض كتبي الأخيرة ، وقلته جهرة ودعوت إليه في الملأ ، وما خفت ولا جبنت من التصريح في كل فرصة وفي كل مجلس بهذا الرأي ، ولما ذكرت له الوحدة في آخر جلسة لي معه امتعض من قولي وتبرم به وتمنى لو وجد سبيلاً ليخرجني من غرفته قبل أن أنجز حديثي الذي طلبه مني ، وتجاهل أن من طبعي ألا أقول إلا ما أعرف لا انافق ، لذلك عزمت ألا ألقاه بعدها . أما تقريره السنوي فيضعه ويعرضه على جمعيـة الامم اجتمع بي أم لم يجتمع ، ما دام عنـده مثل صاحبه (فلان) يعتمد عليه ويحبه ، وربما كان في نظره أعظم رجل في سورية ، ومن كان عنـده مثل هذا الصديق المتفاني في حبكم لا يحتاج كثيراً إلى مثلي . وأبيت ان أجتمع به ، وانقطع هو في السنين التالية عن طلب الاجتماع ، وحرمني قول الحق صداقة عظيم مثله . قبح الله السياسة .

زار دمشق السيد برونه أحد نواب فرنسا وابن عم صديقي المستشرق أرتوركي ، يحمل لي سلاماً من صهره وقـد طلب إليه يوم يوافي دمشق أن يجتمع إليّ ويخبره بحالي وصحتي وصحة أولادي ، وكان يعرف بعضهم وهم صغار ، فاجتمعنا ساعة ، وتذاكرنا في امور كثيرة ، وممـا قلته له إن (ش) (أحد كبار موظفيهم عندنا) قد ترك المجال لزوجته لتستلم هدايا المهدين ، حتى صار لها من الحلي والجواهر مالو عزمت أن تضعه على أطرافها دفعة واحدة ما استطاعت أن تنهض به لكثرته ، وعندكم رجال أفضل من هذه الطبقة التي تبعثون بها إلينا ، فهلا رميتم غيرنا بجماعة المستعمرات

وخصصتمونا برجال يأتون من طريق فرنسا لا من طريق مستعمراتكم ، وما هي إلا أيام حتى نقل المشكو منه إلى مقاطعة اخرى وبقي فيها سنين ، وبقيت زوجته بالطبع على طبيعتها ، لستهدي الجوهرات وغيرها ، وباسم الله وما شاء الله .

وأعاضونا عن هذا العامل بعامل مثله أو أحط منه (ف) وكان هذا أسرق من فأر الجبس ، وذا نفس وضيعة ، حتى رضي أن يدفع عنه رئيس الدولة اجور مبيته وثمن طعامه في الفندق أعواماً . هـذا ودولته لمطيه راتباً جيداً يمكن أن يعيش به عيشة راضية ويقتصد منه لمستقبله . وقلت لأحد أصحابي منهم إن وجود مثل هذا الموظف عار وشنار ، إنه لا يمثل نفسه ، بل يمثل دولة عظيمة ، فكيف يليق أن يسفّ هذا الاسفاف . وما أقيل هذا العامل إلا بعد مدة طويلة ، ومن غريب الاتفاق أن معظم أهل الاستقامة من عمالهم لم يمكثوا في ربوعنا طويلاً ليراعوا المصلحتين مصلحة أمتهم ومصلحتنا ، وكان من كثير من المنحطين بأخلاقهم أن قضوا معظم خدمتهم عندنا ، وحرمنا طبقة مختارة متمرنة على ادارة الشؤون .

زار دمشق نائب باريز المسيو سوليه ، وفي السنة التالية زرت باريز فأتى إلى الفندق يزورني واقترح عليّ أن أزور المسيو بيرار وزير معارف فرنسا ، قائلاً إن من باب اللياقة أن يزور وزير معارف سورية وزير معارف فرنسا ، فأجبت مقترحه ، وضرب لنا الوزير موعداً ، فزرته في مكتبه الرسمي ، وتحدثنا في أحوال سورية ، ومما سألنيه : هل أنتم تتكلمون بالسريانية هناك ؟ فقلت له : كنا نتكلم بها من نحو ألفي سنة واليوم نتكلم بالعربية ، ولم يبق من مواطنينا من يتكلم بسريانية محرفة إلا ثلاث قرى في شمالي دمشق ، فتعجب من ذلك ، وقال : ما هكذا قرأنا في صبانا . فقلت له : الظاهر أن الكتب التي اعتمدتم عليها كانت من طبعات قديمة صححت أغلاطها في الطبعات الحديثة ! وسألني إذا كنا كلنا نصارى ، فأجبته :

فينا النصارى وفينا المسلمون ، والسواد الأعظم من أهل الاسلام ، والمذاهب كثيرة عندنا لا تقل عن عشرين مذهباً ، فقال : وهذا لم أكن أعرفه . فقلت له : ربما كانت معلوماتكم مأخوذة عن مصادر قديمة غير موثوق بها .

وانصرفت من عنده متعجباً — وأظن النائب سوليه كان يعجب أيضاً — من أن يكون وزير المعارف ، في أرض العلم والمعارف ، في هذه الدرجة من المعارف . وقلت في سرّي كم رفعت السياسة اناساً إلى الرتب العليا وهم في حقيقتهم غير أهل لها .

عرف القارئ العزيز مبلغ وزير معارف فرنسا من العلم ، ومع انه ليس بالكاتب ولا بالشاعر ولا بالأديب ، ولا ألّف حياته كتاباً ، ولا نمّق خطاباً ، انتخب عضواً في المجمع العلمي الباريزي ، والاسباب الموجبة التي أوردوها لتشريفه هذا أنه كان تذرع أيام وزارته باعادة الثقافة القديمة Les humanités إلى المدارس الثانوية ، أي أن يعود الفرنسيون إلى درس اللاتينية واليونانية يصرفون فيهما أعواماً طويلة ، فما وافق مجلس النواب على هذا الاقتراح القليل الثمرة ، الكثير العنت والتعب ، وهو مشروع يؤخر فرنسا خمساً وسبعين سنة إلى الوراء كما قالت مجلة (الأخبار الادبية) Les Nouvelles littéraires وقال المجمع الذي ضمه إليه : إن مجرد تشبث السيد بيرار بفكرة الثقافة القديمة كاف لأن يؤهله لعضوية الأكاديميا ، قلت لما قرأت هذا : ولا عجب فالمجمع العلمي في باريز يعيش في العصر العشرين بعقلية ابن العصر السابع عشر يوم أنشأه منشئوه .

قلت لأحد رجال الانتداب : إني يا صاح مصرح لك بما يصعب على المتطرفين هنا أن يصرحوا به من أعمال دولتكم في ربوعنا ، وفي الخلائق من يقلبون أعيان الحقائق إذا غضبوا على شخص أو جماعة ، أو اختلفوا وإياه في مسألة أو مسائل . وأنا جدّ عارف بما كانت ديارنا عليه في العهد التركي ، وما صارت اليه في عهد الانتداب . إنكم وطدتم الأمن ، ونظمتم

الدرك بنظامكم البديع ، حتى صار خيراً كله ، وكان على عهد العثمانيين شراً كله وأنقذتم الفلاح من السخرة التي عاش فيها زماناً ووقيتموه من ظلم المستبدين ما أمكن ، حتى ليقاضي أصغر فلاح أعظم وجيه ، وتحكم المحكمة على هذا إن كان مبطلاً ، ويصل الفلاح الضعيف الى حقه . ولقد خففتم عنه الضرائب ، ونظرتم في صحته فأقمتم له المستشفيات والمستوصفات يطب فيها مجاناً . وكوفحت الملاريا والأمراض الوافدة ، وجففتم بعض المياه الراكدة والمجاري الضارة ، وعبدتم من الطرق مئات من الكيلومترات ، حتى سهل السفر من أقصى حدود مملكتنا الى أقصاها ، وتيسر التنقل في الأودية والسهول والحزون والجبال ، وعمرتم خزان حمص وجسر الفرات وعشرات من المعابر والجسور ، ربطت الأطراف بعضها إلى بعض ، وأنشأتم مدارس كثيرة ، ونشرتم التعليم بقدر ما ساعدت الحال ، وشيدتم بعض دور الحكومة وأنشأتم غير ذلك من المصانع ، وأصلحتم الادارة والقضاء ، إلى آخر ما قمتم به من الأعمال النافعة ، وهي في نظري عظيمة إذا قيست بالخراب الذي كان عليه هذا القطر في العصر العثماني .

ولكن قل لي بأبيك ماذا عملتم للزراعة حياة هذه الأرض ومورد ثروتها الوحيد ؟ فصمت قليلاً وقال : لا شيء ، وملاحظتك في محلها .

فقلت له : وهذا أغتفره أيضاً واعتذر عنكم عذراً مقبولاً ، وأظن عذركم قلة المال وامتناع الشركات عن توظيف أموالها في اصقاع لم تستقر حتى الآن حالتها السياسية ، وذلك عملاً أيضاً برأي المسيو آشار مستشار الزراعة ، ومن رأيه أن الزراعة الصغيرة أنفع لسورية والسوريين من الزراعات الكبيرة ، وكان يفضل أن يشتغل الأهالي وحدهم ، ولو على صورة يبدو الضعف عليها بادئ بدء ، على أن تكون زراعتهم وصناعاتهم الزراعية في أيدي شركات تستثمر كل شيء لنفسها .

قلت له : إني أغضي عن هذا التقصير أيضاً وما زلت أقول إن كل شيء صدر منكم يمكن الجواب عليه ولو جواباً ضعيفاً ، وأمر واحد لا يجاب

عليه وسياستكم اقتضته ، وقد أضر بنا كثيراً ، وأعني به تقسيم سورية إلى دول ، وانتم ترونها إذا أنصفتم لا يتألف منها مع فلسطين وشرقي الأردن أكثر من دولة صغيرة ، وقد حركتم عرق الطائفية في النفوس وأذكيتم جذوة التعصب الديني بين أبناء الوطن ، فزادوا تباغضاً وهم أحوج ما يكونون إلى أن يتحابوا ، وزدتموهم تباعداً عن السواد الأعظم من السكان ، ومصلحتهم في التقارب والتفاهم واعتمدتم على غير المسلمين في دواوينكم فبرهنتم على تحزب لا ينطبق مع الاصول التي عرفت عنكم .

كنت في دعوة رئيس الوزراء ، وكان الى جانبي الكولونيل ترا كول مدير استخبارات الشرق ، فأردت أن أفتح معه حديثاً ، فسألته عن سير الثورة في فلسطين (الثورة التي نشبت قبل الثورة الاخيرة) فقال لي : لا شيء ، فقلت له : إن جيشاً منظماً يقضي بالطبيعة على ثورة يقوم بها شعب أعزل في أيام قليلة ، فقال : أنتم ماذا تعملون هنا ؟ فقلت له لا بد أنك شاهد ما نصنع قال : أتحب أن اصدقك ؟ لو كنت مكانكم أمس وجاء هؤلاء المتظاهرون الى دار الحكومة يهتفون لاستقلال فلسطين ، لأخذت منهم عشرين رجلاً وصلبتهم . فقلت له : ولماذا تقتلهم وهم طالبوا مطالبة سلمية فقط ؟ فأطل عليهم رئيس الوزراء من الشرفة وحياهم وقال لهم : سأسعى لمعاونتكم على طلبكم . فماذا حدث من ضرر في ذلك ؟ ثم إنا لسنا هنا كجمال باشا في عهد الحرب العامة جئنا لنقتل الخلق فمن يستحق القتل يقتله القانون ، فقال : أقول لك الحق ، المسلمون بهائم . فاضطربت لهذا النعت الذي نعت به المسلمين . وأحببت أن أضعف له تهوره هذا ، فقلت له : أظنك تعني مسلمي فلسطين . قال : لا جميع المسلمين بهائم Tous les musulmans sont bêtes فزاد غضبي وقرأه في وجهي ، فأحب أن يسترضيني ، وكان أمامه كأس من الشمبانيا تناوله وقدمه الي فامتنعت من أخذه، وقلت له : أظنك نسيت أني مسلم ومسلم قائم بما فرض الاسلام علي ، وهذا الخمر محظور في ديني ، فسكت وسكت .

ولما انتهى المدعوون من طعامهم وانصرفوا ، ذكرت لرئيس الوزراء ما فاه به مدير الاستخبارات ، وكان الرئيس يحاذر منه ، لأنه يريد به الشر ويبغضه ، وقلت له : هذا ما وقع ، فالرجل اذا لم يحضر غداً الى مكتبي ويعتذر مني ومن الحكومة رسمياً عما جرحني وجرح امتي به بهذا الكلام الجاف ، فأنا مستقيل بعد غدٍ من الوزارة فأصبح من أفراد الامة ، وأنشر هذه القضية في الملاء في نشرتين بالعربية والفرنسية . ومما قلته إن حكم هذا الرجل حكمه الجائر على أمة عظيمة لا أرضى مثله أن يقوله لي ، فالمسلمون فيهم رجال كالاوربيين بعلمهم واخلاقهم ، وأي سخافة أن يحكم على ثلاثمائة مليون من الشعوب المختلفة حكمه هذا . أنا إذا قلت للمسلمين أنتم بهائم قد يقبلون مني اعظم من قولي لصدوره عن حب لهم يراد به حضهم على الأخذ بأسباب الترقي ، أما ان اسمعها من فم تراكول فلا .

فأبلغ رئيس الوزراء ما جرى وما قلت ، وعرف كيف يستغل الحادث فجاء مستشار الداخليـة المسيو فوكنو من الغد إلى غرفة رئيس الوزراء ودعاني فسألني المستشار عن القصة ، فقصصتها عليه كما وقعت فقال المستشار : اما كان تراكول سكران ؟ فقلت له : لا . وبعد انصراف المستشار تقدمت إلى رئيس الوزارة وقلت له : استرحت من تراكول ، فهو سينحى . فاستبعد ذلك وقلت له : سترى ، وما مضى عشرون يوماً حتى عين الكولونيل الذي ازعجني بكلامه السخيف قائداً على فرقة في الجزيرة ، فجاء يودع رجال الحكومة ، وودعني في الجملة ، فلما صار في الباب قال لي وزير المالية السيد توفيق شامية إنه يحبك كثيراً . قلت : هو فانٍ في حبي وانا ايضاً فانٍ في حبه ، وكانت تنحية تراكول بفضل المسيو بونسو المفوض السامي وكان من اعقل من تولوا هذا المنصب في عهد الانتداب .

ضقت ذرعاً بمستشار المعارف المسيو راجي ، وكان يتدخل في كل الأمور ، اعتاد ذلك من أيام سلفي وزير المعارف السابق الذي هان عليه أن يكون بيد المستشار كالميت بيد الغاسل . فكان راجي يفاوض المدارس

مباشرة ، ويراسل ارباب المعامل في فرنسا ليبتـاع منها للوزارة الادوات والآلات والكتب والورق وغير ذلك ، ومن اهم ما افتضح به امره تدخله في اضراب طلبة الجامعة عندما اردت انقاص موازنتها لأخذ الزائد لانشاء مدارس في القرى ، وهو الذي أهاجهم فهاجوا ، ثم دعاهم الى السكون فسكنوا . فكتبت كتاباً خاصاً الى المسيو بونسو المفوض السامي ، أذكر هذه المسائل ، واقول إن مثل هذا الرجل يضر بسمعة دولته ، وأنتم إنما جئتمونا لترشدونا وتعلمونا ، ومصلحتكم تقوم بمستشارين ينفعون ولا يضرون .

وافتتحت الكتاب (٢٨ كانون الاول ١٩٢٩) بما تعريبه : تفضلوا فاسمحوا ان ألفت نظركم العالي الى امر يهم فرنسا ويهم سورية على السواء وان أعرب لكم عن رغبتي الصادقة في ان ارى العلائق منسجمة كل الانسجام بين الدولة المنتدبة وحكومة بلادي ، وتقوم علائق الود بين البلدين بعدة امور لا اذكر الا واحداً منها واعني به نشر الثقافة الفرنسية والسورية ولا تنتج هذه النتيجة الحسنة الا اذا كان من يمثل هذه الثقافة الفرنسية العليا في سورية متحلياً بصفات عالية وعلى سيرة حسنة ذلك لان بيده احياء العلم الفرنسي والعمل على الجمع بين الامتين بجامعة الفكر والثقافة . وليت شعري هل يقوم من عهد اليه القيام بهذه المهمة بامانة واخلاص . اما انا فأشك في امره كثيراً . ان سلوك مستشار المعارف خلال السنين الاخيرة يدعو السوريين الى الشك في حسن نية الدولة المنتدبة فهو لا يضرّ بسورية فقط بل يتناول ضرره الى اسوأ من ذلك هو يسود اسم الفرنسي في سورية واليكم باختصار ما قدمت يداه . وهنا اوردت عشر مسائل اساء فيها المستشار الاستعمال فثبت عليه بالتحقيق سوء عمله ولما ارسلت الكتاب في البريد اخذت مسودته وتلوت ترجمتها على رئيس الوزراء فقال : ولماذا لم تفاتحني بالامر قبل ان قمت بما قمت به ؟ فقلت له : لأني تألمت نفسي لما أهاج رئيس الجامعة بالاتفاق مع المستشار جمهور الطلبة احتجاجاً علي ، فحاولت ان اكتب في الصحف حقيقة المسألة ، او ان ادلي بحديث لاحد محرريها ،

فأبيت علي ذلك ، ورأيت انك عاونت مدير الجامعة اكثر مما عاونتني ، وانت تعرف اني على حق وهو مبطل ، فوقع في نفسي ان اشكو المستشار مباشرة ثم اعرض عليك ما تم ، فقال : اما والامر كذلك فلا يسعني إلا ان امشي معك ، ولعله كان يعرف ان المستشار يعمل مع السيد جميل مردم بك ، بواسطة ترجمانه ، على إقالة الوزارة ايتولى الحكم ، فرأى ذلك خير وسيلة للخلاص منه .

وكان من اثر كتابي للمفوض السامي ان وقع التحقيق عن المستشار فثبتت صحة اقوالي فيه ، واقيل من منصبه بعد نحو عشرة ايام . وكان ذلك بفضل المسيو بونسو . ولم يعهد فيما علمت ان اقيل مستشار في سورية ولبنان في عهد الانتداب من اجل خلاف مع وزير . وربما كان كل من تولوا الوزارات الين عريكة مني فسددوا وقاربوا واتفقوا مع مستشاريهم ، ولو كان الاتفاق على مضض ، وأنا غالبت مستشاري فغلبته ، ولجأت الى الطرق القانونية في شكواي منه ، وذلك بعد ان اغضبني مرات واغضبته ، وهذا أيضاً من فضل المسيو بونسو العاقل الذي لا يفر ممن يكلمه بالمعقول .

جاءني المسيو راجي مستشار المعارف بموازنة الجامعة السورية ، وكان من اعظم المنتدبين عطفاً عليها وعلى رئيسها للصداقة بينهما . وكان هذا يهديه في كل فرصة هدية عظيمة يستديم بها صداقته وحمايته للجامعة — ورجاني أن اصادق عليها بسرعة فألقيتها في القمطر ، وجاء بعد يومين يطلبها ، فقلت له : إني لم انظر فيها ، وبعد تسويف ما طال اكثر من اسبوعين ، وهو يراجعني بالحاح ، مللت منه فنظرت فيها فاذا هي تحمل في مطاويها اسرافاً عظيماً ما توقعت ان ارى غيره ، وفي الامكان أن يقتصد منه خمسة وسبعون الف ليرة ولما عدت واجتمعت بالمستشار قلت هذه الميزانية عمل اخرق والاسراف فيها ظاهر فقال : أنا الذي نظمتها ، فقلت : ولو كنت أنت ، فغضب وأظنني في ذاك اليوم قلت له : أرى أنك لم تطلع على ترجمة حياتي : فقال : وكيف لا . قلت : إني على ثقة أنك لا تعرف دقائقها . اعرف ياصاح أني مازلت منذ

خرجت الى معترك الحياة احارب الظالمين والمرتشين والسارقين من الموظفين ، وقد كتبت ذلك في كتبي وفي الجرائد والمجلات التي حررتها أو آزرت بها ، ودعوت الى اسقاطهم جهرة في المجالس والمجتمعات ، وتحملت في سبيل دعوتي كل اذى وأقيمت علي القضايا ، وابتليت باشد البلايا ، وليس من نيتي الآن أن اناقض نفسي ، فأعمل في آخر أيامي ما يخالف ما عملته ودعوت اليه في أولها ووسطها . ليس عندي صندوق أدفع منه الهدايا لمن أحاول استمالة قلبه ، أنا صحيفتي بيضاء ، وجبيني ناصع ، وأجري على بصيرة ، ولا أخاف أحداً إلا ضميري . فلما ذكرت لفظة (الهدايا) احمرت اذنه الواحدة ، حتى صار لونها احمر ادكن ، وأخذت تضطرب كرقاص الساعة . فتركني بدون ان يسلم عليّ وخرج مغاضباً ، وراح من ساعته يشكوني الى حاميه المندوب . ومن الغد كلم المندوب رئيس الوزراء ، ونقل له ما قلته للمستشار ، فقال : إنه لم يبلغه ما جرى ، وماذا يقول لي وانا ثقافتي افرنسية وعن الفرنسيين أخذت . فقال له المندوب : صحيح هذا ، وانا اجتمعت معه مرتين ، فرأيته حسن المأتى ، لطيف العشرة ، وما عرفت السر في ان يبدأه المستشار بمثل هذا الكلام القاسي . فقال الرئيس لا بد ان يكون المستشار فاه باشياء اغضبت الوزير ، فأجابه هذا الجواب ، وانتهى الأمر عند هـــذا الحد ، وما صادقت على الموازنة او ترفع منها الزوائد ، فاضطر رئيس الوزراء لاقرارها حسماً للنزاع وارضاء للمندوب ، ولأنه لا يحب ان يغضبه من اجل مبلغ زائد في ميزانية الجامعة .

وكثيراً ما كنت اطرح في القمطر اوراقاً يبغي المستشار ان ابادر للمصادقة عليها ، لعلمي بأن فيها اشياء لا يرتاح لاقرارها قلبي ، وتنطوي على اسرار صعب كشف غامضها . واذكر اني حققت مرة سيرة إحدى معلمات دمشق ثبت لي ان في سلوكها بعض الهيدة ، واحببت نقلها إلى مكان قريب ، فراحت إلى وكيل المندوب وترضته فكلم رئيس الوزراء بشأنها ، فرجاني هذا ان اصرف النظر عن ابعادها ، كما التمس مني المستشار ذلك واكثر

عليّ الشفاعة بها ، فضجرت وخرجت عن اعتدالي وقلت له : ابلغ سعادة وكيل المندوب ان وزارتهم لا تساوي في نظري شيئاً ، كيف تحمون معلمة ثبت بتحقيقات الشرطة وغيرها انها سيئة السيرة ، وتردون كلام وزير احب ان يطفيء مسألة قذرة بأبعاد المعلمة عن المركز ، وكان الواجب طردها من سلك التعليم بدون توقف ، واكدت عليه ان ينقل كلامي هذا إلى الوكيل ، وفهم اني فهمت ما جرى ،

ومثل هذه المسائل كانت تؤلمني كل الألم واطالما هممت بالاستقالة لولا ان كان يحول دون امضاء ما ارغب فيه صديقاي الاستاذان مصطفى تمر وشفيق جبري ، وكانا من اعظم رجال الوزارة ويدي اليمنى فيها ، فأرجع عما قصدت حباً بالمصلحة ، وكان الخير في هذا التصبر والصبر ، لأن المستشار اقيل بعد مـدة ، وتفرغت للعمل على ما احب بدون عائق حتى آخر ايام الوزارة .

المشهور عن الفرنسيين انهم كالمصريين اضعف الامم في معرفة الجغرافيا ، وقد لا يحسن المتعلم منهم جغرافية بلاده دع غيرها . وكثيراً ما وقع لي ان تحدثت في فرنسا إلى بعض اهل الطبقة المتوسطة فـكانوا يستغربون ما اقصه عليهم من أحوال الديار الشامية ولا يعرفون اين هي من معمورات البلدان ، وكنت اراهم اجهل ناس بأمم الشرق عامة والمسلمين خاصة ، ورأيت بعض المنورين منهم في عهد الانتداب في الشام حاولوا في دائرة اختصاصهم ان يدرسوا ، فأتى بعضهم بنتائج حسنة ، ودونوا كتباً من ذلك في الآثار والاقتصـاد والعاديّات ، تألفت منها مجموعة والتعمق في مدوناتهم يقل ، ويفوقهم الانكليز السكسونيون في ذلك

كان بعض من ألقاهم في السفر والحضر إذا سألوني عن أشياء وأخبرتهم بما أعلم ، يظنون أني اتزود فيما أروي ، وأستملي من خيالي معظم أقوالي ورأيت بعض الاوربيين يعتقدون أننا سود البشرة كالزنوج — والاتراك لفرط ادبهم يطلقون على الكلب الاسود اسم (عرب) لأنه أسود كالعربي

بزعمهم — ومن الغربيين من يعتقد أن أهل سورية يأكلون البشر ، ومن يرتحل منهم إلى سورية يعدونه كالذاهب إلى أرض واق الواق ، فاذا عاد إلى أهله سالماً هنأه أصحابه تهنئة من دخل منطقة الخطر وخرج سالماً .

كنت مرة في لوزان نازلاً في منزل كان فيه معي سيدات وسادة من ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، فجرّ الحديث على المائدة إلى الكلام على الاسلام ، وأوردوا عليّ المطاعن التي وجهت إليه ، فكنت افندها ولا سيما مسائل الزواج وتعدد الزوجات وابين فيها حقيقة الدين ، واترجم لهم بعض آيات الكتاب العزيز ، وأورد لهم شواهد من التاريخ والاحوال الحاضرة ، فيعجبون من هذا التباين بين ما يسمعونه مني وما يروونه عن غيري . ودام هذا الحوار عدة ليالٍ ، فكان معارفي هؤلاء يستغربون أقوالي ، ويتلطفون فيقولون إنهم لا يشكون في صدقي ، فمن أين جاء هذا التناقض إذاً ؟ فكنت أقول لهم إن ما قرأتموه هو مما كتبه رهبان العصور الوسطى ، وما زلتم تتناقلونه إلى اليوم حقائق مسلمة ، وما هو إلا مما أملاه التعصب الذميم ، ومن مصلحة الرهبان ألا يقولوا غير هـذا ، وألا يشيعوا غير سوء القالة عن الاسلام والمسلمين . وبهـذا علمت علم اليقين أنه رسمت للاسلام وأهله صورة قبيحة جداً في قلب كل غربي ، وأن العرب والمسلمين عامة مقصرون في هذا الباب ، وكان عليهم أن يعمدوا إلى التعريف بأنفسهم وبدينهم وتاريخهم ، كما تفعل أصغر الأمم شأناً . وكثيراً ما اشتهيت لو انشئت مجلة باللغة الفرنسية والانكليزية ، تبين حقائق الاسلام والعرب ، ولتصحح ما جاء ويجيء في الكتب الافرنجية من الأغلاط ، وما يتسرب كل يوم من الهفوات الفاحشة إلى ما ينشر في الصحف والمجلات .

وقد انتبه إلى ذلك حكيم عظيم من حكماء فرنسا هو غستاف لبون فارتأى أن يعاد النظر في كل ما يدرس من مادة التاريخ في مدارس فرنسا ، ولا سيما تاريخ العرب والاسلام ، حتى لا يتعلم أبناؤها تاريخاً محرفاً مكذوباً

وقال مرة : إن مدنية فرنسا مدينة بأمور كثيرة للعرب وأن الفرنسيين لا يشيرون إلى ذلك إذ يعد بعضهم الاعتراف به مما يتنافى مع حب الوطن والوطنية .

كانت الكتلة الوطنية ، في آخر ايام وزارتي الاخيرة ، كثيراً ما تهيج الطلبة وتحملهم على الاضراب والاستخفاف بالمدارس وقوانينها واساتذتها ومديريها ، فكنت انصح سراً لبعض اصحابي منهم ، وارجوهم ان يتركوا الطلبة في دروسهم حتى لا يشتغلوا بما يصدهم عنها ، فيخسرون انفسهم ، ويخسرهم اهلهم ووطنهم . واضربت مرة مدرسة تجهيز دمشق وتجهيز حلب ، وجرت فيها امور تعبث بالنظام ، فجاءني الى داري ترجمان المستشار ، ومعه كتاب كتب على الآلة الكاتبة ، مفاده صدور امري باغلاق تجهيز دمشق الى اجل غير مسمى ، فاخذت الكتاب واستدعيت المستشار فقال : لا بد من الاغلاق . فقلت له : إن في اغلاق المدرسة تحدياً للطلبة ، وقد تسري دعوتهم الى سائر المدارس ولا سيما الابتدائية ، فنقع في مأزق اصعب . فأصر على تنفيذ الاغلاق ، وقال إن المندوب يرى ذلك ، فاجتمعت بالمندوب وقلت له : إننا بذلك نزيد النار اشتعالاً ، وليسمح لي سعادة المندوب ، وكان المسيو سولومياك ، وهو من خير المندوبين في دمشق يشبه الكولونيل كاترو والمسيو لافاستر بحزمه وحسن ادارته وعفة نفسه — ان اقول له إني اعرف روح البلد واوقن ان العنف في هذه الاحوال لا يجدي شيئاً وانا وإن كانت الامور السياسية من شأن المندوب ، ارى هذه المسألة مسألة ادارية ، وللوزير ان يتكفل بحلها . فقال : هل تتحمل انت تبعة عدم الاغلاق ، فقلت له : نعم أتحمله ، اتركني اعمل وحدي . فاستدعيت من الغد اساتذة مدرسة التجهيز وقلت لهم إن النية اغلاق المدرسة وإذا اغلقت لا يعلم متى تفتح ، وأبنت لهم ما ينتج من الضرر من ذلك للطلبة ولهم ، بقطع رواتبهم مدة التعطيل ، وأوعزت اليهم ان يتطوعوا كلهم لاعادة الطلبة الى الدروس ، ومن الغد كانت الصفوف تامة وشكرني وقال : حقيقة إنكم تعرفون اهل بلدكم .

أما مدرسة حلب فان مستشار معارفها رأى طرد ثمانين طالباً منها ، فاستدعيته الى دمشق واستدعيت معه مستشار المفوضية المسيو بونور وغيرهم وقلت : إني غير مستعد لأن أطرد أحداً ، لأني بطردي ثمانين طالباً أقضي على مستقبلهم ، وأدعو أهل حلب أن يثوروا على الحكومة ، فما أحب أن تنشب ثورة في الشهباء ولا في غير الشهباء ، فسرّ مستشار المفوضية من كلامي ، وكان يعرف مثلي أن مستشار حلب غير أهل لمنصبه وان رأيه هذا من الآراء « الخنفشارية » فلما صدر مني رفض الاغلاق تهلل وجهه كثيراً . وأذكر أني لم أسمح إلا بطرد طالب واحد طرداً موقتاً ، وعادت المدرسة الى الانتظام في سيرها .

ومن الغريب ان هؤلاء الطلبة المساكين الذين كانوا يحملونهم على مخالفة النظام ، ويباعدون بينهم وبين دروسهم ، ويعلمونهم التهجم على أساتذتهم ، عادوا فانقلبوا على الكتلة نفسها لما تولت الحكم ، وكانت لهم يد في زحزحتهم عن كراسيهم ، واهانوا بعض زعمائهم . وهذا ما كنت احاذر منه ولطالما قلت لبعض اعيان الكتلة : إنه لا ثقة بصداقة العوام لأنهم لا يستحون من نفض ايديهم من ايديكم يوم تنقطع فائدتهم المادية منكم ، وكذلك الأولاد فان افكارهم غير مستقرة ، فليست مظاهرتهم قوة لكم . وحكومة تستند الى مثل هذه الركائز محكوم عليها بالانهيار ، فحققت الأيام قولي .

ألحّ عليّ رئيس الوزراء بتعيين معلمة افرنسية في ميتم الاناث ، وما كان لها راتب في موازنة هذه الدار . ولم تجر عادتنا في المدارس الابتدائية أن نعين معلمات من غير الوطنيات . ورأيت المستشار يتشدد في رفضها ، ويشير الى ان سيرتها غير حسنة ، والرئيس يزيد الحاحاً حتى اضطرني الى ان اقول له إنه لا ينجح في مساعيه ، وان من الخير له أن يصرف النظر عن تعيينها ففعل ، وبعد أن كاد أحدنا يغضب الآخر ، وقلت له ما قاله المستشار : هل يرضيكم ان تكون معلمة يتيماتكم سيئة السيرة ، وعرفت سر

التعيين من كلام المستشار فأغضيت وتغافلت (وأنفك منك ، وإن كان اجدع) .

جاءني المستشار كوله يريد عزل المسيو بورين مدير الدروس الفرنسية في تجهيز حلب . وكنت أعرف أن امرأته كتبت مقالات في جريدة (لا سيري) الصادرة في بيروت غضب منها بعض الفرنسيين في الشهباء ، فأحبوا الانتقام منها بطرد زوجها من وظيفته . وكانت حجتهم لاقالته أنه لا يحسن التعليم ، وان الطلاب يشكون منه ، فقلت للمستشار إن تعيين الموظفين الفرنسيين هو من خصائصكم ، وإن كان الموظف عندنا من ابنائكم يعد سورياً في العرف ، لأن راتبه من خزائننا ، ولا يعين إلا بتوقيعنا وأنا لا اريد ان اقيل هذا الاستاذ لأسباب منها اني عرفته ينفع الطلاب ، وسمعته مرتين في قاعة التدريس يدرس تدريساً حسناً ، وقد اخذ عنه كثيرون من ابناء حلب لغتكم ، وما سمعت شكوى منه ، فاذا كان على ما يزعمون من ضعف ، فما بالهم سكتوا عنه ثماني سنوات ، وهو في الخدمة ، ولِمَ لم تعرف عيوبه إلى اليوم ، ثم إن الرجل مصاب بمرض القلب ، إذا اقلته يتأثر فيهلك حالاً ، ولست مستعداً لأن اقتل استاذاً إرضاءً لخاطر من غضب عليه . وانا اعرف « يا سيد » ان هذا الانتقام موجه إلى امرأة الرجل في شخصه الضعيف ، فان كان لهم ما يقال معها فليحاسبوها على ما كتبت ، وهذه المحاكم مفتحة الأبواب لهم .

وناقشني المستشار مناقشة طويلة ، فأصررت على رأيي ، وكنت ارد عليه بلطف ، لأنه كان لطيفاً ، وما استطاع ان يزحزح الاستاذ الفرنسي عن مقره ، وعجب من التزامي له . ولما نجوت من جعل وزارة المعارف آلة انتقام من رجل شريف من عمالها ، جاءتني صاحبة المقالات إلى المكتب الرسمي وارادت ان تقبل ركبتي ويدي ، فتجاهلت ما وقع ، فقالت : علمت بكل ما تفضلت وقلته بشأن زوجي ، وبموقفك الشريف في الدفاع عنه . واقسمت انا معشر السوريين اقرب إلى العدل من الفرنسيين . فقلت لها : إنا تعلمنا هذا من اجدادنا ، ومن فلاسفتكم وعلمائكم .

لم يرتق فرع من فروع الادارة على عهد الانتداب مثل ارتقاء الدرك والفضل في ذلك للقواد المحنكين الذين لماوروا اصلاح هذا السلك ، وكانوا من طراز عال علماً واخلاقاً وحنكة . جاءني وانا في مكتبي في قصر الحكومة الكولونيل بريفو قائد الدرك مودعاً . وكان من هذا العيار النفيس الذي ذكرت . ويذكر له اهل دمشق في احدي المظاهرات حادثة دلت على نبل وكرم أخلاق ، ذلك ان احد المتظاهرين رشقه بحجر في جبينه فأدماه ، وجيء بالضارب فانكر انه هو ، وقال إن الضارب طفل رآه ، ولو كان غيره لأمر في الحال باطلاق الرصاص على المتظاهرين . فقلت له : إنك ياحضرة الكولونيل لا تعرف أهل هذه الديار بقدر ما اعرفهم انا ، وإني على ثقة ان مئات منهم يحبونك على البعد ، وهم لا يعرفون شخصك بل يعرفونك باعمالك ، ويعجبون بما قمت به من اصلاح الدرك ، حتى كان هذا الأمن الذي لم نشهد مثله ، نحن ياسيدي العزيز امة لنا مالسائر الأمم من محاسن ومساويء ، ولكن شيئاً واحداً ما عهد فينا وينافي طباعنا وهو نكران الجميل ، فلا ننسى على وجه الدهر من يسدي الينا يداً ، بَعدَ عنا او اقترب. ولما كنت أنت احسنت لهذا القطر ، فالقوم يعجبون بك ، ويتبعون إعجابهم بك بالثناء عليك والدعاء لك ، وأنا ادعو لك بان تتمتع بالصحة حيث كنت انت وعيالك وان يكون النجاح قرينك في كل عمل تتقلده ، فتأثر من كلامي ودمعت عيناه . وددت لو امكن تقديم هدية صغيرة اليه باسم الاهلين تذكاراً له على عمله المجيد ، ولكنا الشعب اعتاد ان يصرف الالوف في أمور غير منتجة ، ويغفل عن القيام بأمور تعد في نظر العقلاء من الواجبات .

زارني الكولونيل برت قائد موقع دمشق ورئيس اركان حرب الفرقة يقترح عليَّ ان ادخل في سلك التعليم فتاة مسلمة كانت امها جارته وقال لي : إن امها فقيرة وعلمتها ، فعينتها في الدرجة التي تليق بها . ونشأت بيننا صداقة واخذنا نتزاور ومما قال لي : إني عرفتك وعرفت اخلاقك وصلابة عودك من التبليغات السرية التي نبلغها في حركة الادارة والسياسة ،

وما يقع من الحوادث الجسام ، واطلعت على ما وقع بينك وبين مستشارك ، وما كان من تغلبك عليه بالحق . ومما قال لي : إني اشبه المسيو كلمنصو رئيس وزارة فرنسا زمن الحرب العامة ، بصورة الوجه وصلابة الرأي . واستفدت منه اموراً كثيرة لأنه كان بحر معرفة وتجربة . وتفاوضنا مرة حال رجل كان هو يستغرب ما صدر منه ، فلما قلت له إنه اسرائيلي تونسي اهتز اهتزاز الطروب واجابني : الآن سريت عني ورفعت الاشكال ، لأني كنت استفظع عمله ، واستبعد صدوره من افرنسي الأصل . وحقيقة إن الدخلاء على الفرنسيين كانوا دائماً احط من الفرنسيين العريقين في جنسيتهم . فحسن الخلق والتهذيب تتجليان في الفرنسي غالباً . ولطالما استبان لي الأدب في العريق في افرنسيته ، حتى ولو كان من الطبقات النازلة ، اما الدخيل عليهم فيكون على الاكثر وضيع النفس إلاّ من رحم ربك . ولا عجب ان يكون الاصلاء على هذه الأخلاق الطيبة فهم امة تتعلم وتتهذب منذ اجيال ، والمدنية متسلسلة في اعقابهم .

قال صديقي الامير طاهر الحسني لاحد رجال الانتداب بعد مرور سنين عليه في سورية : لقد خدعتمونا بمن كان يفد علينا من رجالكم ، وكنا نظن ان جميع رجال الحكم والادارة من ابناء فرنسا هم من عيار القناصل الذين كانوا يشخصون الينا ، اخلاقاً وعلماً ونزاهة وسياسة ، فاذا عندكم مثل ما عندنا وعند غيرنا . وقلت للامير ان رجال السلك السياسي هم طبقة مختارة في فرنسا ، وقد يكونون من ابناء الاسر القديمة ، وعلى شيء من السعة ، لا يسفون الى ما يُسِفُّ اليه غيرهم من ابناء الطبقات الأخرى ، ممن كان يقع نصبهم بواسطة الاحزاب والمحافل الماسونية وغير ذلك .

ولطالما رأينا بعض رجال الانتداب في الشام ممن تولوا مناصب عالية ، وهم في الاصل من رجال السلك الدبلوماسي على اخلاق حسنة وكفاءة ممتازة يملأون كراسيهم كما نقول ، يحبهم الاهلون وهم يحببون اليهم فرنسا بسيرتهم الطيبة . عرفت كثيرين من هذه الفئة ومنهم صديقي المسيو لافاستر .

فقد قضى سنين طويلة في ادارة المطبوعات ومندوباً للمفوض السامي في حلب ودمشق ، فكان مثالاً صالحاً في الجمع بين مصلحة حكومته ومصلحة وطننا ، ومن أقدر من عرفوا معنى التعاون النزيه .

كان يقصدني في وزارة المعارف لحسم بعض مسائل تتعلق بولاية حلب فنتفاهم حالاً ، وما كان أقل من أعظم الوطنيين غيرة على حلب ومصلحة أهلها ، وكنت اذا رأيت هذا أعجب به وأقول له وأشكره على هذه العاطفة الشريفة وأبادر بما في طاقتي لاجابة طلباته كلها وربما زدت عليها . وكثيراً ما كنت أقول في سري : حبذا لو كان جميع المنتدبين كصاحبي لافاستر يبذلون من قلوبهم وعقولهم ، لخدمة ما وكل اليهم انجازه في أرضنا .

ليس كل من ينتقدون هم على صواب ، ولا كل من يعترضون على الفرنسيين يحققون ما يقولون . الديمقراطيات تخرج رجالاً ، والملكيات تخرج رجالاً ، ومن كان جوهره جيداً مهما كان نوع الحكم الذي درج في ظله ينفع أمته ولا يضر غيرها . وفرنسا مهما كان حالها لا ينكر عليها عاقل بيض أياديها على العلم ، وهي ، مهما قال فيها الغاضبون عليها ، مهد النظريات الاجتماعية والسياسية . ونحن السوريين إذا اختلفنا مع بعض الحكومات التي تولت الأمر هناك من أجل قضية استقلالنا فالانصاف يتقاضانا ألا ننسى فضل القوم ، على ما ذكرت ذلك مفصلاً في غير محل من هذه المذكرات .

الفرنسيون يغلطون كما تغلط كل أمة ، ومن أغلاطهم السياسية نحو أنفسهم أنهم دخلوا في هذ الحرب الناشبة على ضعف استعدادهم لخوضها ، لا جرم ان العدل يقضي أن نعترف لفرنسا بحسناتها ، ونذكر إلى جانبها غلطاتها . وأي دولة في النصرانية والاسلام ، وفي الشرق والغرب ، لم نسجل عليها سيئات كما دونت لها الحسنات .

طغى حب المادة على أمم الغرب كافة ، وكان لفرنسا نصيب منه ،

ففسد بعض أولي الأمر فيها ، وفسدت صحافتها ، وضعفت أوضاعها وميزاتها . اعترف عقلاؤهم بذلك موخراً وأقروا أن الواجب مماورة كل ذلك بالاصلاح والنظر ، وتنشئة جيل جديد على غرار الاجداد ، يراعون الفضائل ، ويدركون معاني الوطنية السامية .

كنت على مثل اليقين يوم درست أصول الحكم النيابي أو الحكم الجمهوري والشعبي أن هذا الاسلوب بالنظر لما أقرؤه في صحف الغرب ، وأعرف من أسرار هذه المدنية ، ما لاق من كل وجه لجميع الدول ، وكانت سويسرا وانكلترا في مقدمة من حسن أثره فيهما ، لان الحرية تغلغلت في أبناء تينك الأمتين وتأصلت فيهم الشورى والغرام بها ، فكان كل فرد فيهم مشتركاً فعلاً في الحكم ، ويغار على هذا الطراز منه كأنه هو له وبدونه يموت ويفنى .

أما الولايات المتحدة وفرنسا حيث كانت الديمقراطية أيام ومواسم فان الحكم النيابي في جوهره عندهما حكم الفوضى ، وتشتت الكلمة ، والاضطراب الدائم ، والحزازات المستديمة وسوء الاستعمال والعبث . وكل من درس أصول انتخاب أعضاء مجالس النواب والطرق التي يسلكونها للنجاح ، وتسلكها الأحزاب والأنصار ، بدون نظر الى حياة المرشحين وعيارهم الذي يؤهلهم لتحمل هذا العبء الخطير — يدرك أن جودة الاختيار تكاد تكون مفقودة ، وقد لا يصل إلى كرسي النيابة الا الوسط في علمه وتجاربه وذمته ، ولذلك تصير أزمة الحكم الى أيدي بضعة من شياطين الأنس في كل أمة يصرّفون الامور على هواهم ، والباقون تبع لهم . ومجالس تتألف في حقيقتها من أناس متوسطين بقرائحهم ، لا يبالون الشرف الحقيقي ، هيهات أن يحصل منها الأثر النافع من كل وجه ، ولا يرجى منها إلا أن تركب ما يؤذي ، والنفع منها قليل ، ذلك لان الوسط لا شيء في هذا الجهاد العالمي ، وما الشأن إلا للاشراف الممتازين من أرباب البصيرة . وكاد العقلاء في فرنسا

يجمعون منذ سنين على ان الديمقراطية افلست وذكروا من مساوئها الشيء الكثير ، وصاحب الدار ادرى بالذي فيه ، فدلوا على أن الفاظ الحرية والاخاء والمساواة كلمات جوفاء ليست إلا طلاء غراراً بلمعانه ، وخضاباً ينصل ولا يثبت على الحوادث .

إن من يصل الى منصبه مهما كانت درجته بقوة المال أو الجاه لابد أن يستحل أخذ ماأعطي ، وقد لايعطى إلا من يحب أن يأخذ ، ولا يتوقع من رجل هذه حاله إلا الانغماس في أمور خسيسة ، لاتهمه كثيراً معالي الامور . ومنذ عرف تاريخ البشر كانت نفسية أهل هذه الطبقة فاسدة منحرفة . ومن ارتشى صنع ما أمر به ، ولا خير للمجتمعات من راش ولا مرتش .

خيالاتنا

لما زرت باريز بعد الحرب العالمية ، رأيت أناساً من الطبقة التي تفهم بحسب الظاهر لم يبلغها ما جدّ من العلائق بين سورية وفرنسا بعقب الحرب ، ومنهم من كانوا لا يعرفون أن لدولتهم جيشاً في أرضنا ، وأن فرنسا عهد اليها النظر في حال الديار الشامية مع انكلترا ، بل بلغ الجهل ببعضهم أنهم لا يعرفون مركز سورية من مصور الامم ويعدونها من أرض الترك في آسيا ، كما كان يقال لها على عهد العثمانيين ، .

ولدن عودتي من تلك الرحلة أسررت لبعض المشتغلين بالمسائل العربية أن القوم في باريز لا يعرفون ما يجري في ديارنا ، فالأولى أن توفدوا رجلاً أو اثنين ليقوما بنشر ما يجب أن يعرف عنا ويحتكا بالطبقة التي يرجع اليها الحل والعقد عسى أن يكون من ذلك فائدة ، وقصصت عليهم بعض ما رأيته وسمعته . وبعد ايام زارني أحد أصدقائي وهو زعيم عظيم من زعمائنا ، وكنت قدمت استقالتي من وزارة المعارف ، وعرض عليَّ الرحلة الى باريز في المهمة التي ارتأيت ايفاد رجل لاطلاع الفرنسيين على حقيقة مطالبنا ، وذلك مقابل الف ليرة سورية . فسألت صاحبي إذا كان يهزل أم يجد فقال : وهل المجال مجال هزل ؟ فأجبته : أراكم لم تهتدوا الى الطرق الموصلة للغرض ، فالمسألة أعظم مما تخيلون وبودي لو جمعتم مقداراً عظيماً من المال أولاً حتى اذا توفر لكم ، وضمنت النفقة اللازمة مدة طويلة ، يعهد الى رجل أو رجلين من رجالنا بهذه المهمة ، ويعدان بما يلزمها هناك . وأرى أن من يراد ارساله في هذا الأمر الخطير ، يجب أن تأخذوا عليه العهود الاكيدة بأن يخدم الغرض الذي انتدب اليه فقط ، ومن أهمها ألا يقبل هدية من أي انسان ، وبأي صورة من الصور ، وألا يتقلد

حياته منصباً ما دامت سياسة البلد متقلقلة على أن تتكفل الجمية بعيشه وتربي اولاده حتى يكبروا ، وإذا مات لا يتركون للأقدار ، واذا خان عهدكم تقتلونه . هذا ما أراه لمصلحة سياستنا ، أما الألف ليرة التي تعرضها عليَّ فهي لا تكفي لاستعد للخروج من بلدي ، ، ولو كنت غنياً لتوليت هذا المهم وأنفقت كل ما يقتضي له من النفقات من مالي حتى لصل امتي الى امنيتها . الجد قليل ويا للاسف في أعمالنا ، نظن المعضلات هينة الحل على ما يصوره لنا الخيال ، ولذلك كانت الخيبة ملازمة أكثر أعمالنا .

انتدبت خلال الثورة السورية مع زمرة من أهل دمشق لنلتمس من المفوض السامي رفع ضرب المدينة فتعرفت في القطار الى أحد أذكياء الطليان المثقفين فسألني عما كنا نعمل في بيروت أنا ورفقائي فقلت له : لا شك أنك قرأت في الصحف الغرض من الوفد قال : عرفت ذلك ، ورأيتكم لم تهتدوا حتى الآن الى الطريقة الموصلة الى مطالبكم في الاستقلال ، إنكم شعب لا يعرفكم أهل أوربا حق المعرفة ، ولا يتصورون ما ترمون اليه من المقاصد ، ولا ما بلغتم من درجات الرقي ، فعليكم اذا أردتم أن تفلحوا في رسالتكم أن تتخذوا أسباب الدعاية على نحو ما فعل غيركم من قبل . قال تعلمون أن الطليان قد وفقوا الى تأليف وحدتهم ، وما كان تحقيقها بالأمر السهل لما كانت تلقى من المقاومة . وقد اشتغل لها ثلاثة أجيال منا حتى حصلنا على النتيجة . وكان أجدادنا يصرفون ثلثي جهودهم خارج ايطاليا والثلث الآخر في أرضنا ، ويرسلون أشخاصاً ممتازين الى العواصم الكبرى في أوربا للاختلاط بالنواب والشيوخ والوزراء ورجال الصحافة ، يلقون محاضرات ويكتبون ويستكتبون مقالات يتلطفون فيها بعرض قضيتنا ، وبطول الزمن استجاشوا لهم أنصاراً ، وأسمعوا صوتنا الى من لم يكن يسمعه . ولما قمنا بالعمل الحاسم كان من عطفوا على مسألتنا قوة الظهر من ورائنا يدفعون عنا خصومنا . فكان عمل أجدادنا وآبائنا إفهام الشعوب

والحكومات أننا أمة لصبو الى ضم شملها ، وأنا أهل للقيام بهذه الجامعة وهي حقنا الصريح الذي يجب ألا ينازعنا فيه منازع .

قال وهكذا قامت وحدتنا وأنتم لم تأتوا من أساليب الدعاية شيئاً يعتدُّ به على الوجه الذي توفرنا عليه اعواماً طويلة وفادينا ضروب المفاداة في سبيله . وأهم ما يجب أن تلجأوا اليه ابلاغ أمانيكم الى من يجب أن يفهموها على جليتها وأن تثبتوا انكم أبناء ذاك الماضي المجيد ، وأصحاب تلك الحضارة المشهورة ، تودون اليوم أن تستعيدوها بأنفسكم ، وتظهروا للملاء أنكم أهل للحياة . درس مفيد ألقاه عليّ وعلى رفاقي ذاك المغربي . وأظننا لو جرينا على التعريف بنا وبمطالبنا أولاً وجمعنا ريالاً من كل مواطن لما احتجنا الى ثورة ولكننا أمة قد تبني أمورها على الأحلام تقول كثيراً وتفعل قليلاً

اصطحاب الأغنياء

سألني السيد سعد الله الجابري ، قبل أن يتولى للكتلة الوطنية وزارتي الداخلية والخارجية بأعوام ، لماذا أصحب عبد الرحمن باشا اليوسف ، والمعروف من نزعتي الابتعاد عن الأعيان ؟ فقلت له : إن صداقتي له متصلة بصداقة أبيه وجده لأبي ، وهو لا يشبه أكثر الأعيان الذين جمعوا ثرواتهم بالطرق المعهودة ، ونعمته إنما انتهت إليه بالارث ، وعهدته أقرب إلى الخير من بعض أمثاله ، ولم يعرف عنه أنه استحل الاعتداء على حقوق الفلاحين ، ولا عمد إلى التزوير في استصفاء مال أحد وايقاع ضرر به ، وكان يفضل على الفقراء ويبرهم ، وقد يهب المساكين وأبناء السبيل من الصدقات كل سنة ما لو احصي لكان شيئاً عظيماً .

ثم إني أعتقد أن صحبتي لهذا النبيل قد تسوقه إلى الخير وتنفعه ولاتضره ، فانظر إليه وكان عازماً على تأسيس مدرسة زراعية عملية في تل مسكن إحدى مزارعه في مرج الغوطة ، وأن يقف عليها أراضي واسعة يتعلم الفقراء فيها علم الزراعة على الأصول الحديثة ، وتكون دعامة من دعائم التمدن في هذه الديار . فعاجلته منيته قبيل أن تتم امنيته .

وما خلا عبد الرحمن باشا من اناس كانوا يظهرون أمامه بمظهر الغيرة على مصلحته ، فصارحوه بأنهم يستغربون رضاه عن تصدري في مجلسه ، ولاموه على استماعه لحديثي ، وعلى العمل أحياناً بآرائي . فأجابهم إنه رآني أعفَّ عن ماله ، ولا اسف إلى شيء مما يسفُّ إليه بعض حواشيه ، وأدعياء صحبته ، وأني ما طلبت شيئاً منه ، وأنه لو كان يعلم أني يهون عليَّ أخذ هداياه لأعطاني كثيراً ، وأنه يحق لي أن أتصدر مجلسه لأني من أعلم

من يختلف إليه ، وأنه يرجو ان أكون لأولاده في مقام الناصح المرشد ، ونصيحة واحدة مني لهم لا يعدلها شيء في نظره . قال ولكل هذه الاعتبارات أحترمه واجله .

وقلت لابن الجابري : وأنا هل أعطيت عهداً على نفسي ألا أصحب حياتي غير الصعاليك ؟ وثق أن اختلاطي بطبقة الأعيان يعدل بعض التعديل في مشاربهم ، على أن من صحبتهم من هذه الطبقة كانوا إلى الخير غالباً . وكان استاذي الجزائري كثيراً ما يوصيني بأولادالأعيان فيقول : إذاأردت دفع البلاد إلى الترقي ، فبادر بادخال النور على أبناء الأعيان ، فعندهم المال والجاه ، وإذا ما تعلموا حملوا إلى أهلهم بذور الارتقاء ، وأصبحوا أعضاء نافعة في خدمة الأمة ، والمتعلم الواحد منهم يحدث ثورة في اسرته .

هكذا كان يرى شيخنا ، وهو رأي سديد فيما أرى ، ولا يتأتى تحقيقه إلا بالاختلاط بأولئك العيون ، والتأليف بين قلوبهم والابتعاد عما ينفرها . وكنت شهد الله كثيراً ما تحاسبني عزة نفسي على عشرة الكبراء في مصر والشام ، وأراني لا أستغني عنهم ولا هم ممن يزهد في صداقتي ، على حين لا أستطيع مجاراتهم في الظهور بالمظهر الذى تتوق إليه نفسي ، ولا احب أن تكون لهم منّة عليّ بحال .

نعم سبق لي أن حاربت أشخاصاً من الأعيان ، كانوا آفات على الوطن يستثمرون الفقير والضعيف ويستخدمون نفوذهم في مضرة الراعي والرعية ، وما كان الاعيان كلهم على هذه الشاكلة ، وكان بعضهم على حالة حسنة ، جمعوا ثرواتهم من التجارة والزراعة ، أو انتقلت إليهم من أجدادهم ، أو من طريق الاقطاعات ، فعمروها وأحسنوا الانتفاع بها . وهؤلاء ليس لك عليهم سلطان ولا يستطيع أحد مؤاخذتهم ، ومثل اولئك الأشراف يظلمون إذا عوملوا معاملة اولئك الظلمة الأجلاف .

في الأمثال : إن الرّقين لتغطي أفن الأفين ، أي أن الدراهم لتغطي

ضعف ضعيف الرأي . ومن صدق عليهم المثل من لصوص الأعيان ، فأنا لا أصحبهم إذ لا خير منهم يرتجى ، وما تبتغي من فئة مقيمة أبداً على حوك الدسائس ، والاعتداء على من يهون عليها الاعتداء عليه . ومن هذه الفئة طائفة كنت أرى من المستحيل زحزحتهم عن أخلاقهم ، ولما وضح لي سوء حالهم بعد الاختبار قاطعتهم ، وكانوا يدهشون من ابتعادي عنهم . ولا يعرفون له سبباً ، ويعدونه من الشذوذ الذي ألفوا أن يشهدوه مني بزعمهم ، وأنا لم أرَ من واجبي بعد أن بلوتهم أن أنفعهم بفكر ، ولا أن أكون لهم سياجاً يختفون وراءه ، ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه .

الخير قليل في البشر ، والغالب عليه الشر ، والانسان كما قالوا مدني بالطبع ، أي لا يستغني عن مداخلة الخلق فلم يبق إذاً إلا المبالغة في انتقاء الشراء ، والزؤان على كثرته في صوبة الحبوب لا يحول دون الانتفاع بالحبات الصالحة منه .

قال أحد رجال الدولة العثمانية في دمشق وقد جرى في حضرته ذكر احد اعيانها : نزلت بلاداً كثيرة ، وخبرت حال ايالات ومقاطعات عدة ، فما وجدت اكثر استرسالاً في الغيبة والنميمة ، ولا أشد إغراقاً في السعاية والوشاية من بعض أعيان هذه البلدة ، أما الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا فهما من اقرب الناس إلى الخير ، ولا يخلو افرادهم من ادب وفضيلة .

والمراد بالأعيان كبار ارباب الاملاك وبعضهم يحرص ابداً على رضا الحكومة عنهم ، وإنك لتجد في هذا الصنف انواع السخف وضروب الشر ، وهم لم تعهد لهم سابقة في المكرمات ، إذا دعوا إلى الحسنى شكوا الفقر ، وإذا اريدوا على الصالحات صعروا خدودهم ، وما اثر لواحد منهم ان انشأ مدرسة ، او انفق على تعليم ولد فقير ، ولا على غير ذلك من الأعمال الصالحة . سألني بعض الاروام في مصر عما إذا كان عندنا (في مصر والشام) اناس ينزلون عن نصف ثروتهم لأمتهم ، فكان الجواب سلباً بالطبع

فقالوا : إن من رجالنا من نزلوا عن جميع ثروتهم لأمتهم ، فقلت إنكم اشد حمية واصح وطنية منا .

سأل شيخنا العلامة الجزائري احد كبار تجار بيروت عن اسم والي بلده ، فقال إنه لا يعرفه فقال له : عجيب هو عندكم منذ نحو سنتين ، وأنت لا تعرف اسمه فضلاً عن شخصه ، فقال : أوقاتي لا تتسع للبحث عنه ، وليس لي علاقة بالحكومة . فقال الشيخ : في بيروت التفريط وفي دمشق الافراط ، فان اعيان هذه المدينة لا يهنأ لهم بال إلا بالاحتكاك بواليهم وحاشيته ، صباح مساء ، حتى ليسأم لقاءهم ، ومنهم من يصدم عن بابه فيتحيلون الدخول عليه ، بكل ما لديهم من وسائط ، وأنتم معشر البيروتيين لا تتقربون من واليكم بل لا تذكرون اسمه .

وشيخنا هذا كان مرة في زيارة والي سورية ناظم باشا ، وقد ورد عليه الأعيان يحيونه ، فمنهم من كان يقبل يده ، ومنهم من يلثم ذيله وركبته ، وكلهم متهاوتون في حضرته ، متهالكون على الغلو في تمجيده ، فانقبض صدر الشيخ من هذا الصغار ، فلما انصرفوا التفت إلى الوالي وقال له : أيروقك أن تحكم اناساً هذه نفوسهم ؟ فسكت الوالي ، فعاد الشيخ وقال : أما أنا فلا أود بحال من الأحوال أن يكون من أحكمهم من هذا الطراز . اي ان استاذنا لا مأرب له أن يكون والياً على عبيد صغار النفوس . هذه الطبقة من الأعيان التي تفنى في صاحب الشأن ما دام صاحب حول وطول وتعرض عنه كل الاعراض في اليوم الذي ينزع منه الحكم وينقطع الأمل من عودته إلى ما كان عليه .

قصّ عليّ احد الشيوخ ان احد رجال الدولة نصب والياً على سورية فدعاه أحد الأعيان إلى النزول في داره ريثما تهيأ له دار خاصة . واغتنم ذاك الوجيه فرصة نزول الوالي في بيته ، وكانت مشاكله كثيرة فأخذ يحل

ما يمكن حله منها بواسطة نزيله المعظم ، ولما اعتزل الوالي بعد مدة منصبه ، دفع إليه ذاك المضيف الكريم قائمة ضمنها ما انفقـه على الوالي خلال نزوله ضيفاً عليه فاعتذر الوالي بأنه نسي أن يسدد هذا المبلغ في حينه ووعد أن يرسله إلى صاحبه من بيروت ، وبعد أيام وردت على ذاك الوجيه مبصقة من الرخام لتستعمل للتفوط وكتب الوالي السابق : هـذه مقابل ما انفقه المضيف على ضيفه . وعمل ذاك الوجيه ان صحّ من احط ما يدوّن .

وكثيراً ما كان استاذي الجزائري يقول إن هؤلاء الأعيان لا يعرفون الكرم والشح غالب عليهم وإذا اضطروا يوماً إلى ان يأدبو مأدبة لكبير يرجون خيراً لهم من ورائها ، فان منهم من يبقي عياله في مسغبة وتقتير شهراً كاملاً حتى يعوض ما انفقه ،

اختلاف اجتهاد

يظهر أن الادارة ابنة التجربة ، وربيبة المران ، رائدها العقل ، وموحيها البديهة ، وملهمتها البيئة . وربما كانت المسألة الواحدة تنحل في وقت حلاً يخالف ما حلت به في آخر . والحلول تبع للمكان والزمان . والادارة علم صعب قد يتفوق فيه من ليس على علم كبير ، وربما أخفق في معاناته صاحب المعارف الجمة ، ومن كان يظن فيه الكفاءة للتبريز على غيره .

لما توليت وزارة المعارف كان من أكبر همي أن أسرح من الخدمة العاجزين الجاهلين من المعلمات والمعلمين . وأن استعيض عنهم بمن يتخرج في دور المعلمين ، أو من أحرزوا الشهادة الثانوية ، وكان من أشد ما حرصت عليه نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى ، ولما أيقنت ان الريف يكاد يكون محروماً نعمة المعارف ، وأهله يدفعون الضرائب أكثر من غيرهم أزمعت أن أوثر القرى بالمدارس الجديدة ما أمكن . وآلمني ما رأيت من ان ليس في كل مئة قرية زيادة على ثلاث او أربع مدارس ضعيفة ، فأنشأت ما استطعت من كتاتيب في بعض أمهات القرى علماً مني بأن أهل المدن يتوصلون إلى تعليم اولادهم بما لا تصل اليه ايدي سكان القرى ، وأنه لا يتعذر على اهل الحواضر بلوغ غايتهم من تعليم ابنائهم ، بما قام فيها من المدارس على اختلاف درجاتها ونزعاتها وان ابن القرية إذا لم تعلمه الحكومة يستحيل عليه ان يتعلم ، والبناء يقوم على أساسه ، واساس النهضة نشر التعليم الصالح في جمهور الأمة .

وعلى هذا خصصت القرى بأكبر قسط مما انشأت من المدارس الابتدائية ، واقللت من فتح مدارس جديدة في المدن ، وكنت احاول أن أجعل المعلم المتمكن من صناعته في القرى ، لأن في مقدوره أن يعمل بنفسه مستقلاً ،

وجعلت الضعيف من المعلمين والمعلمات في الحواضر لتتيسر مراقبتهم وتعليمهم ما تتطلبه منهم مهنتهم . وقد نجحت هذه التجربة . وحاول مرة بعض معلمي الحواضر ان يعصوا أمر المعارف في هذا التدبير ، فكتبت اعلاناً علقته على باب مدير التعليم قلت فيه ان كل من لايحضر مدرسته في يوم كذا ويأت من الحاكم الاداري في عمله بشهادة تثبت استلامه التدريس بعد مستقبلاً . فلم يبق انسان لم يطع الأمر ، وكانوا نحو مائتين فيما اذكر وقلت اني املأ الشواغر بمعلمين أجلبهم من مصر ويحملون الشهادات المطلوبة ويرضون بالرواتب المقررة .

وحاولت ان أشرّف صناعة التعليم وأعرّف القوم ان المعلم مرشد وممدن ، يجب احترامه واكرامه ، وان اهيء الاسباب لترغيب الشبان في هذه الصناعة ، وكان الاقبال عليها قليلاً ، لان الحكومة ما قدرت لضعف مواردها أن تجعل رواتب المعلمين على مستوى رواتب غيرهم من الموظفين في الدولة ، ولم تر من الحكمة ترك رجال الادارة أحراراً وقد يكون من توسيع سلطانهم ضرر على الرعية ، وأقل ما فيه أن تعود السخرة وأخذ الاعانات من الفقراء ، وكانت الطبقات النازلة تُرْهَق بهذه المغارم في الدور الماضي .

ولما انتهت مهمتي في الوزارة الثانية لامني خلفي على عنايتي مدة وزارتي بأهل القرى أكثر من أهل المدن في توزيع التعليم ، فأرسلت أعتذر اليه وأقول له إن هذا اجتهادي ولعلي كنت مخطئاً وارجو ألا يغلط هو كما غلطت انا ، واظنه ما اهتم خلال وزارته لفتح مدارس ابتدائية لا في المدن ولا في القرى ومن العمال من لا يقيم وزناً للفلاحين وربما عدهم من المخلوقات المحتقرة غير خليقين بأن يتسرب الى عقولهم قليل من النور والمعرفة . ومن العمال من لا يهمهم الا ارضاء حزبهم الذي اتى بهم اما القيام بواجب المنصب فأمر لا شأن له في نظرهم .

كان قسم عظيم من المعلمين والمعلمات قبل تخريجهم في دور المعلمين عبارة عن جهلة وجاهلات واكثرهم لا يعرف شيئاً من علم التربية الحديثة ،

ويعلم على طريقة الكتاتيب التي كانت شائعة في القرن الماضي ولذلك اخرجَ من الخدمة سلفي في وزارتي الأولى كلَّ من لم يره صالحاً للتعليم . وجاءني ذات يوم احد من اخرجهم يشكو ظلامته ، ويقول إنه طرد من عمله بغير حق ، فقلت لمن كان معي : إني لن اعيد معلماً اخرجه الوزير السابق ، لأن الملحوظ فيه انه يعرف ما ينفع ، ومن تلطف وكنس لي الدار فأتى بالقمامة خارجها ، فهل بذلك عملي بعض الشيء حريٌّ بالشكر ، وليس من العقل ان اعيد الكناسة الى محلها السابق ، تؤذي السكان ، وتلوث المكان .

أما خلفي في الوزارة السيد نصوحي البخاري فقد أعاد الى سلك التعليم كلَّ من كنت نحيتهم عنه . أراد من ذلك اتباع سياسة الارضاء ، وتجاهل أن الجاهل لايخرج من بين يديه إلا جاهل . وكان صاحبي مولعاً بالاقتصاد من موازنة المعارف على ضآلتها ، فلا ينفق ما كان عليه أن ينفقه في سنته حتى يستحق وبعض من كانوا معه مكافأة عن الأموال المقتصدة ! وهذا اجتهاد لا أرضاه ، لأن المنطق يأباه . اما اجتهادي فكان أن أنفق كل ما خصص لي في السنة نفسها ، لعلمي أن لوازم المعارف كثيرة جداً ، ولو كان مايظن أنه وفرّ عشرات الألوف ما صعب على الوزير انفاقه انفاقاً مثمراً ، في دولة حديثة العهد بانشاء المدارس وينقصها كل شيء . ومن يحاول ارضاء جميع الناس يغضب المصلحة العامة ، ومن يمزج الادارة بالسياسة كمن يمزج السكر بالجبس ، او الكافور بالدبس .

أتت السياسة الى بعض الوزارات بأناس ما تصوروا حياتهم ما هي المعارف أو القضاء او الاشغال العامة او المالية ، وأتت بأناس كانت لهم دراسات خاصة نالوا عليها شهادات تسهل لهم طريق الاستخدام في عمل معين ثم تركوا الدرس إلا ما كان منه داخلاً في نطاق عملهم . وكان من هؤلاء من حسنت سيرتهم ، وحسن السيرة لا يكفي إن لم تكن للوزير قريحة مؤاتية ، وعقل مولد ، ومشاركة قوية في تشعبات دواوينه

ومن اجتهادي في الادارة أن أسارع الى انفاذ ما أريد بعد أن أنظر في الجملة فيما تتجه اليه همتي ابادر لما أحاول تحقيقه وان اعتقدت أنه بقي هناك من أستشيره ، أو أرجع اليه من أضابير ودساتير وذلك لاعتقادي بأن انهاء الأمر بسرعة على ما قد يعرض له من نقص أسلم في العاقبة من التراخي والمطاولة ، وتقدير ما يحدث وما لا يحدث . وقد يكون النفع بالتأني أقل من الضرر الذي يحدث بالاسراع . والاسراع لا يحمد ابداً وكذلك الابطاء ، والحالة هي الحاكمة على الانسان ، ولكل وقت حكمه واجتهاده . ولعلي صادفت بعض الفشل فيما عالجته بالعجلة من أعمال ، ولكن ما أصبته فيها من التوفيق كان أكثر . ربحت بالاقدام ما لم أربح مثله في الاحجام وفي التطويل اضاعة الفرص ، ومن يحسب حساب كل شيء قد لا ينجز أمراً .

آخذني مرة الشيخ طاهر الجزائري على اخبار تنشر في جريدة المقتبس توهم انها مفتعلة على خصومي السياسيين ، فاقسمت له اني ما اختلقت خبراً مازحاً ولا جاداً قط ، وعرضت عليه أن جريدتي اذا اقتصرت فقط على نشر ماثبت من الأنباء تسبقها الصحف الاخرى بالحوادث ، على حين ان معوّل الصحف على الاسراع في نشر ما يترامى اليها ، على شرط ايراد المصدر . فان بدأ محرر الجريدة الخبر بقوله (جاءنا من مصدر ثقة) كانت روايته أدنى الى الحقيقة من قوله (شاع) او (يقولون في بعض الأندية) او (ننشر هذا بتحفظ) او ما شاكل ذلك من الصيغ . وقد شاهدنا صاحب صحيح البخاري على تحريه الشديد ، واقتصاره على اصح الأحاديث قد وقعت له اشياء لم تصح عن الشارع صلوات الله عليه . هذا وقد صنفه جامعه في هدوء وتؤدة ، وبالغ بالتدقيق فيما روى وروى له دهراً ، فما بالك بالصحف الطيارة في عصرنا هذا ، عصر السرعة والتبدل والمفاجآت . فعذرني ناقدي العظيم على اجتهادي في اذاعة الأخبار على هذا الوجه ، ولعل المتعنتين لا يرضيهم مني ذلك .

كنت اجتهد في شؤوني الخاصة والعامة ، وما ندمت على اجتهاد وقع

مني . كنت اذا بعت بعض حاصلات مزرعتي أو بعض مطبوعاتي بثمن قد يرى فيه المدقق بعض الغبن عليَّ اغتبط لأني أوظف المال الذي آخذه حالاً في شيء مثمر ، او اسد به حاجة تقضي المصلحة بالتعجيل في قضائها . ووقع لي ان بعت شيئاً ثم سقطت اسعاره بعد ايام وعلى العكس ، فكانت الحكمة فيما فعلت ، والشاري يدخل على الربح والخسارة . وحدث لي ان ربح المبتاع كثيراً وان لضاعف المال الذي اخذته وصرفته بعد ايام قليلة . ولو كنت تشددت في النزول عما ملكت لخسرت لا محالة . والأرباح الكثيرة فرص والارباح المعتدلة من الامور العادية .

من خلقي ألا ادخل في مجهول ولا فيما ينافي العقل والشرع ، لذلك لم اجوز لنفسي يوماً ابتياع ورقة يانصيب ، ولا ان اتجر بالورق النقدي ، ولا بالأسهم والسندات ، وما اشتركت ولا كفلت احداً كفالة مالية ولا وضعت توقيعي على سند ليس لي به علاقة ، ولا خزنت غير حاصلاتي توقعاً لارتفاع السعر . وقد لا ينجح من هذا خلقه في التجارة ، والمضمون قليل واقل من القليل . وهذا اجتهاد ايضاً ولا يلام المرء على اجتهاده . وانا بعد أن ثبت لي أن الخاسرين اكثر من الرابحين في هذه التجارات يعز عليَّ ان ادخل في هذه الصفقات ، وكم من فرصة اضعتها وكان يمكن الانتفاع منها والتربح بها ، فأحجمت وجبنت ، ثم رأيت الخير فيما فعلت ، ذلك لأني ابداً كنت احاذر المغامرات .

اضعت سنين طويلة من ريع زراعتي فشاركت واجرت فربح الشركاء والمستأجرون كثيراً ، وكانت حصتي ضئيلة بالقياس الى رأس المال ، اي ثمن الأرض ، فما اسفت لما وقع لأني استفدت ايضاً من توفير وقتي ، وقد ضمن لي ربح ثابت على كل حال ، وهذا احسن من مال يتعبني ويشغل فكري وصعب على المرء ان يعمل اعمالاً عقلية ويكد ليملأ جيبه وصندوقه . وهذا اجتهاد مني عاد عليَّ بضرر مادي وربحت منه في معنوياتي ارباحاً لا تقدر بثمن في نظري . وعوض عليَّ من جهة اخرى رواتب قبضتها زادت على ما جناه الشركاء والمستأجرون من ارضي .

كنت اسير على ما يوحيه إليّ عقلي عندما يقترح علي الانضمام الى اناس لا اعرف سيرتهم للمشاركة في مسائل ظاهرها نافع ووطني . وذلك لأني بلوت الاحزاب وعرفت اغراضها ، وأدركت مرامي الجميات . ومن فضل الله اني كنت اقل رفاقي تهوساً في الحزبية ، وتهوراً في الاقدام عليها واجتهادي هذا وفر علي اوقاتي ومالي . وهذا لأني كنت في هذه المسائل افكر طويلا ، واقول ليس من العقل ان يطلب مني مشايعة كل انسان ، واتباع كل رأي يفرض ويعرض . والمشاكل كثيرة ، واماني الامة لا تحد ولا بد ان ينصرف كل فرد الى تحقيق ما اخذ من نفسه واعتقد قلباً وقالباً فائدته . ومن حسن طالعي اني ما حرصت كثيراً على مسايرة بعضهم على كثرة ما اسمعونيه من المغريات لحملي على الالتحاق بجماعة اجهل اغراضهم ، وليس بيني وبينهم تجانس في الفكر والتربية ، ومتابعة آراء لم ابد فيها ولم أعد . وكيف لعمر الحق اقلد في شيء فيه اضاعة وقتي ومالي وربما حياتي ، وقد ثبت لي انه ما أفلح في هذه الارض حزب ولا جمعية اللهم إلا إذا كان من بعض الشياطين ان اتخذوا من حزب مطية لأغراضهم الخاصة ، يصلون على متنها الى المراتب والمكاسب . والمغفلون من يخدمون معهم في هذه المناحي على العمياء وبدون اعمال الروية ، يرفسهم الكبار بأرجلهم من غير حياء ، في اليوم الذي تتحقق فيه مآربهم . وكل جمعية أراد اصحابها الظهور سقطت وتشتت ، وكل جمعية قصد بها الخير نمت وثبتت . ومن هذه الجميات ما أتى عليه ربع قرن ، وهو الى اليوم يقوم بالغرض الذي انشيء له ، ومنها ما لم يعش أكثر من ايام قليلة . اما الاحزاب السياسية فكانت اشبه بالمهازل ، في معظم الادوار ، لان السياسي على الاكثر يستحل كل ما يوصله الى الغرض الذي ينشده . فيعبث ما شاء له العبث ، ورأيت الجمعيات كلما قلّ عدد افرادها تكون الى النجاح ، وإذا كثر المتشاكلون فيها تدوم وتنجح .

كنت في أغلب الاحوال أتابع اجتهادي واتحمل وحدي تبعته . وما ندمت

على ما اتيت قط إذا سبق لي اشتراك في الفكرة ، وكنت أرى ابداً تحديد المطامع ، وارضى بما يحصل ولو بعد جهد . فقد خاف زملائي لقلقة المتعصبين من المشايخ يوم بدأت بانشاء المجمع العلمي العربي ، إذا نحن وضعنا اليد على بعض التماثيل وعرضناها في المدرسة العادلية الكبرى ، فأصررت على جمعها وعرضها وقلت لرصفائي إن صريخ هؤلاء النُّفَيْر لا يصل الى اكثر من سقوف بيوتهم وما ضرني ان احمل وحدي التبعة وامضي في تأسيس دار الآثار في سبيلي لا ألوي على شيء . ولما لم اطع سلطان الوساوس والهواجس كتب لي التوفيق، ولو اطعت من أرادوني على التسويف وخوفوني العواقب ، لفشل المشروع لا محالة ، ولأعد المشاغبون عدتهم لمشاكستي ، وربما كانوا بلغوا مني مأربهم، فباجتهادي الخاص انتفعت المصلحة العامة . وما اخفقت في امر إلا اذا كان يتوقف اتمامه على احد او على سلطة . ولو كانت آمالي في المجمع العلمي مثلاً تجد لها من يعاضدها من حكومة او صاحب مال عظيم ، لآتت من أكلها في عشرين سنة بما يفوق ما تصورته ، ولكن استعداد الحكومات كان قليلاً لقبول هذه الامور . وما كنت اهتم انا لتحقيقه كان اصحاب الشأن يضحكون منه في سرهم .

درجت على تنشيط الناشئة على الكتابة والخطابة والتأليف والنشر . خلق تأصل فيَّ وعرفه قومي مني ، اقصد به تخريج شبان صالحين في الجملة. وكان بعض رصفائي في المجمع يخالفونني في اجتهادي هذا ، وانا أرى أني اقوم بواجب عليَّ لأن اساتذتنا أخذوا بأيدينا حتى تعلمنا فلهم في اعناقنا منة لا نوفيها لهم إن لم ندفعها الى من بعدنا انعطي الذي اخذناه . وكان أحدهم يقول يجب ألا يفتح الباب إلا لمن جَزُل حظهم من الآداب ، وأن على الشبان ان يتريثوا في الظهور فلا يتطالون اليه إلا متى ذهب الشيوخ من الوجود . ومعنى ذلك الانتظار ألا يتخرج بنا احد فتذهب تجاربنا معنا ، اما هم فلينتظروا حتى يفنى هذا الجيل ، ثم يستلمون الزمام بعدنا بدون أن تكون صلة بين السلف والخلف . وبهذا الاجتهاد تضيع فيما احسب الفائدة المرجوة

من التاقي ، وتبطل اعتبارات كثيرة نافعة ، جرى عليها العرف والعادة في كل عصر .

وهناك زميل آخر لا يروقه ان يفتح باب المجمع للمحاضرة فيه ، أو المؤازرة في المجلة إلا لصفوة الصفوة ممن كان استعدادهم من المسلم به ، اي ان يقتصر على طبقة راقية جـــداً ، وإلا فقد المجمع روعته . واضاع مكانته ، ذلك لان زميلي هذا كان يزعم ان الخاصة الكفاة يستنكفون عن القاء محاضراتهم ونشر مقالاتهم ، إذا فتح الباب لـكل احد ، بيد ان المحاضرين والكاتبين ليسوا كلهم على غرار واحد ، وكذلك العقول لا تكون من طراز واحد . ومعنى الاقتصار على النوابغ المحاضرين والمؤازرين ألا نسعى الى تعليم احد ، ومن ينقصه شيء لا سبيل له الى اتمامه ، والواجب طرحه . ولو جرينا على هذه القاعدة لبقيت الآداب وقفاً على بضعة افراد . ولا نعلم إذا كانت هذه الاثرة تفيد أم ان الفائدة بكثرة العارفين ، وكل امريء يفيد بحسب سليقته وذكائه . نعم إن الاتقان شرط اعظم في كل صناعة ، وإذا كان من المتعذر الحصول عليه فهل يجوز لنا ان نرذل الوسط ، ولا يكمل النقص ؟ وربما كانت هذه القاعدة مما يمكن تطبيقه في جمهورية افلاطون او المدينة الفاضلة للفارابي ، اما في مجتمع كمجتمعنا ، وفي جمهورية كجمهوريتنا ، فمتعذر كل التعذر ، ومن ينشد الكمال المطلق يوشك ألا يسقط على كامل ، ومن يتخيل انه لا يعمل إلا إذا توفرت له جميع الاسباب بحسب رأيه ، محكوم عليه بالعقم ، وعدّه ولا تخف من طلاب المحال .

سجلت هذا هنا لانه من تجاربي الخاصة رجاء أن يستفيد منه من يكثرون الاعتراض على كل ما يسمعون وما لا يفهمون ، ويحاولون لادنى نظر ان يهدموا مابني ولا يحسنون وضع لبنة في بناء جديد .

ذكرتني الطعن وكنت ناسياً

لما أجبت طلب راديو الشرق الى القاء مسامرات في اذاعته أتحفني مديرها بنسخة من مقالة كنت كتبتها في جريدة المقتبس (عدد ١٧٨٧) خلال الحرب العامة ، وقال إنها وشاية من رجل مجهول ، وخلاصة المقالة أن صاحب اقدام كتب من سويسرا مقالتين قال في الأولى إن أحد أساتذة السوربون في باريز قال في خطاب له : إن علماء فرنسا لا يعدون علماء الا بالشفاعة والسياسة ، وأن فرنسا في المؤتمرات تبعث لتمثيلها باناس من الجنس الذي ارتقى بالرجاء والشفاعات ، في حين تبعث المانيا أمثال العالم فيرخو لينوب عنها ، وهو المعروف بعلمه وشهرته ، وأن المانيا تنتخب أمثل رجالها لمنابر التدريس ، ولذلك يهرع اليها الطلبة الأجانب من كل جانب ، ويرجحونها على فرنسا . واستنتج من ذلك أن فرنسا ليست بلاد درس ، ونصح للمولعين بتحصيل العلوم والفنون أن يذهبوا الى المانيا ويحذقوا الألمانية . وقال في المقالة الثانية ، وقد استبشر بأن الدولة عزمت على جلب بعض الاخصائيين من أساتذة الألمان الى دار الفنون في الاستانة ، ان الأمر لا يتم بجلب بضعة معلمين ، بل إن المملكة تحتاج من هذا الى سرية ، لتعلمنا أفكار المانيا الاقتصادية ، وعلوم المانيا ونظامها وأوضاعها ، قال ونحن نريد من أولاد المسلمين أن نخرج رجالاً ونطلب لهم خبزاً في كل صقع ، ولذلك وجب علينا أن نخرج الشبان على الأصول الألمانية في العلوم والمعارف وهــذه تجزئنا .

هـذا ما قاله رصبفي التركي وقد قلت في التعليق عليه يومئذ : ومثل هذا القول أحق أن يخاطب به أهل سورية الذين حاولت فرنسا منذ عشرات السنين أن تلقنهم في مدارسها المسمومة بسموم النفاق والمكر أن

مدنية فرنسا أرقى المدنيات ، مع أن الوقائع منذ نحو مئة سنة أثبتت أن الأولية لغيرها لا محالة ، وأن الفرنسيين أمة انحطت في أخلاقها ومناحيها ، ومن مثل هذه البضاعة الكاسدة تنفق على الشرق الاسلامي ، موهمة سكانه أنها ما برحت في طليعة الدول في كل شيء مع أن أقل الناس تفكراً يعرفون مبلغها بين الامم والدول ، وقد علمتها ألمانيا بالعمل كيف فرطت وأفرطت في الماضي فأصبحت اضحوكة الامم ، وأن فرنسا احتقرت الأديان ، واعتقدت أنها الكل في الكل ، فأبت المولى عجزها ، وأن العبث الذي عبثته بعقول ضعاف العقول وضعاف القوة من امم الشرق ، قد حوسبت عليه حساباً غير يسير ، وستحاسب على أكثر . وما ننسَ لا ننسَ ضربها بعصا من حديد على دين الاسلام ولسان العرب في تونس والجزائر ومراكش وكل بلد اسلامي استعمره أدنياء أبنائها .

ومثل هذه الدولة المنحطة في سلم الاجتماع التي اشتهرت بلادها بالفسق والفجور والخفة واللهو في أقطار الأرض ، ومع هؤلاء الأدعياء في العلم الذين أشار اليهم رصيفنا صاحب اقدام ممن يتولون التعليم والتربية في فرنسا دع مدارس الشرق التعس ، لا يسوغ لنا بعد الآن أن نفكر في أن نعلم أولادنا في بلادها ، بل نبعدهم عن مباديها كما نبعد السليم عن الأجرب .

كانت فرنسا تخدع السذج بحسن حالها ، ولكن الحرب الحاضرة (١٩١٤ — ٩١٨) كشفت عن عورتها في العلم والصناعة والسياسة والأخلاق إن فرنسا تفننت في اختراع أزياء النساء في عهدها الأخير ، ولكن ألمانيا اخترعت مدفع ٤٢ .

أعدت ألمانيا عقولاً ، وعلمت فرنسا فضولاً ، فكان من ذلك النتيجة التي رآها كل منصف في العالم . ان دولة اشتهرت بأنها آذت الشرق في استقلاله وأخلاقه ودينه ولسانه هي دولة لا يجوز لأدنى الامم أن يجعلها قدوته ومعلمته ، فطريقنا بعد الآن الى ألمانيا ، فمن كلياتها نتغذى ، وبأدب أهلها نتعلم ، وعنها نأخذ . اه

هذا ما قلته منذ نحو ربع قرن ، وكنت أود لو طوى المقالة من أحب أن يذكرني بها اليوم ، لأن تعليقي يومئذ على ما فيه من الغلو ، وتأثر بسياسة تلك الأيام ، لا يخلو من حقائق جارحة ، تجلت بعد هزيمة فرنسا الأخيرة عام ١٩٤٠ وقد قال مثل قولي كبار رجالها ، وضربوا امتهم في المحافل الرسمية بعيوبها في وجهها ، على أن تفوق التربية الألمانية والعلوم الألمانية من المسائل المفروغ منها ، ورجال التربية في فرنسا بحّت أصواتهم وهم ينادون بالعدول عن طرائق قديمة عقيمة في التعليم والتربية ، والاخذ بمذاهب الألمان بالعلم ، وفي خزانتي بضعة كتب في هذه الأبحاث ، ومن أهمها ما كتبه غستاف لبون وأدمون ديمولان الفرنسويان أصلاً وتربية ، وما أظن فرنسا اليوم بعد أن رأت العبر تلو العبر إلا آخذة بالطارق الحديثة والنجاة من الأساليب البالية ، أما قولنا في مدارس سورية التبشيرية الاستعمارية فما زلنا فيه على رأينا الأول وإن آلم بعض العمي في حب قوميتهم Les chauvins لأنا نعتقد أنها تخرج اناساً ، لا لخدمة بلادهم بل لخدمة غيرها ، وإنا نعذر أصحابها على خططهم ، فهم يصرفون أموال دولهم لتحقيق مقاصدهم ، ولو كنا أقوياء لرددناهم على أعقابهم عن أرضنا ، ولحلنا بينهم وبين تأسيس هذه المدارس المضرة بوطننا وقوميتنا . أما الاستعمار الفرنسي فانا ما حبذناه قط ، ويوافقنا على رأينا عشرات من المؤلفين الفرنسيين ممن لا يتهمون بحزبية ، ولا يرمون بتعصبات سياسية وجنسية ، ونسأل اولئك الذين لا يرضيهم قولنا هذا بأعز ما لديهم هل يرون الجزائر بعد امتلاك فرنسا لها (١١٥) سنة قد تمتعت برخاء يشبه ، ولو من بعض الوجوه ، ما تمتعت به مصر ؟ وهل أخرجت الجزائر رجالاً يوازون بأقدارهم العلمية والعملية نصف ما نبغ من المصريين في عهد الاحتلال الانكليزي في وادي النيل ؟ (راجع ما كتبناه في غارات المستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم ص ٣١٧ ج ١ من كتابنا الاسلام

والحضارة العربية) أما أن فرنسا معلمة العالم فهذا ما لا ينكره عليها حق أعداؤها ، فان لها في التاريخ من ذلك حسنات يرفع أبناؤها رؤوسهم بها . وشهد الله أنا كنا متألمين لما حل بالأمة الفرنسية من المصائب الاخيرة ، وما كان الشعب مسؤولاً عن كل ما ناله من هزيمة وتفسخ ، فالشعب الفرنذي فطر على ذكاء ومضاء وفضائل وحب خير ، والعقلاء منهم نحبهم ونسترشد بعلم رجالهم وأدب كتابهم (انظر ما كتبناه في غرائب الغرب ص ٣٠٨ ج ١ تحت عنوان نحن في البلاد الفرنسوية) .

والافكار على كل حال عرضة للتبدل ، خصوصاً بطول العهد وكثرة التجارب ، والعقل هو الحاكم والحكم ، لا العواطف والاحاسيس .

حل الماسونية

يوم انهزمت فرنسا أمام الجيوش الألمانية في حزيران ١٩٤٠ واحتل الألمان باريز يوم ١٣ منه انحلت الجمهورية الثالثة ، واستلم زمام الحكم الماريشال بيتان رئيساً الدولة بقرار مجلسي الشيوخ والنواب ، فحلّ جميع الأوضاع الديمقراطية والأحزاب السياسية والجمعيات السرية ، ومنها المحافل الماسونية ، وقد قرأت في جريدة « كانديد » الصادرة يوم ١٧ تشرين الاول ١٩٤٠ أنه افتتح في باريز معرض ماسوني ، عرضت فيه تركة « محفل الشرق الأعظم » « والمحفل الأعظم » الماسونيين في باريز ومنها مسارج وسيوف من القصدير ، ومطارق وصناديق نيطت بها كرات سوداء ، ومآزر عملت من جلد الخنزير ، ومسجات البنائين و « بطارش » مطرزة رسم وسطها مثلث يلمع فيه نجم « صهيون » وما إلى ذلك من متاع كان يستخدمه أبناء الأرملة عند إدخال شخص جديد ، ومنها مفروشات الغرفة السوداء التي يجمل فيها المنضم إليهم حديثاً معصوب العينين مع جمجمة إنسان ، وردهة الزعماء التي يقررون فيها السلم والحرب ، وان النية حمل هذه التركة الغريبة في القطار والسير بها إلى جميع أرجاء فرنسا حتى يراها سكان أقصى الأرياف ، ويتجلى بها ما في الماسونية من امور .

وبحل المحافل الماسونية في فرنسا انحلت جميع محافل الشام ، وذهاب الأصل يوجب زوال الفرع ، وتقاسم الزعماء تركتها ومنها تلك الأشياء التي كانوا يستعملونها . والماسونية حكومة في حكومة ، من شأنها إسقاط الأديان ، والتدخل بسياسة الأوطان ، ولذلك ألغتها ألمانيا وإيطاليا ، وحذت حذوهما تركيا وبلغاريا ورومانيا والمجر ، فان كان في الماسونية بعض ما يستحب من التعاليم ففيها امور مضرة ، وكان إدخال الداخلين في محافلها

سفياً ورعياً من أضر ما فيها ، ولا عـبرة بجودة القوانين والعبرة بالأيدي التي تنفذهـا .

منذ نحو خمس وأربعين سنة ، وأنا يعرض عليّ الدخول في الماسونية في مصر والشام ، وتذكر لي المرغبات فيها ، والغنائم المتوقعـة لي منها ، فكنت أقول إن هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الـكاثوليك ، فما شأن المسلمين في الدخول فيها ؟ وأنا من طبعي ألا أدخل في مجهول ، ولا أسير على غير هدى . ورأيت اناساً انضموا إليها مخلصين فـكانت سبب زوال نعمتهم ، وكانوا بعد خدمتها سنين من النادمين ، وما أفادوا إلا إنقاذ لصوص الموظفين وغـيرهم من سلطة القوانين ، وأكثر من رأيت ممن شايعوها كانوا من أصحاب السيرة السيئة من طبقة المأمورين

كل هذا كان يجول في الخاطر ، ويصرح به اللسان ، ويكتبه القلم ، وما كنت أظن ولا أكثر الماسون هنا يظنون ، أن جمعيتهم أيضاً (أاموبة صهيونية) ، صرفة لا يهودية فقط ، يـسعى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون ومعنى مجـد صهيون نزع فلسطين العربية من أيدي العرب ، وهي ملكهم منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن .

دعابات

دارت بيني وبين الاستاذ فارس الخوري (رئيس مجلس نواب سورية) مراسلات دامت بضع سنين ، قامت على جدّ وعلى هزل . ونفي في بعض السنين الى أميون من قرى لبنان مع بعض إخوانه ، فكتب اليّ يدعوني الى زيارته فأجبته بكتاب مطوّل (٦ أيلول ١٩٣٦) قلت فيه : (كما ذكرت أميون تذكرت مجالسنا مع صديقنا نجيب الأميوني — وليس اسم نجيب من اسماء الاضداد كأنيس وسليم وصادق ، قد ينقلب الى ثقيل ولديغ وكاذب — وما كان يقع لنا معه من النكات وكيف كان يسلّينا بأدبه ، ويفيض علينا من واسع علمه ، ما اغتبطنا ولا نزال نغتبط به ، ومع هذا لم نفتأ نبرمه بأسئلتنا ، والنجيب يجيب .

(كنت مرة في حلب مدعواً في دار احد اصدقائي من أتباع السيد المسيح وكان البهو غاصاً بالاوانس والعقائل ، ورجال الظرف والمكارم ، فأخذ النجيب يحدثنا احاديثه ، فلا والله ما شكونا مللاً ، ونحن نتعاطى كؤوس ادبه نهلاً وعللا ، ولكن النفس الأمارة بالسوء حدثتني أن اقاطعه ، لأني لحظت من لواحظ سيداتي هناك انهن يحببن ان يستمعن نبرات جرس جديد ، والنفس مولعة بالاطلاع على الطريف ، ولو كان كثيفاً غير ظريف . فاستأذنت الحضور راوياً اولاً ما وقع لاحد شعراء دمشق ، وقد زار في استانبول السيد ابا الهدى الصيادي الخاني أو الشيخوني ، وهو في آخر درجات السلم من مجده ، فأخذ شاعرنا ، وكان طلق اللسان ، ذكيّ الجنان ، يحدث الشيخ الصيادي بالقديم والحديث ساعتين استطالهما الشيخ ، وما كان يزيد على غير كلمات الاستحسان المعروفة . وهز الرأس والمنكبين ، واحياناً الصدر وماتحته الى العجز ، فلما اعياه الحال ، التفت الشيخ الشيخوني

الى محدثه الدمشقي وقال له : يافلان اذكر فقط ان امامك مكثار مثلك يحب ان يتحدث اليك في نوبته ، فتوح بلا سدود إقطع لأصل أنا .
فضحكنا واستلم الشيخ زمام الكلام .

(قلت هذا وقد فتح الفتاح علي باب القول ، وحل عقدةً من لساني ففقه القوم قولي ، وشعرت في تلك الساعة ، والأنظار تحدجني ، بأن طبعي قد لان ، ولم يستعص على طبيعتي ما حاولته من التحدث الى ذلك الرعيل الجميل ، فقلت : انني قرأت في كتاب لأحد علماء الجغرافيا من العرب اسمه المقدسي ان كل بلدة كان في حروفها حرف صاد يغلب الحمق على اهلها ، اما إذا كان فيها صادان كالمصيصة وصرصر فنعوذ بالله واستثنى من هذه القاعدة البصرة ، وانا استثنيت (حاصبيا) مطلعَ شمس الأميوني النجيب ، وقلت لهم إن الرقة تغلب على طباع أهلها ، واوردت ما حضرني من البراهين لمناقضة ما قالوه قديماً من انه إذا رقَّ الهواء غلُظَ الطبع ، ومثلت لهم بالسيد الأميوني غير خائف ولا وَجِل . ومما قلت : ها هو اخي وقرَّة عيني ، هذا ياسيداتي وسادتي ، أميونيٌّ حاصبيا ، اللبناني الغربي واللبناني الشرقي ، حائز مجموعة اللطف ، وجودة العقل ، وجميل النادرة ، وانتم تعرفون مثلي عدْله في الاحكام ، ومقامه بين الخاص والعام ، وغناءه في شرائع الافرنج والاسلام ، وشهد الله انه أكذب القائلين بالطباع الجلية ، ونقض بشخصه رواية ذاك الجغرافي الذي نسب الحماقة الى اهل كل بلد ضم اسمه حرف صاد .

(والحمد لله على ان جاد لي بالحياة ، وحقق ظني في نبوغ النجيب فرأيته وزيراً لمعارف دولة لبنان الكبير ولولا انه من نجباء الابناء ، ومن حاملي الشهادات من المدارس العليا ، ولولا أن حكمه وعقله صحيحان غير مريضين ، ما تربع في ذاك الدست ، ولا تصدَّر في دولة عجنت طينتها وخبزت بمادة العلم والادب ، ولو لم تكن أميون من قبل أورثت ما أورثت جده وأباه ، وحاصبيا من بعد هيأت مداركه وجملت قواه ، من ابن كان له ان يطمع في هذه المقاعد الشريفة ، والمقامات التي تتحلَّب لها شفاه الطالبين الملحفين

الملحين ؟ بعد ان عُلِمَ عِلمُ اليقين ان الكراسي في دُوَيْلاتنا الشامية لاتعطي على الاطلاق إلا بالاستحقاق .

(ربما يتبادر الى ذهنك عند تلاوة هذا أن الكلام يصدق عليك ، بدعوى أن ما قارب الشيء يعطي حكمه ، فادفع عنك الظنون ، وبعض الظن إثم . ولئن كانت « الكفير » جارة « حاصبيا » حاضرتها ، وأنت وإن وليت وزارة المعارف ، فقد كان الفخر العظيم لحاصبيا أن أخرجت للامة وزيرين ، وللمعارف أيضاً ، أحدهما في وزارة الساحل ، والثاني في وزارة الداخل . وما ذاك إلا من تأثير تلك التربة الطيبة وخصوصية لها ، وللبقاع تأثير في الطباع . ولذلك وضمناك بذكائك في غرار الذكاء الأميوني ، لو لم تخدش ملكة ذاك الاقليم التي أورثك إياها الجدّ الأعظم بسكنى « جلق » أكثر حياتك ، وأنت تنشد مع ابن منير الطرابلسي .

وسكنت جلق واقتديت بهم وإن كانوا بقر

(ابشرك بشرى يثلج لها صدرك وتقر عينك ، وتطيب لها حواسك الخمس ، وهو أن رصيفنا الأنيس نال رخصة لا حد لها بفضل وزيرنا ، خشي على صحته « أثابه الله » وقال : انه وان زاد منذ ثلاث سنين أكثر من ثلاثين كيلو بدمه ولحمه وشحمه ، فهو يحب له هذه الزيادة ، وأنا على ما تعلم أحببت له هذه الفسحة المستديمة حرصاً كل صحته أن تغال ، وحتى لا أزرك لمشاقه من أمثالك ما يقال . هذا وإن كان بعده عن المجمع يورث أعماله فتوراً ، وتفقد رأيه السديد الذي طالما أشار اليه ، وزعم انا أبداً في حاجة الى الاسترشاد به ، وكان ادعى أنه من أهل الرأي لا من اهل القياس . وإلا فمن يمتعنا بتلك المحاضرات البديعة التي تشرف كتاب محاضرات المجمع فنشرها بين دفتيه اثراً خالداً فأورثته واورثتنا به صيتاً مستفيضاً . حقيقة إن النعم يجب ان تقرن بالشكر وإلا فهي معرضة للزوال .

(وهنا عادت معنا مسألة الصاد في اسماء البلاد . تذكر انا كنا متفقين على انه اجتمع على بعض اصدقائنا الخرف والحصبة ، ونسيت ان اقول لك

يومئذ والقسوسية ، ولبعض القسوس كبعض المشايخ صفات غريبة خاصة بطقمتهم من دون سائر البشر ، ولا يعلل هذا إلا ان افكار هؤلاء الزاهدين المبتلين ، الساجدين الراكعين ، مصروفة الى الآخرة ، فلا تهمهم الدنيا ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

(اعود الآن وانا في باب جيرون فأذكر اميون ، ومن لي بزيارتها

فيادارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك اهوال

(قالوا للكردي: نريد ان نرسلك الى جهنم ، ونعطيك أجرة قدرها كذا ، فأجاب الاجرة طيبة والطريق خطر ، ثم ان الوصول اليك صعب الآن ، وعلى كثرة اشتياقي اليك والى إخوانك — بالله عليك إلا ما قبلتهم عني واحداً بعد واحد — يتعذر عليّ وأنا على ابواب الشيخوخة ، أن أركب اليك القطار والسيارة والمطايا ساعات طويلة ، وان اطلب إجازات من الوزارات والمفوضيات ، ليثبت لي ما قيل قديماً من ان عشرة الكبراء تتعب الرأس والرجلين ، ومالي وكل هذا وخطبي سهل في هذه الحياة لا اطمع الآن في وزارة ولا في إمارة ولا في ملك . . . والوزارات ومايتصرف عليها يا خال ، تحتاج الى علوم لدنية كسبية ، ومعارف حاصبانية كفيرية .

(أحمد إليك الله الذي لا يحمد سواه ، وأشهد أني راضٍ بما قسم لي قابع في كسر الزاوية المهملة التي وضعتني فيها الأقدار . قصة وقعت منذ نحو مئة وخمسين سنة قرأتها في بعض المخطوطات . حكي أن رجلاً نصرانياً شوهد في حالة غير شرعية مع امرأة مسلمة ، فحمل الى الحاكم فاعتقله ليصلبه من الغد . وكان للظنين ذمة على أحد المسلمين فهرع هذا إلى محبس غريمه يقول له : يا فلان إني معلمك كلمة إذا قلتها نجوت من القتل ، على شرط أن تقيلني من المبلغ الذي كنت أسلفتنيه . فقال له السجين : قل وهاك السند في جيبي ، بارك الله لك به . فقال : إذا مثلت غداً بحضرة الحاكم قل له : الاسلام يجُبُّ ما قبله ، اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يطلق سراحك . ومن الغد جيء بالنصراني إلى حضرة الحاكم

فقال له الجملة التي تعلمها من صاحبه بالأمس . فقال الحاكم : حسنٌ ، عفوت عنك ، ولكنك تتزوج بالمرأة التي فضحتها وتختتن ، فأجاب بالسمع والطاعة . وهكذا نجا المسكين من القتل . وبينا هو عائد إلى داره سمع إطلاق المدافع فسأل عن سبب إطلاقها ، فقالوا له : غداً رمضان والاسلام يتقاضاك الامساك عن الطعام من الفجر إلى الغروب ، والصوم أحد أركانه الخمسة فقال : سمعاً وطاعة وزاره بعد خروجه من محبسه أحد أصدقائه في بيته وما أدري إن كان سهلياً أو جبلياً ، فأخذ على المائدة يسأله عن حاله ، فأجابه على الفور حالي خير حال : خرجت من ديني ، وفقدت مالي ، وتزوجت بمومس ، وقطعت جزءاً من جسمي ، وودعت صيام النصارى خمسين يوماً واستقبلت صيام المسلمين ثلاثين يوماً ، فأي حال أحسن من حالي ؟ فالحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه .

(لم أسألك حاجة حياتي وحاجتي المهمة إليك اليوم ، وأعدُّ لك قضاءها في باب الأفضال العظيمة . أن تبحث لي مسألة تهم العلم العربي خاصة ! وذلك بأن تتولى مع إخوانك الستة درس طبيعة أهل « حصرون » جيرانكم لننظر في جلسات المجمع العلمي القادمة إذا كانت نظرية الشيخ المقدسي في البلدان الصادية صحيحة أو غير صحيحة ، وتلطف بالأمر مع الاستاذين الصفديين (بدر الدين الصفدي وأديب الصفدي) وبلدهما يا لهف نفسي مبتلى بهذه الصاد ، بحيث لا يفهمان المقصود من هذا التحقيق إلا بعد أن تؤخذ الآراء وتسطر في محضر بالسلب والايجاب .

(واعلم وفقك الله أنكم إذا وصلتم إلى تحقيق هذه المعضلة تهون عليكم الاقامة القسرية خمس سنين في حسجة ، ويكون معالي الوزراء وأصحابهم غير مغبونين . لا جرم أن اليوم الذي تصح فيه قاعدة المقدسي يكون سعيداً على الأمة كاليوم الذي اخترع فيه الكهرباء أو البخار أو الراديو أو الراديوم في ديار الغرب ، واليوم الذي تسقط فيه قاعدة المقدسي تسقط طوعاً أو كرهاً جميع نظريات العرب في الفلك والطب والكيمياء والفلسفة الخ .)

وأخذت مسألة البلاد الصادية (١) مكانتها من البحث والنظر ، حتى إن السيد فارس الخوري برأ إلى الله وإليّ من البلدة المقصودة في هذا الحديث « حاصبيا » وقال إنه لم ينزلهـا في حياته سوى مرتين أو ثلاث لا يتجاوز مجموع مدتها الاسبوع ، وهي لا تكفي للتحلي بالنبوغ الذي جادت به على أبنائها البررة . قال : ولا ريب أن الشيخ المقدسي الجغرافي لم يعلن رأيه في البلدان الصادية إلا بعد أن وجد لقوله دليـلاً ، ولمذهبه مبرراً ، وما كان مثله ليدوّن قاعدة اجتماعية مثل هذه بدون أن يسجل على اهل البلدان الصادية حماقات وبلاهات تدعم نظريته ، ولا إخاله اكتفى بحمص وحدها وأنت غنمت النهزة وسألتني أن اتعاون مع رفاقي الستة وندرس اخلاق اهل حصرون لتمحيص قاعده الشيخ المقدسي ، وقـد ذهب عنك أننا مقامون قسراً ضمن منطقة ضيقة لا نستطيع براحها ، فكيف نصل إلى حصرون ونعاشر اهلها . ولكن اروي لك حادثة وقعت في هذا الصيف هي أن أهل حصرون نقموا احداثاً على رجل منهم اسمه مرشد المقدسي (ولعل اشتراكه بالاسم مع الشيخ المقدسي صاحب القاعدة الصادية فحل هذه النقمة) وعزموا على قتله . وكان من عادتـه أن يخرج في سيارته إلى طرابلس في بعض الأيام ، فقطع الطريق عليه ١٥ رجلاً منهم ، وحالما اقبلت السيارة رشقوها برصاصهم وابلاً حتى سكنت حركتها ، فتقدموا إليها وإذا بهم قـد قتلوا السائق والراكب ، وما كان هـذا الراكب المسكين إلا محافظ البترون فيليب ناصيف . وقد قبضت الحكومة على ١٤ منهم وهم اليوم رهن المحاكمة في محـكمة الجنايات . افلا تصلح هذه الحادثة لاثبات قاعدة الشيخ الصادية ؟

وقال : (جاءني هذا الاسبوع شاب من «صور» يطلب إليّ أن أكتب

---

(١) قال احد اترابي الأعزة وقد بلغ الحوار اقصى شدته في الصاد ما رأيك في صاد « مصر » وهل عندك ان حكمها حكم سائر الامصار المحكوم عليها باحكام الصاد ام هي بنجاة من تأثيراتها كالبصرة التي استثناها المقدسي ! فقلت له وانا استثنيت مصر وانفي راغم ، ولست بفضل الله « عبيطا ياعبيط » حتى أعادي سبعة عشر مليوناً سكان مصر واقل ماينالني من عقوبة حرماني أن الحظ وادي النيل ، وتتجهم لي تلك الوجوه الصباح وفي هذا البلاء المبين ا هـ .

له كتاب توصية لرئيس محكمة صور الذي لا أعرفه ليعينه كاتباً في محكمته . فقلت له : اخطأت يا بني بطي هـذه المسافة الطويلة لتتخذني وسيطاً لك لدى رجل لا أعرفه ولا يعرفني ، وأنت تعلم أني اليوم لا أملك تصريف أمر نفسي ، فكيف أملك تصريف امور غيري ؟ أفلا تجد في هذا أيضاً دليلاً آخر على عدو صاد صور على هذا الشاب الغافل ؟ قاعدة المقدسي لا تتناول ما قبلها ، فلا تسري على الفينيقيين وإنما تجري على أهل زمانه وعلى من جاء بعده حتى اليوم .

(يا ليتك تكتب إلى الصديق العلامة أحمد زكي باشا نزيل صنعاء ليدرس لنا شيئاً عن صادها في عقول سكانها ، فتدرس في إحدى جلسات المجمع مع آثار الصادات .

(يوم كنا في حسجة أقامت السلطة علينا خفارة ضيقة ، كان الجنود بها يقفون على بابنا بالحراب المسلولة ، ليمنعوا كل داخل وخارج . وبعثنا في أحد الأيام مع جمّال جاء به الجند ، كيساً من القمح إلى المطحنة ليطحنه لنا ، وكنا قبل وضع هذه الخفارة قد أرسلنا رجلاً بكيس آخر ورافقه بدر الدين أفندي الصفدي إلى الطاحون ، فخطر لهـذا الرفيق أن يرافق الجمال هـذه المرة أيضاً ، جرياً على العادة السابقة ، لأن العادة في عرفه تثبت بالمرة . فذهل عن تبدل الحال وقيام الخفراء ببنادقهم وحرابهم على الباب . وحالما رأى الجمال خارجاً بكيس الحنطة من الدار ، وثب من مكانه وهو بقميص النوم ، وبدون غطاء على رأسه ، وهب يعدو وراءه ليرافقه ، ولو لم يصدمه الجند عند الباب ، ويوجهوا حرابهم الى صدره ، لجرى وراءه بلا حذر ، وكنت افتش عن سبب هذا الذهول الغريب الى أن جئتني بالقاعـدة الصادية فاهتديت اليه (انتهى كلام الصديق الخوري) .

وآخر الحوادث التي تقرن الى أمثالها في الحـكم على الصاديين ما حدثني به أحدهم بسنده الصحيح عن الدكتور داود ابو شعر ، وقد عاد من « حصرون » بعد أن قضى فيها عاماً وبعض عام قال : إن صاحبـة داره

دعت ابنته ذات يوم الى الطابق العلوي من دارها في حصرون ، ولما أخذت مقعدها دخل كلب لطيف المنظر ، فسأل رجل كان هناك صاحبة البيت عن ام الكلب فأجابته : ان الذئب أكلها ولم يبق منها شيئاً . فقال لها : بل أكلها مسلم صائم جوعان . فقاطعته صاحبة الدار الحصرونية وقالت : بل افترسها رومي أرثوذكسي . فتألمت فتاة أبي شعر وهي ارثوذكسية ألماً بدا في سحنتها ، وحدث ما شئت أن تحدث عن انقباض صدرها الصغير ، لسماع هذا التعريض الكبير . مثال جديد من الحماقة ويحمل في مطاويه خبثاً أيضاً .

ونعوذ بالله من غلظة جبلي ، وخفة ساحلي ، واستخذاء سهلي ، ونسأله ألا يكلنا الى انفسنا ، ولا يجعلنا ممن نقاد بزمام كالأنعام ، ولا نستضعف في الأحكام ولو على الحكام ، ولا يستهوينا الحطام لارتكاب الآثام ، وأن يجعل لنا عبرة من الحمار ، يحجم اذا رأى الهوة سحيقة ، ومن الفيل لا يقدم على اجتياز جسر إذا شمه ورأى فيه خللا ، ونسأله أن ينزه قلوبنا من المطامع المردية ، فانها تقطع أعناق الرجال ، وينزه ألسنتنا عن حصائدها المؤذية ، حتى لا نكبت على الرأس في الأوحال ، ولا نخجل في أنفسنا من عمل أتيناه سراً فافتضحنا به جهراً ... فقد حكم السلطان عبد الحميد الثاني أربعاً وثلاثين سنة فما شككنا في رعونته ، ولم يطل حكم عمر بن عبد العزيز أكثر من تسعة وعشرين شهراً فما خفي على الامة عدله وحسن ولايته . اللهم لا تلبسنا ثوباً تبدو من خلاله العورة المغلظة ، وارزقنا عقلاً نميز به بين الدرة والخرزة ، وأنشئنا نشأة صالحة نتمتع بها بحياة الرجل الصالح في الوطن الصالح ، ولا تجعلنا كالجعل يغتذي بالسرقين ، ويؤذيه الريحان والياسمين ، ويموت من الورد والنسرين ، آمين يا رب العالمين .

وهكذا كنا نسلي أصحابنا في محنتهم بهذه الدعابات . وفي بعض المأثور : المؤمن دعب لعب ، والمنافق عبس قطب .

وطنية الأمير شكيب وجهاده

الى الآن لم تثبت وطنية الأمير شكيب أرسلان عند بعضهم ، فتأمل عقول أبناء هذا الشرق وردد معي كلما تأملتها قول البهاء زهير :

يا أيها البـاذل مجهوده	في خدمة أف لها خدمة
الى متى في تعب ضـائع	بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل	كأنك الراقص في الظلمة

رأيت بعض من يدهنون للسلطة أوائل حرب المانيا انكلترا فرنسا (١٩٣٩ — ١٩٤٠) يعترضون على الأمير شكيب لذهابه من سويسرا الى برلين . وسألني أحدهم عما إذا كان يليق بمثله أن يذهب في هـذا الوقت العصيب الى المانيا . فقلت له : ولم لا يذهب ، أليس هو حراً بنفسه ؟ قال : لا : ليس هو حراً ، وذهابه الى أعدائنا ليس من الوطنية في شيء ، فأجبتـه ، وقد آلمتني خفته : أي منة لـكم على شكيب ، حتى لا يتحرك إلا بأمركم ؟ وهل هو مستخدم عندكم تدرون عليه الرواتب والعلاوات ؟ ها هو في أوربا منذ أكثر من عشرين سنة ، يناضل عنكم بلسانه وقلمه ، فما هي المعاونة التي قدمتموها له ؟ لو نبغ شكيب في امة غربية تقدر رجالها قدرهم ما شعر بالضيق حياته قط ، بل لـكان موسعاً عليه في الرزق والنفقة. وقلت له إن الذي عرفته أن للأمير شكيب عقاراً في برلين ابتاعه زمن الحرب الكبرى ، أيام سقوط المارك ، ويحـاول اليوم بيعه ، أو استيفاء ريعه ، ليرتفق بثمنه ، ولا يتم ذلك الا بحضوره . وما نجوت من اعتراضات هذا الوقح الوتح ، إلا بعد أن قلت له إن الأمير اليوم في نحو السبعين من عمره ، فلعله اصيب بما يصاب به بعض الشيوخ من خرف ، فعند ذلك هش ، وأعجبه اعتذاري البارد الذي يشبه اعتراضه السمج .

ما ادعى شكيب ولا ادعى له المحبون بجهاده العظيم أن جميع ما أتاه كان سديداً من كل وجه ، وأنه معصوم من الخطأ في الخطط السياسية التي انتهجها لخدمة امته . إن من يعاني السياسة في أدوار مختلفة ، ويقضي فيها زمناً طويلاً بالقياس الى أعمار الخلق ، لا يخلو من هنات تؤخذ عليه مها بلغ من جلال القدر . ومتى كانت السياسة كالقوانين العلمية ثابتة على الايام لا تتغير ؟ لم تطل خدمة رجل من رجالنا كما طالت خدمة الأمير شكيب في السياسة والأدب ، ولم يكن من أحد مثلما كان منه على اطراد لا قصور فيه ولا فتور ، ولم يشتهر واحد منا شهرة عالمية كما اشتهر الأمير شكيب . اشتهر بالسياسة كما اشتهر بالأدب ، وعرف عند الشرقيين كما عرف عند الغربيين ، فهو العيار المنقطع النظير لم تنبغ الشام في موضوعه أجلّ منـــه .

واذا آضت الحال بان يرسم عوام الشام للأمير هـــدفه ، ويلزمونه باتباعه ، فيالضيعة الآمال ، ويابؤس العلم والعلماء ، وإذا كان الرجل من هذا الطراز البارع ، يحتاج الى شهاداتهم ، بعد صرف العمر كله في التطوع لخدمة الاسلام والعرب ، فيالشقائنا وطول بليتنا بالجهلاء وجهلهم .

بعض الناس يتطلبون من الرجال ألا يغلطوا ، ويتوقعون من النابهين أن يكونوا على الصورة التي يصورها لهم الخيال . يحاول كل واحد من امتنا أن تسن له قانوناً خاصاً يطبقه على نفسه متى أراد ، ويحاول كل صعلوك غبي أن يطبع الرجال بالطابع الذي يختـاره ، ولا يعد الكمال المطلق الا ما تخيله .

كتبت الى شكيب مرة أن يجمع لنا مقالاته التي تصلح الانتفاع بهـا في المستقبل ، يطبعها في كتاب برأسه وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي ، فأجابني من لوزان (يوم ٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي « أما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع فواجب ، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ لكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خطب وأي خطب . كلما قرأ

الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليّ بالاقتراحات ، ولا ابالغ لك إذا قلت إن الجرائد والمجلات التي تبغيني أن اكاتبها تزيد على أربعين ، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن اجيبها الى رغبتها ، وبعضها إذا كررت الطلب ولم ابادر الى ارضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم استياءها . ولا أعلم لماذا كرم الأخلاق يؤدي بالانسان الى العبودية ، فأنا على ثقة أني لو لم اكتب في بعض جرائد وبعض مجلات ، وكنت قابعاً في زاوية أقرأ لنفسي وأكتب لنفسي ما كانوا يطمعون هذا الطمع بي ، لكنهم ما داموا يقرأون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتي ، لتشتد بهم رغبة المطالبة والالحاف في سؤالي مقالات . ومن الغريب أن هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة ، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحي بها وحياً ، ولا يقال لها كوني فتكون ، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهاراً تاماً من الشروق الى أن تتوارى في الحجاب ، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة ، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تحرر في أقل من ساعة ، وأن على هذا المسكين الذي يتقاضونه كل هذي المشاق أشغالاً اخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه ، وأن عنده كتباً لا بد أن يطالعها الخ . هذا لا يهمهم أصلاً بل يعرفون جملة واحـدة من جميع بضـائع الطلب : تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال .

وفي أوربا يطالبون الكتاب بمثل ذلك لكن لا يضيعون على كاتب دقيقة واحدة سدى ، فالوقت نقد وكل وقت عندهم له ثمن . وأنا مضى عليّ الآن (٤٤) سنة وأنا أحرك قلمي ، وأكتب إلى الجرائد مجاناً لا أبتغي جزاءً ولا شكوراً ، وأدفع اجرة البريد من كيسي ، فلو حسبت لا ثمن وقتي بل اجر البرد من ٤٠ سنة الى اليوم لكانت مبلغاً لا يستخف به ، فأنا أسامح بكل ما تعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي ، وإنما أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا الى رجل وطيء ساحة الستين ، وصار محتاجاً إلى الراحة . . . . ولقد يقال لي إذا كان الامر كذلك فلا تبال بطلب زيد ، ولا باقتراح عمرو ، وامض في شغلك ، وأنت حر لست مقيداً بخاطر أحد .

والجواب : نعم كل هذا ممكن ، ولست مضطراً أن أرضي الناس بكل مايريدونه مني ، ولكن الحصة التي اريد ان استخرجها من هذا ، على رأي الترك ، هي قصور أمتنا في معرفة أصول الاجتماع ، وسيرهم الى الآن على الطريقة البدوية . فكما أن المسافر في الفلاة يدخل أيّ بيت يراه فيها ، ويرى حقاً على صاحب البيت أن يتلقاه ، وأن يَقريه ، كذلك كل انسان منا يرى له الحق أن يستبد بوقت الآخر ، ويستثمر عقله وعلمه وجميع وسائله ، ولايرى في ذلك عجباً . فهذه لا أجد منها شيئاً عند الأمم الأوربية التي لا تفهم كيف أن الانسان يطالب الآخر بسطر واحد يكتبه مجاناً ، فضلاً عن المقالات الكثيرة والحوائج الثقيلة ، والتي لا تفهم من كرم الأخلاق أن الكريم يجب أن يصير عبداً لمن يكرمه ، بل الحرية عندهم هي فوق كل شيء .

ولشيرون بان تجمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه ، وهو أمر يحك في صدري دائماً ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك ؟ إني لا أريد أن أجمع كل ما كتبته فانه يملأ أجلاداً وأجلاداً ، ومن يقرأ هذا كله ؟ ومن يؤدي كلف طبع كل هذا ؟ ولكني أفكر في انتقاء الاحسن وجمعه ، واعادة النظر عليه ، وتصحيح شيء ، وحذف شيء ، واضافة شيء يسير إن وجد ضرورياً ، وهذا كله يستلزم وقتاً . فأما طبع كل ما خطته بناني فغير مستطاع ، لأنه مفقود منه الشيء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم ، فاني في أوربا منذ اثنتي عشرة سنة ، وفي الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات ففي السنة ١٢٠ مقالة ففي الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة فاذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب فهذه فوق أربعة آلاف صفحة أي ثمانية مجلدات كبار ، وهذا عن ١٢ سنة ، وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة ، وأنا اكتب ، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتي عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالاقل . كلا هذا لن أقدر على طبعه . وهذا كله ذهب في الجرائد الطائرة ، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتي ، وكفنته باجرة البوسطة ، من كيسي واجره

على الله . وغاية مكافأتي عليه أنهم بعد موتي سيقولون في ترجمة حالي : كان رحمه الله يكتب كثيراً جداً سبعاً أو ثمانياً من الساعات كل يوم ، ولم يكن يساويه في ذلك إلا المرحوم كرد علي . فلذلك ايضاً كان من الافذاذ في هذا الباب . لا تحزن لقولي المرحوم كرد علي ، عسى لا يكون ذلك قبل مائة سنة ، ولكن ينبغي ان تعلم انك لا تعطى حقك إلا بعد فراق هذه الدنيا ، وما دام المرء حياً فقلوب معاصريه قاسية عليه ، وأنا افضل أن تقسو عليك القلوب وأنت حي ، من أن ترثي لك وتكثر من انصافك وقد مضيت بعد زمن طويل . . . . »

وكتب الأمير بعد سنتين انه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر فيه كل مايكتبه من مكتوب خصوصي او مقالة او غير ذلك . وعندما انتهت سنة ١٩٣٢ جمع منتوج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً و(١٠٨) مقالات وقصيدة واحدة ونحواً من الف صفحة من علاوات على حاضر العالم الاسلامي وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى . قال وكانت المقالات السنوية تبلغ المئتين ، والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الالفين ، وقد كان يمكن ان تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير ، وكذلك ما أزعمه من التآليف ، لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع العالم الاسلامي ، فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي ، ولا مندوحة لي عن الجواب لاني اعد ردّ الجواب كردّ السلام ، وأرى عدم الرد نقصاً في المروة . وإني أتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية التي خمس او ست منها فقط تأتي على النهار كله ولكن ما العمل ؟ كنت مرة في برلين فكان أخي عادل يرسل لي من لوزان مجموع ما يأتي به البريد باسمي ، فكتب لي مرة على سبيل المداعبة : جاء بريد سورية ، وبريد مصر ، وبريد الحجاز ، وبريد العراق ، وبريدالمغرب ، ولم يبق إلا بريد خراسان وماوراء النهر . . الى ان قال والكتاب المعروفون في اوربا عاملون بقاعدة « الوقت نقد » فلا يضيعون أوقاتهم بالجواب على الكتب الخاصة إلا ما ندر لأنهم ينفقون

بمآثرهم وأبصارهم على الكتابات التي يبيعون منها ويعيشون بها ، أما نحن الشرقيين فلا نعرف هذا الحد من حب الذات ، والضيافة عندنا مقدسة حتى على العيون ، وقصارى ما يرجوه الواحد منا هو عدم المعاتبة إذا تأخر الجواب لانه متى كثر الشيء لم يكن بد من التدريج في تسريحه اه .

وكتب الي يصف عمله في كتبه وما يعد للنشر منها وختم قوله بهذا (كتب الله لك ولي السلامة حتى نشفي غليلنا نحن الاثنين مما نريد أن نكتبه ولا نموت الا وكل واحد منا قلمه في يده) . اه .

كنت اذكر مرة لصديقي مصطفى بك العظم بعض صفات الأمير شكيب فقال لي : إنا معاشر الشبان لا نعرف كل هذا ، فهل لك أن تمن علينا بكتابة فصل في مذكراتك ، تثقفنا بسيرته ، وتعلم ابناء الجيل القادم فضل الرجال الذين عملوا لنا طول حياتهم ، فكتبت هذا وما هو في الحقيقة ترجمة مستوفاة لحياة شكيب الحافلة بجلائل الأعمال ، بل هو مثال مصغر من جهاده ودوؤبه واخلاصه في خدمة العرب والاسلام توخيت ألا أخرج به عن اسلوب المذكرات ، ولكل مقام مقال .

تمدين بلاد العرب

قلت لمن حرصوا على شخوصي إلى الحجاز في العهد السعودي : ليبدأ جلالة الملك ابن السعود بثلاث مسائل ، وهي تغني الآن عن ذهابي وذهاب أمثالي . ليجعل لكل من الحجاز ونجد موازنة خاصة ، يدخل في كل واحدة منهما مبلغاً احتياطياً لا ينفق إلا في الطوارئ الشديدة . وليشرع بتدريب الفين أو ثلاثة من الجند ، يعلمهم على النظام الحربي الحديث ، ثم يزداد المجندون مع الأيام ، فقد رأى ما حل بالملك حسين لما غفل عن هذا الأمر المهم ، فالبدو لا يكونون سياجاً لدولة فتية ولا عجوز . وليرسل إلى مصر خمسين طالباً ذكياً من أبناء الحجاز ونجد ممن درسوا الدروس الابتدائية ، يتعلمون في مدارس مصر الثانوية ما يؤهلهم للدراسات العالية ، كأن يكون منهم مهندس الطرق ، ومهندس الري ، ومهندس الكهرباء ، ومنهم يكون رجال الزراعة والتجارة والطب والادارة والتربية الخ ، على أن يزداد عددهم عشرة في كل سنة وبذلك يدوس جزء من أرض العرب عتبة الحضارة بقدم ثابتة مستديمة . وقد حقق الملك بعض هذه الرغبة .

من أقصى أماني كل عربي عارف أن يتحضر العرب ، ولا سيما أهل الحجاز وما إليها واليمن ونجد وما والاها ، كما تحضرت بحضارة هذا العهد مصر والشام والعراق ، على اختلاف بينها في درجات المدنية ، فان هذه الأقطار الثلاثة تمثل الآن الحضارة المصرية . ولا يتم التحضير المنشود إلا باعداد فئة من الخاصة تختار من أبناء تلك الممالك فتعمل هي على إسعادها وبغيرها لا يستقيم أمر هناك ، ولا سبيل إلى النهوض إلا بالاكثار من أهل هذه الطبقات ، والقضاء على الأمية قضاء أبدياً . وفي الأمثال « قتل أرضاً عالمها » . هذه الطريقة طويلة لكنها مأمونة قويمة

لا يعجز صاحبي اليمن والحجاز ونجد شيء إذا عزما عزماً قطعياً على الدخول في التمدين على هذا الوجه ، فعندهما المال ، وأمامهما كل طرق النجاح مفتحة في هذا الباب ، وها قد رأينا الامام ابن سعود لما صحت عزيمته على توطيد الأمن ، وتنظيم شؤون الصحة ، كيف أتم ما نفاخر بمثله . ورجائي أن يشتغل المقربون منه لمصلحة العاملين المظلومين أكثر مما يعملون لمصالحهم الشخصية . وأن يدركوا أن التحرر السياسي لا يدوم إن لم يشفعه التحرير الاقتصادي ، وأن الاستعباد الاقتصادي أبشع ضروب الاستعباد .

كتب إليَّ الأمير شكيب أرسلان من الطائف يوم ١٥ المحرم ١٣٤٨ كتاباً في حالة الجزيرة ، وما يراه في اصلاحها ، رأيت ان أضمه إلى هذا الباب ، عسى أن يكون منه لأمتنا ما ينفعهم قال : ولا يخلو البلد (الحجاز) من أدباء وأبناء بيوت نبيلة مهذبة إلا أن هذا العدد قليل . ولكن الأمور في الحجاز أيضاً سائرة إلى الأمام ، وهناك نهضة ، وهناك فكرة عربية ، وهناك نزوع إلى ما نزعت إليه سائر الأمم من الرقي العمراني والأدبي . وعسى أن نكون قمنا بجزء ضئيل من التأسيس لهذه المشروعات النافعة لأن جلالة الملك ابن سعود ، والحق يقال ، رجل كبير واسع الادراك ، سريع انتقال الفكر ، منطقي المحاكمة ، يقبل كل ما فيه خير للبلاد من مادي أو معنوي ، ولكنه يسير في الاصلاحات سير من يقبل منها شيئاً بلا تردد ، ومن يتروى في الشيء الآخر ، ومن يرد بعضها لأسباب لا تزال موجودة وبالاجمال هو يضع الهناء مواضع النقب .

قال والحق يقال إن الطائف هي قطعة من الشام أقامها الله في الحجاز ، لا بل لك أن تقول هي قطعة من أعالي جبال الشام كملولة والنبك وعسال الورد وذلك الصقع الممتاز بحسن الهواء وعذوبة الماء ، فهي رحمة بجزيرة العرب ، وأظن أن مستقبل الطائف والجبال المحيطة بها ، والتي فيها قرى أعلى من الطائف ، سيكون عظيماً لا سيما إذا ارتبطت بسكة حديد مع جدة ، فربما تصبح مقصداً للسياح المسلمين وللمصطافين من الأقطار المختلفة .

ومما يسرك أن البلاد من الطائف جنوباً إلى ابها ، وهي مسافة ٨ أيام على الراكب ، ومن أبها إلى صنعاء ، وهي مسافة ١٥ يوماً كلها صقع واحد في الارتفاع عن سطح البحر . وفي حسن الهواء ، وعذوبة الماء ، وتزيد على جبالنا بخصب الأراضي ، وإن كانت جبالنا الشامية أغزر ماء ، وأسيح أنهاراً ، وهذه النجود والسهوب التي في هذه الدرجة من الخصب ، وحسن الاقليم والتربة الخصبة لشرف على تهائم وسواحل ممتدة من شمالي عسير إلى نواحي عدن من أعظم بلاد الله قابلية زراعة ، وإن كان الحر فيها شديداً .

فالذي يراه هذا العاجز هو أن تعبيد الطرق ومدّ الخطوط الحديدية ، سيجعلان من جزيرة العرب الوطن السعيد الذي تتحقق به الأماني ، فالساحل ساحل والجبل جبل ، وكل منهما يكون متصلاً بالآخر بفضل المواصلات والطرق الحديدية ، وللناس في جروم البلاد وصرودها جميع نباتات الاصقاع الحارة والباردة ، دانياً بعضها إلى بعض . هـذا فضلاً عما في مـد هذه الخطوط الحديديـة من تقريب المساوف ، وتقريب الأفـكار ، وتوحيـد الخواطر ، ، وجمع كلمة الأمة العربية وادناء الأقاصي بعضها إلى بعض ، فان المواصلات هي الأساس في وحدة الثقافة والحضارة كما لا يخفى ولما بدأ كافور بمشروع توحيد الأمة الايطالية كان أول ما وجه إليه نظاره مـدّ السكك الحديدية بين شمالي إيطاليا إلى جنوبها ، وهكذا قل في سائر الممالك التي توحدت .

وستقول لي الآن : عظيم جداً كل هذا الذي تتخيله يا أخي شكيب ، ولكن هل في نية الملك ابن سعود والامام يحيى أن يمدا هـذه الخطوط الحديدية التي تقول عنها ، وأن يربطا أجزاء هذه القاصية بعضها ببعض ، وأن يعملا هذه الأعمال ، وأن يحققا هذه الآمال الخ ؟ فأجيبك : كلا ، هذه المشروعات لا اقول إنها على طرف الثمام ، وذلك ليس لجهل الامامين المشار إليهما بفوائد الطرق والسكك الحديدية والمشروعات العمرانية ، ولكن لصعوبات اخرى لا تـكاد تحصى منها ما هو اقتصادي ، ومنها ما هو إداري

ومنها ما هو سياسي . فأما الموانع الاقتصادية ، فان هذه المشروعات تقتضي ملايين وملايين من الجنيهات مما لا يوجد إلا عنـــد الاوربيين . ومما لا مشاحة فيه انه لا يجوز إعطاء شيء من الامتيازات لمشروعات كهذه لرواد المطامع الأجنبية . وسماسرة الاستعمار ، طلائع الابتلاع والالتهام ، على حين ان المسلمين وحدهم لا ينهضون بـبذلاء كهذه ولا يدفعون اموالاً ولو وجدت عندهم لاجل المشروعات العمرانية ، لأنهم اقل الناس اعتماداً على طريقة الشركات . واما الموانع الادارية فانك لا تجد لهذه المشروعات النفر اللازم لها من العرب ، وان اهل هذه البلاد لغلب عليهم البداوة كما لا يخفى ، فلا بد من وقت طويل حتى يرتقوا إلى سوىّ اهل سورية مثلاً .

فأما اهل سورية الذين كان يرجى منهم ان ينتشروا في جزيرة العرب صناعاً وزراعاً وتجاراً وعمالاً فانهم يفضلون الهجرة الى أقاصي الغرب ، ولا يتركون زاوية من أميركا او افريقية الغربية واستراليا حتى يرتادوها بدون ادنى عناء ، وتراهم مع ذلك لا يريد الواحد منهم أن يطأ جزيرة العرب لا نجدها ولا سهلها بقدمه ، وتراهم يشكون الحر الذي فيها ، ويتخوفون اذا جاؤها من مغبة الحر ، وينسون انهم يعانون من حر أميركا الجنوبية ورطوبتها وامراضها ما يزيد او يساوي حرارة جزيرة العرب التي هي في الواقع لا تعد شديدة إلا في التهائم . فأما الجبال الممتدة من الطائف الى صنعاء أي مسافة نحو شهر على الراكب فانها كأحسن ما يكون من جبال لبنان ، وتمتاز بخلو اهويتها من كل رطوبة ، فهي من اصلح الاقاليم للسكنى . ولقد بلوت هواء الطائف بنفسي ، وعرفت من سرعة انعاشه للضعيف ، ما لم اعرفه من بلد آخر في حياتي .

فأما الموانع السياسية فان ملوك جزيرة العرب اصبحوا يستوحشون كثيراً من مد الخطوط الحديدية في الجزيرة ، لما يرون وراءها من تقريب المواصلات مع الاجانب الذين يتمثل لهم شبح استعمارهم في كل ليلة ، ويجدون

ايضاً أن من العرب فئة ليست بقليلة لعمل كل شيء ، ولو اضرت بمجموع الامة وأحبط عليها استقلالها ، وذلك انتقاماً من الاشخاص ، وجرياً مع الأهواء والاحقاد الشخصية ، فيرى هؤلاء الملوك ان اعداءهم يكونون مطايا للاستعمار ، ولتدخل الاجنبي في الجزيرة ، بمجرد ما تلوح لهم الفرصة ، فيعدلون في سياستهم الى الانكماش في داخل اراضيهم ، والاعتصام بفلواتهم ، موصدين في وجوه الاجانب ، ومن يحطب في حبل الاجانب . ابواب البلاد بقدر الامكان.

ولقد تحادثت مع جلالة عبد العزيز بن السعود فلم اجده ينكر شيئاً من فوائد هذه السكك الحديدية ، ومن وصل اقطار الجزيرة شمالها الى جنوبها ولكني وجدته على حذر شديد في هذه النقطة مكتفياً الى هذه الساعة بسير السيارات التي اخذت تشق بلاده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قائلاً إنني ارى فيها الكفاية في الوقت الحاضر . نعم إنه مجتهد في اعادة الخط الحجازي وربط المدينة المنورة بسورية عوداً على بدء ، لما يعود على القطرين الشامي والحجازي من فوائد هذا الارتباط ، ولكنه يأبى ان يسلم بمطالب فرنسا وانكلترا في امر القطع التي في سورية وفلسطين وشرق الأردن من الخط الحجازي ، وفي أمر الامتيازات التي يملكها الخط ، وبالجملة لا يرضى أن يفضي على تحيف الدول الاجنبية لوقفية سكة الحجاز العائدة للمسلمين .

فأنت ترى أيها الأخ أن دسائس الغرب في حق العرب هي أيضاً من جملة عوائق المشروعات العمرانية في ديارهم ، ولكنني واثق أن الامة العربية مع الزمن ستتغلب على هذه الموانع ، وأنها ستنمو فيها الفكرة القومية السليمة من الأغراض الشخصية ، بحيث يصبح الكلام الأول لمن أيقنت الأمة بأنه هو الأقدر على صيانة استقلالها ، والأنزع الى استرداد حقوقها . ولا بد أن يأتي زمن تضعف فيه السياسة الشخصية ، بل تذوب في السياسة القومية العامة . وهنالك تنطلق أيدي الأمة وأولياء أمورها في المشروعات العامة المادية والمعنوية بدون نكير ، وبدون حذر من الدسائس المعهودة ، لأن الدسائس الاجنبية إنما هي ميكروب لا يقدر أن يرعى إلا في أجسام الامم الضعيفة الجاهلة ا هـ .

توارد الخواطر

كنت منذ سنين اطيل التفكير في انواع الحكومات في العالم فعلمني الزمن ان اكثرها غير صالح عملياً ، وخصوصاً في ديار كديارنا ، عرفت بتأخرها في بعض اوضاعها ، بالقياس الى الامم العريقة في حكم نفسها بنفسها . كنت انقد الحكومات الملكية المقيدة ويذهب بي النظر الى ان من الملوك من يحمل الضرر الى امته بسوء سيرته وان الصالح فيهم قليل وان بعضهم يرهق امته ليسرف فيما تهفو اليه نفسه اسراف جنون .

وكنت اذا نظرت في صورة الحكم النيابي أو الجمهوري اراه الى الفوضى ومن ابعد اساليب الحكم عن الحرية الحقيقية ، يتغلب فيه الاقوياء وتكون السيطرة للحزب الغالب ، وهذا لا ينظر على الاكثر في غير منفعة انصاره ومريديه وقد يفضلها على مصلحة الامة والدولة ، ولو كان يعتقد مضرتها . اما الحكومات الملكية المطلقة او الاستبدادية الفردية فضررها مشهور محسوس ، وخاصة في امم الشرق حيث القول الفصل للطاغية من الملوك والطواغيت من المتغلبين ، وحيث الشعوب لم تتشبع بروح الشورى واصول الحرية ، لساق بالرهبة وتحكم بالجبروت ، ولا تعرف للنظم والطاعة الذاتية معنى .

وكثيراً ما كنت اخاطب النفس فأقول : ليت شعري الا يصلح الحكم في دولة على ايدي جماعة مختارين من رجالها تكون لكل واحد مزيته واختصاصه يؤلفون مجلساً يرئسون احدهم عليهم فيكون رئيس تلك الدولة الى أجل مسمى ، فاذا خلا مقعد احدهم بعد ذلك يختارون هم من يخلفه لا الاهالي وذلك لان الاتكال على هؤلاء في اختيار نوابهم قد لا يكون الى الصواب كل حين ، ونصب النواب بطريقة معقولة مجردة عن الهوى في الجملة ربما

كان الى السداد أقرب . والنواب الذين ينتخبهم رؤساء الطبقات المختلفة أو يختارون بصورة من صور الانتخـــاب افضل ممن تختارهم الأحزاب وتدعو لهم . سألني صديقي الاستاذ ماسينيون وهو ممن يعنى بالسياسة الاسلامية في فرنسا اوائل الحرب الأخيرة (١٩٣٨ — ١٩٤١) عن حالة سورية السياسية فذكرت مساوئها والمعت الى تخبطنا في كل ما جربناه من اساليب الحكم ، وقلت له ان حكومة الجمهورية كانت غريبة الشكل ظاهرهـــا فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب . وقلت له رأيي في اختيار مجلس على الصورة التي ارتأيتهـا فاستحسن الفكرة وكتبت له على اسرع وجه مذكرة صورت فيها العمل وعينت الاشخاص الذين يجب التعويل عليهم في الحكم الجديد في هذا القسم المظيم من الديار الشامية .

لعلقت الاقدار بهزيمة فرنسا ، وبعد نحو سنة بدأت حكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان بتطبيق طريقة جديدة في الحكم تشبه من بعض الجوه الطريقة التي اختارتها لنفسها في القسم الذي لم يحتله الالمان من بلادها ، وسموا المجلس الجديد المجلس الاستشاري والى الآن لم يعين افراده ، وهذا المجلس اذا تمت له جودة الانتخاب يكون من أحسن المجالس . اما انا فأرى ذلك متعذراً ما دام فريق الوطنيين يريد اطالة مـــدة حكمه بمسايرة الموحين وهؤلاء لا يرضيهم الا أن يكون كل من يعين ممن ترضى عنهم دواوين الاستخبارات

ولقد الحّ عليّ رئيس مجلس الوزراء صديقي السيد خالد العظم أن اكون عضواً في المجلس الاستشاري الذي عقده في عاصمة الشام فاعتذرت بأن اشغالي العلمية لا تترك لي مجالاً للتفكير في شيء آخر ، وان نفسي الى اليوم ما طابت لتولي النيابات ، واظنها لا تطيب لها فيما بقي لي من أيام في الحياة . وقد جريت على قاعدة العفة عن مطالبة الامة بشيء ، جريت معها على ان اخدمها فيما اعتقد أن فيه الخير والا اطلب منها شيئاً .

وهناك سر آخر كتمته وما بحت به وهو اني اعرف ان المجلس سيرأسه لا محالة احد رجال سياستنا المقربين جداً من المنتدبين ، ومعظمهم ممن بلوت فما حمدت ، فمن العبث ان اساهم مع من اعتقد عدم اخلاصه وكفاءته ، وقد شب عمرو عن الطوق . ولو كان تولى المناصب الكبرى بالعلم ما كان يتولى الجهلة رئاسة الوزارات ورياسات المجالس على الغالب ولكان للعلماء نصيب مفروض في الزعامات .

لو كان من طبعي استثمار قوة غيري لما صعب عليّ تأليف حزب والسعي في طرق توصلني الى الرياسة الكبرى ، ومن بلغوها ما كانوا من ارباب الذكاء الذي لا نظير له ، ولا من ارباب العلم والفصاحة بالمكان الاعلى ، ولا من الخبرة والتجارب على جانب ، ولكنني ما احببت أن اوحد مسعاي مع من يتعهد بشيء ثم ينقضه بحسب هواه عند اقل بادرة ، ويترك من يعاونه في الازمات فيحترق كما احترق معظم من تولوا الحكم في ديارنا على العهد الاخير .

ولقد كان أحد من بيدهم النهي والأمر من كبار رجال الانتداب يريدني منذ سنين على أن أدخل في السياسة وأشار إليّ بأنه سيعهد إليّ برياسة الوزراء فأبيت . وقدمني هذا الصاحب إلى أحد كبرائهم مرة فذكر له صفات فيّ غالى في تقديرها ثم قال إلا إنه لا يحب السياسة . نعم هو على حق فيما قال ما أحببت السياسه لأنها جلبت عليّ الويلات وضياع الأوقات . ولو كنت أعلم أني أنجح فيها على طريقتي مع هذه الدول المتقلقلة والحكومات المستضعفة لكنت أول مشتغل بها ولا يقتصر مطمعي فقط في الرياسات الكبرى بل أقنع بأقل الأعمال إذا كان من ورائها فائدة محسوسة للوطن . وبلغني أن بعض الأحزاب في العهد الأخير اقترح على أرباب الشأن توسيد رياسة الوزارة إليّ بدون أن يفاوضني بذلك ، ولو سألني من قبل لحلت بينها وبين ما قالت فيّ .

إن العالم على أبواب حدث جديد لم يسبق له مثيل في التاريخ كما لم يسبق مثيل لهذه الحرب الحاضرة فكل ما يعمل من هذا القبيل موقت إذا ظفرت ألمانيا في هذه الحرب العوان . وهي التي كتبت لها الغلبة في كل مكان وطئته جيوشها في هذه الحرب الناشبة وستأتي العالم بقانون تجري تنفيذه على الأمم والشعوب في الغرب والشرق وإذا . تراجعت واضمحلت وغلبت بريطانيا العظمى في النهاية فان هذه تعمل كل ما ترى فيه مصلحتها مع الشعوب والأمم ومن مصلحتها تكثير الحكومات باسم الديمقراطيات وكل حكومة تسن لنفسها القانون الذي ترضاه من أكثر الوجوه .

المعارف والادارة

فيما يلي صورة تقريرين ارسلتهما في أمر المعارف والادارة الى رئيس الدولة يومئذ الأول في طرق الاقتصاد من موازنة الجامعة السورية افتح مدارس ابتدائية والثاني في الاصلاح اللازم في جزء عظيم من اجزاء الدولة وقد اقتصرت في الأول على ماله علاقة بالتعليم عامة واقتبست الثاني برمته نموذجاً مما كنت اكتب في اصلاح الادارة .

هذا يا مولاي زهاء خمسة وسبعين الف ليرة سورية من الوفر (وفر الجامعة السورية) ينفق قليل منها على تأسيس فرعي الدروس الأدبية العليا ومدرسة الآلهيات تضافان الى الجامعة وهو مبلغ زهيد لا يزيد على ثمانمائة ليرة دينارية وبذلك نكون انفذنا ارادتكم العالية في تأسيس هذين الفرعين المهمين لشدة الحاجة الى الباحثين والمؤلفين والقضاة والمفاتي والخطباء والائمة الدارسين على الاصول الحديثة ثم يصرف بقية المبلغ المقتصد وما يحصل من وفر المدارس والمعاهد الاخرى في الدولة على انشاء مئتي مدرسة ابتدائية هذه السنة تضم بين جدرانها على أقل تعديل عشرة آلاف من البنين والبنات وبهذا العمل نخطو الخطوة الاولى نحو التعليم الاجباري .

يقول الماليون انما يشرع الاتفاق العام في سبيل النفع العام فقط . والنفع العام هو التعليم الابتدائي اي التعليم الذي يدر على مجموع الامة الخير ويتناول نفعه كل الطبقات من ابناء الوطن . وتعلمون حالفكم التوفيق شدة عوزنا الى هذا الضرب من التعليم حتى نخرج هذه الامة من الامية اصل بلائها وشقائها في كل دور ، وتعلمون ان ادارة الصحة العامة طالما انذرت وزارة المعارف باقفال المدارس غير الصحية ففي مدرسة في صميم دمشق

في الحقيقـة مثة ولم تستطع المعارف أن تضم نحو اربعمائة طالبة وهي لا تسع
لتستأجر داراً فوراء تؤوي البنات فيها لضيق مخصصاتها وهكذا الحال في
غيرها . وتعلمون أيضاً ان عشرات من القرى أعدت الدور وتكفلت بلوازمها
على ان ترسل لها المعارف المعلم او المعلمة والى اليوم لم تجب الطلب لضيق
موازنة المدارس الابتدائية . وانه لو كان للمعارف اماكن صالحة واسعة
لزاد عدد المتعلمين زيادة كبرى ولم يقف عند حـد ٢٦٧٣٦ تلميذاً يدخل
في ذلك تلاميذ التجهيزيات ودور المعلمين والمعلمات ومدارس الصنائع والميتم
وطلبة لواء الاسكندرونة ، في دولة لا يقل نفوسها في الحقيقة عن مليونين
وتعلمون أيضاً ان لواء دير الزور كان فيه ايام الدولة العثمانية نحو اربعين
مدرسة وليس فيه اليوم سوى اثنتي عشرة مدرسة هذا مع انه اضيف الى
املاك الدولة السورية من الشمال نحو ثلث الجزيرة العليا ونحن نتاخم العراق
من جهة واربع ولايات تركية من اخرى وهي ماردين وسيورك واورفة
وعينتاب . ولمعي الدولتان المجاورتان كل العناية بالتعليم والتربية وتعلمون الحاجة
الماسة الى زيادة مبلغ طفيف لمعلمين يعلمون ابناء القرى مبادىء الزراعـة
العملية وان عندنا مدرسة عظيمة في قضاء الميادين على الفرات تصلح لتعليم
الزراعة العملية مع الدروس الابتدائية وللمدرسة أرض واسعة جداً سهل
ارواؤها وكذلك في شمسكين في حوران فان فيها سرايا مخربة اذا رممت
تصبح مدرسة زراعية بسيطة من هـذا القبيل ولها ارض واسعة يشقها
نهر أيضاً ويعيش الاولاد في المدرستين عيش بلادهم ولكن على طريقة
منظمة نظيفة ويتعلمون ما يحبب الارض اليهم وما يمكنهم في الحال زرعه
وغرسه من الحبوب والبقول والاشجار لا ليكونوا أصحاب شهادات فالضين
عن الاحتيـاج يطالبون الحكومة كل حين بان يستخدموا في دواوينها
ولو بأجر زهيد .

ان حالة الفلاح يا مولاي تحتاج الى اصلاح بليغ حتى يتعلم من الصنائع
الزراعية والصنائع اليدوية ما يمكنه معه ان يعيش وتستفيد المملكة من عمله

وما برحت الصنائع الزراعية الى اليوم على حالة ابتدائية في جميع الاقضية والفلاح الراقي عندنا هو الذي يعمل الجبن والسمن وينسج بعض الاصواف الغليظة . اما الصنائع الاخرى فتكاد تكون مفقودة من معظم الاقضية فقد احتاجت المعارف في السنة الماضية الى اصلاح مقاعد مدرستها في مركز قضاء الميادين فلم تجد نجاراً في القضاء كله وبعض الاقضية لا نجار فيها ولا حداد ولا بناء ولا حذاء ولا حائك . وقد بدأت في السنة الماضية بعد أن شهدت هذا التأخر بالذات فأدخلت زمرة من أبناء لواءي حوران ودير الزور في مدرستي حلب ودمشق الصناعيتين ولكن الامة تحتاج من هؤلاء الصناع الى المئات بل الى الالوف ولذلك وجب على الحكومة أن تتوسع في تعليم البسائط من هذه الصناعات التي لا يستغني عنها اهل مجتمع مهما بلغ من انحطاطه .

ان عدة اقضية في الدولة السورية تحوي بضع مئات من القرى والمزارع وليس فيها سوى مدرستين او ثلاث . ان من القرى في ارجاء حلب ودمشق مافيه بضعة الوف من السكان وليس له مدرسة وفي غوطة دمشق مثال ظاهر من هذا النقص الذي يحتم على حكومتكم السنية ان تنظر فيه كله نظراً بليغاً خصوصاً بعد ان ثبتت قابلية امتنا بدوها وحضرها للاخذ بأسباب التعلم والتعليم الابتدائي وما بعده ان امكن ، هو الخبز الذي يحتاجه الناس للغذاء . وأمتنا أحوج ما تكون اليه أولاً وفي دولتكم نحو خمسة آلاف قرية ومزرعة ومنها ما هو كبعض المدن ليس فيها الى اليوم سوى ٣٤٠ مدرسة ابتدائية ووسطى وعليا واذا لم نبدأ بتجهيزها بالجهاز المطلوب فمتى نبدأ واذا لم نقتصد من الكماليات كيف تتم لنا الحاجيات .

هذا ما اراه صالحا لخير التعليم المنتج وبهذه الطريقة لصرف الأموال على من جبيت منهم بطرق مشروعة معقولة ورأيكم العالي الموفق مولاي ،

دمشق في ٢٦ شوال ١٣٤٧ و ٦ نيسان ١٩٢٩

لحضرة صاحب الفخامة رئيس دولة سورية المعظم

أوصلني البحث في شؤون البلاد التي فتشتها بأمركم العالي في ألوية الاسكندرونة والفرات والجزيرة وحمص وحماه وبعض انحاء ولاية حلب الى أمور رأيت عرضها على فخامتكم لتنظروا فيها « أيدكم الله » وتجروا ما يمكن اجراؤه من الاعمال التي تعود بالخير على هذه الدولة .

رأيت رغبة اكيدة في حرص الناس على تعليم أولادهم لا في المدن فقط بل في القرى الصغيرة . ومتى نشر قانون انشاء المدارس الذي تأخر في وزارة الداخلية على ما بلغني لأمور اعتبرتها جوهرية الآن يزيد عدد المدارس في الدولة خصوصاً في القرى والبلدان التي لا يصعب عليها أن تعاون الحكومة في انشاء الابنية لايواء أولادها . واذا طبق هذا القانون بالتدريج وبحسب الحالة التي يعرفها المديرون وقوام المقام والمتصرفون لا تمضي أعوام قليلة حتى يكون لكل مجتمع من الناس مدرسة . أما اتخاذ المدارس بالايجار فمحال أن تنتج منه النتيجة المطلوبة في التعليم فضلا عن أنه يكلف الخزينة والاهلين مبالغ لا يستهان بها كل سنة .

خفت هذه المرة الدعاية التركية في لواء الاسكندرونة على نحو ما تجلت لي في رحلتي الماضية اليها وكان بعض الطلبة الذين درسوا سنين قليلة في مدرسة تجهيز انطاكية يقبلون مجاناً في المدارس العالية في انقرة بدون شهادات . وبالنظر للضيق المالي هناك أخذت الحكومة تمتنع عن اعطاء الكراسي المجانية حتى ان بعض من درسوا سنة او سنتين في المدارس العالية في أنقرة من أهل هذا اللواء عادوا الى انطاكية يطلبون قبولهم في مدرسة التجهيز في الصف الذي يؤهلهم اليه علمهم واستعدادهم . وكثير من اهل القرى التركية في لواء الاسكندرونة زهدوا في الحروف اللاتينية وامتنعوا عن تعليم أولادهم التركية الا بالحروف العربية لانهم رأوا مصلحة اولادهم في ذلك وهم في ارض عربية .

شاهدت بعض مفتشي الوزارات يحتاجون أن يفتشوا ابداً لانهم يكتفون بالظواهر ولا يهمهم الا قبض رواتبهم واخذ العلاوات والتمجيز في الوصول الى ترقيتهم فهم مفتشون ليس لهم من معنى التفتيش شيء يستحقون عليه هذه الرواتب وفي زمرتهم مفتش المعارف في لوائي حمص وحماه فانه يشغل وزارته في التافهات وليس له من أدوات التفتيش ماير كن اليه اذا جد الجد . فاذا كتب المدرسة الابتدائية ان يكون معلمها أو معلمتها من الكفاءة بمكان نجح الاولاد والا فهو لايعرف كيف يدرب الناقصين والعاجزين من المعلمين او يكتب لوزارته بالاستعاضة عنهم . فقد زرت مدرسة دير بعليه على مقربة من حمص فرأيتها أشبه باصطبل منها بمدرسة وفيها معلمان يشبه عملهما عمل معلمي الكتاتيب الاهلية في القرى قديماً يتغيب أحدهما دائماً في حمص ولا من يعاقبه والآخر يكتب لأهل القرية حجباً وتعاويذ للمحبة والقبول وما أظن المفتش زار هذه المدرسة والا لكان اكتفى باكثر المعلمين كفاءة واخذ معلم الرقية والحجب على الاقل الى المدينة ليضعه تحت المراقبة مدة في مدرسة كبرى فاذا لم يصلح نفسه يخرج من الخدمة وكان الاولى اختيار واحد من المعلمين يجعله في قريه زيدل المجاورة التي بنى اهلها مدرسة كلفتهم ثلاثين الف قرش وهم يطلبون الى المعارف ارسال معلم ويكون هذا من أهل المذهب الغالب على تلك القرية .

إن فاقد الشيء لا يعطيه يامولاي ووظائف الحكومة للكفاءة لا لتأليف القلوب واكتساب الرضى ولذلك كان على كل وزارة أن تفكر ملياً يوم تريد توسيد أمر لأحدهم أن تنظر قبل شهاداته إلى ماضيه وأخلاقه وهذا مايدعوني لأن أذكر لفخامتكم أن من صغار النقباء والعرفاء في الدرك اليوم من هم أكثر كفاءة من بعض مديري النواحي ويعملون عملاً نافعاً لا يستطيع المدير القيام به لعجزه وعدم اهتمامه . وقد استطلعت رأي بعض كبار رجال الادارة فقالوا هي بلزوم الغاء هذه المديريات أو أكثرها وذلك أولى من بقائها في أيدي جهلة ينقصهم كثير من الصفات للادارة .

انهم كثير من الموظفين لا يحسنون من النظام وحسن الترتيب مايؤهلهم لهذه المراكز ومنهم من لا يعرف أكثر من البلد الذي هو فيه فاذا سألته عن أمر يتعلق بوظيفته مباشرة لا يحسن الفهم ولا الجواب فتتجلى لك جهالته وعدم عنايته ، وكأنه لا يهتم بغير مصانعة أصحاب الشأن أبداً والسعادة التي يرقبها أن ترقي درجته ويكون في مركز في بلده او بالقرب من بلده وقد يذكر لك مايقاسيه وأولاده من شظف العيش قبل أن يطلعك على شكاوى الناس وما يجب عمله لتخفيف ضائقتهم والنظر في أحوالهم . وأحق الموظفين بالرعاية فيما رأيت موظفو لواء الجزيرة يجب ان تعطى لهم علاوات أو يعينون في أرقى درجات وظائفهم لصعوبة العيش المرفه في هذا اللواء وهذا ما أطلبه أيضاً لبعض المتصرفين فان رواتبهم لا تكاد تكفيهم لان يمثلوا الحكومة تمثيلاً كافياً ، ومراكزهم تضطرهم للانفاق بالضرورة . وارى بعد هذا أن لا يطول مقام الموظف في الاقاليم النائية عن الحواضر القديمة أكثر من ثلاث سنين .

ان من أنجع الوسائل في توطيد شأن الحكومات أن تطبق مفاصل القانون على المسيء ويكافىء الكفوء المستقيم وهذا ما رأيته يسير ببطء تقضي حالة هذه الدولة الفتية بالسير على خلافه لتزيد شعور الاهلين بان العاصمة تهتم بشؤونهم كل الاهتمام . وما احلى اليوم الذي ينحى فيه الموظف المسيء الجاهل ويعلن للملأ أنه نحي للسبب الفلاني ويكون ذلك باسرع ما يمكن لا كما جرى باحد قوام المقام في لواء الفرات فقيل ما قيل فيه واكتسبت أعماله درجة التواتر بل الثبوت وهو لا يزال في مركزه يأمر وينهي . وأنا لا أعلم السر في بقاء مثل هذه الحلمات الطفيلية في منصات الحكم . وإذا لم يكن للعامل من أخلاقه وغيرته على مصلحة بلاده وازع هيهات أن ينجع فيه قانون سماوي أو ارضي .

نعم ان من اخرجوا من الخدمة أمثال هذا الموظف ومن أبناء سلكه من هم بلا جدال أقل ضرراً منه بمصلحة الدولة والملة . الرشوة يامولاي كالزنا صعب اثباتها ولكن إذا أمن الراشي والرائش طائلة العقاب تجلي

الحقيقة من أيسر وجه . والرشوة أنواع ومن أبشعها أن يصانع القاضي أهله ولذلك تقضي الحكمة بأخذ بعض الموظفين في الاسكندرونة إلى جهة أخرى وأخذ بعض رجال القضاء في حلب وفي دير الزور الى ناحية لا أهل لهم فيها . ونحن لم نبلغ من الرقي درجة الكمال حتى يكون حكمنا مجرداً عن هوى الاهل والولد . بيد أن العدلية كما سمعت من عارف من رجال الانتداب هناك احسن سلك أحس بالاصلاح لما دخله من العناصر الجديدة الجيدة وأنا أحسست أيضاً أن الدرك الذي كان أداة شر وافساد في العهد التركي أصبح من أرقى الادارات في هذا العهد الحديث .

وإذا ثبت لدينا ان بعض المديرين وقوام المقامات ضعاف عن القيام بوظائفهم فان من صغار المأمورين الذين عينوا شفقة عليهم او لاسباب أخرى في وزارة النافعة مثلاً من هم أضر على اعمال الدولة من غيرهم . فمأمور لم يجد عملاً تجارياً ولا زراعياً ولا صناعياً لعطيه ثلاثين او اربعين ليرة سورية وهو سالبة كلية من حيث المعلومات ونرسله يناظر على طريق أو بناية أو جسر أسرع إلى تناول الرشوة من المتعهد وغيره من الماء الى الحدور . وقد ثبت لبعض الواقفين من رجال الانتداب في لواء الجزيرة ان كل تعهد يقوم به الارمن هناك تكون أكثر مواده مغشوشة لان المراقبين لا يحسنون شيئاً من فنهم ولا يهتمون بغير املاء جيوبهم والمتعهد جاء ليربح على كل حال . والرأي ان نختار الطريقة المتبعة في فرنسا يوم يراد تشييد مبان للحكومة وذلك بان يطرح العمل المنوي اقامة لأرباب الاختصاص يكتب فيه كل من يريد التعهد قائمة نفقاته ويعطي التعهد بعد ذلك لمن يقع اختيار الحكومة عليه وترى شروطه اكثر موافقة اما طريقة المناقصة فلم تأت اكثر الاوقات بغير الضرر ومن المناقصين من تعهدوا نحسنت مراقبتهم فخسروا ، وبعض من خفت المراقبة على أعمالهم التزموا الطريقة المذكورة في ارضاء المراقبين الجهلة حتى يسكتوا عن نواقص مشروعهم

وما ادخلوا من الغش على العمل الذي اخذوا على انفسهم القيام به بشروط محدودة مقيدة . اما الطريقة التي سير عليها في انشاء تدمر الجديدة فأنتم لعرفونها وتوقنون انها غير ملائمة من حيث الاقتصاد والمتانة وربما كان يتأتى اقتصاد ربع المبلغ الذي انفق على تدمر وكان في الامكان ارضاء الاهلين الذين استنكفوا او أكثرهم عن السكنى في دور مهددة بالسقوط كل حين وليس فيها من المرافق اللازمة ما يرغب في اقتنائها . ولعـــل الغلطة التي ارتكبت في اقامة هذه الدور لا ترتكب في المستقبل . اما الجامع الجديد في تدمر فهو يكفي لاهل قرية سكانها ثلثمائة نسمة لا لبلد سكانه اربعة آلاف ولذلك ضاق بالمصلين فأخذوا ينشؤن لانفسهم جامعاً آخر . والمدرسة المنشأة هنـاك حسنة لو عمـل الى جانبها مدرسة للاناث على طرازها . وعلى ذكر المدارس ارى ان يصدر امركم بانشاء مدرسة تجهيزية في حمص أسوة بجارتها حماة .

واني لمغتبط جد الاغتباط بما رأيت من قيام اعمال مهمة في بعض انحاء لواء الجزيرة الذي لم تضع فيه الدولة البائدة حجراً على حجر فان بضعة من الجسور والطرق والمدارس ودور الحكومة مثال من العناية بذلك اللواء الجديد والحكمة تقضي بمضاعفة هذه العناية وان ينشأ فيه في السنة القادمة عشر مدارس ابتدائية لا تكلف اكثر من عشرة آلاف ليرة سورية وينشأ جامع فخم في عين دوار . اما عمل الاهلين في ارض الجزيرة فهو اعظم أثراً ذلك لان الحسجة التي لم تكن قبل ست سنين سوى قرية صغيرة أصبح سكانها اليوم نحو خمسة آلاف وكذلك يقال في القامشلي التي لم تكن تضم قبل ست سنين سوى بيت واحد وطاحون فأصبحت اليوم تحوي اثني عشر ألفاً من السكان مخططة على صورة هندسية جديدة منارة بالكهرباء مفروسة بالاشجار ، وغداً تلحق بها عين دوار وغيرها .

والمأمـون ايدكم الله ان معظم من هاجروا إلى تلك الارجاء هم من العناصر الكردية والسريانية والارمنية والعربية واليهودية . وجمهرة المهاجرين

في الحقيقة هم من الاكراد نزلوا في الحدود . واني ارى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي الى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية لأن الاكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم فالايام كفيلة بان تنيلهم مطالبهم إذا ظلوا على التغني بحقهم والاشادة بقوميتهم ومثل هذا يقال في اتراك لواء الاسكندرونة فان حشد جمهرتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الآجل لا يرتاح اليها السوريون فالاولى اعطاء من يريد من الترك والاكراد ارضاً من أملاك الدولة في ارجاء حمص وحلب .

ثم ان من ينزل من المهاجرين على ضفاف دجلة والخابور وجغجغ والبليخ والفرات يقتطعون من شطوط تلك الأنهار ما يروقهم من المساحات فيستقون منها للارواء ما يقدرون على اروائه ويتركون ما وراءهم من الأرض بوراً لتعذّر السقيا الآن ولا يبعد أن يجيء يوم تمتلك فيه تلك الشواطيء — مع ان اكثرها ملك الدولة لها حق التصرف باعطائها لمن تريد — فاذا أحبت الحكومة أن تحيي موات الأرض البعيدة لتعذر على من ينزلها الوصول الى ضفاف الأنهار فتبقى أرضه عذياً . والأرض العذى لا قيمة لها في هذه الجزيرة التي توفرت فيها المياه الجارية وارتفعت في جوها درجة الحرارة في الصيف الى مثلها في مصر والعراق اي انها تبلغ من ٤٤ الى ٤٦ درجة . ولذلك تقضي الحكمة بان توزع الأرض على نصاب عادل فمن يملك في الأماكن القريبة المأخذ يحتم عليه أن يحيي جانباً من الأرض الصعبة . ومهاجرة الكرد والارمن يجب في كل حال أن يمزجوا بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها اتقاء لكل عادية تطرأ ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير .

بقيت مسألة مالية يظهر أثرها هذه السنة والعقل يقضي بحلها وأعني بها مسألة تعداد الأغنام . ومعلوم ان المواشي هي أهم مورد في لواء الجزيرة

واذا سقطت أسعار الصوف والسمن والماشية في كل مكان كان أكثر الاصقاع تأذياً بذلك من لا مورد لهم غير شياههم وجمالهم فالشاة التي نتقاضى منها خمسة وأربعين قرشاً سورياً يؤخذ عن مثلها في العراق نحو عشرين قرشاً سورياً وفي تركيا أربعون قرشاً تركياً أو نحو خمسة وعشرين قرشاً سورياً فاذا انزلنا هذه الضريبة الى النصف توشك أن تدخل أرضنا قبائل كثيرة من العراق وتركيا على ما جرى من قبل ويتخذون ديارنا موطناً لهم وننجو من التهريب الذي كان على مقياس عظيم في السنين الفائتة .

ولا بد من الملاحظة أيضاً ان الخروف الذي حال عليه الحول يساوي في قضاء القامشلي نحو ١٥٠ قرشاً سورياً ولا يساوي غير مئة قرش في قضاء عين دوار وذلك لصعوبة نقل الماشية في ربوع تبعد مسافاتها بمئات الكيلومترات الى منافذ يمكن أن تقام لها سوق رائجة .

ولا أريد أن اختم تقريري هذا قبل ان احيط علمكم الشريف بمسألة لها المقام الاول في عمران دولتنا واقصد بها مسألة التشجير . فان غرس الاشجار اذا كان سائراً سيره الطبيعي في الساحل كلواء الاسكندرونة فانه متأخر جداً في ولاية حلب ولواءي الفرات والجزيرة . فوزارة الزراعة يجب أن تضاعف عنايتها بهذا الامر وتعهد الى اخصائيين من ارباب الهمم العالية ان يتوسلوا بكل وسيلة مع رجال الادارة لحمل الناس على تشجير أرضهم وحمل كل بلدية على ابتياع مايمكنها كل سنة من الغراس وتمهيده بالارواء والايعاز لكل قرية أن تشجر ولو أرباضها كما فعل متصرف حمص وحمل بعض سكان القرى منذ ثلاث سنين على تشجير مساحات واسعة في جوار قراهم فنجح أكثره ومنه المثمر ومنه غير المثمر ولا يبعد ان يكون السليم في لواء حمص الآن من الاشجار الجديدة قد بلغ مليوني شجرة والهمة منصرفة بحمل الأهلين على اتمام مابدأوا به وبذلك يصبح لواء حمص نموذجاً بين الالوية التي عملت بارشاد الحكومة وقامت بواجبها .

هذا مارأيته بحسب ماساعدني الوقت واذا درست كل قضية بذاتها درساً

منياً لظهر نتائج لاتخطر لنا الآن ببال . ومن الصواب بعد هذا أن يكثر كبار رجال حكومتكم الرحيل الى الالوية البعيدة خصوصاً ما كان متاخماً منها لمجاورينا وان يكون من يتولى فروع الاعمال الحكومية فيها من أرقى رجال الامة عقلا وعلماً وعملا يعطون الاختصاص الواسع بحسب كل اقليم وصقع ليعملوا مافيه المصلحة غير مقيدين على الاكثر الا بقيود العقل . والمسؤول لتعالى أن يزيد في توفيقكم لخدمة البلاد مولاي المعظم

دمشق في ٨ رجب ١٣٥٠ و ١٨ تشرين الثاني ١٩٣١

وزير المعارف

محمد كرد علي

الاغتيال السياسي

لأول مرة اغتيل رجل من رجال السياسة في الشام . اغتيل صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وهو يخدم الانسانية في عيادته بدمشق ، بعيداً عن خليلته وأولاده في القاهرة ، وكان اتخذها دار اقامة في الربع الأخير من حياته . فاتهم باديء بدء ثلاثة من كبار الكتلة الوطنية قبل انهم دبروا أمر القتل انتقاماً لكتلتهم ممن كان العامل الأكبر في تحطيمها ، فتآمروا على اغتياله على أيدي خمسة من الرعاع . وكان أحد المتهمين السيد جميل مردم هدد الدكتور في خطبه الرسمية أيام وزارته غير مرة ، ثم حاول أحدهم أن يقتله في طريق دومة فأخطأه ، ولكن تبين المحكمة أن الدلائل القانونية كانت غير متوفرة على المتهمين فغيروا ما اعترفوا به في التحقيق الأول فبرأتهم وادعى المتهمون ان ما حملهم على اغتيال الزعيم غيرة دينية ! وأشياء كانت شائعة عنه من مثل انحلال عقدة الدين وعقدة الوطنية فخدعوا وارتكبوا ما ارتكبوا ثم ندموا على فعلتهم . وكان بعض أحباب شهبندر يخافون على حياته في الأيام الأخيرة ، ويطلبون اليه التوقي ، فكان يقول : أنا ابن الشعب وخادمه لم أوذه بلا اؤذي . لكن الاقدار جرت على خلاف ما كان يُرجى .

كان شهبندر يتهم بحب الانكليز والدعوة لهم ، وقيل إنه انتفع في مادياته من هذه الخدمة ، وهذا اجتهاد منه . والمرء حر باجتهاده على ألا يغفل مصلحة امته ، وإذا عد أعداؤه ذلك عليه سبة ، وأنكروا عليه عقيدته ، فان من المزعمين من كان يعمل لفرنسا ، ومنهم لايطاليا ، ومنهم لروسيا ، وغيرهم للأتراك ، وما كانوا يرعون إلا مصالحهم الخاصة ، وما كانوا مثله الى الاستقامة وحب الخير . وشهبندر كان من القائلين بالوحدة

العربية ، ويعمل على اعـــداد قومه لها ، وكان مثال التسامح ، دام على نغمته السياسية منذ كان في المدرسة ، وفي ذاك الطور من حياته عرفته ، الى أن اتى مصرعه . ومهما اختلف الناس في الحكم عليه ، فهو أرقى علماً وأخلاقاً من أكثر خصومه ، أحباب الأمس أعداء اليوم ، وهم يفوقونه باتحاد كلمتهم .

قلت في تأبينه ان منزعه ما كان يخرج عن الدعوة لاقامة كيان سياسي لملته ، والسعي لشفاء اهلها من أمراضهم الاجتماعية ، والعمل على تهذيب النفوس بعلوم الحضارة الحديثة ، وثبت على هذه الدعوة النافعة ، وما عبأ بالمثبطات واستهان بحظ نفسه وأسباب نعيمه وراحته . وكان افرط غيرته يتوسل الى اصلاحه بكل مالديه من طرق . فكان يثور على الظلم وعلى الجهل يحاول أن يقضي عليهما ، ولو كان السلاح الذي وصلت اليه يده لايسد كل الحاجة. وبقدر ماكنت ترى الدكتور شهبندر متلطفاً في طب الابدان ، كنت تراه صلباً في مداواة مااستعصى من أمراض الأوطان .

ومما قلت إنه كان يرى اصلاح السياسة اولى المطالب بالتقديم ، وأنه عمل للجماعة كما عمل لنفسه ، وصرف من الجهود للنهوض بأمته مالم يصرف بعضه من حاولوا أن يعدوا فى قائمة العظماء ، ولو كان كل فرد من أرباب المدارك يفكر في مصلحة قومه بالقدر الذي فكر به شهبندر ، لكانت حالنا على غير مانرى اليوم ، ولكنا شيئاً مذكوراً في العرف الدولي ، وفي مجالس العلم العالمي .

وقلت أيضاً : ان التاريخ لايكذب مهما دلّس المدلسون فيه ، والتاريخ سيذكر الدكتور شهبندر ويذكر غناءه وبلاءه ، موزوناً بميزان العدل والنصفة وسيقول إنه من خير من نبغ عند العرب في هذا القرن ، وإنه أحد أفراد قلائل فادوا بأنفسهم في مرضاة الوطن ، وأثبتوا أنهم كانوا شيئاً في الحياة ، لاكالذين دخلوا العالم وخرجوا منه لم يحس أحد بوجودهم .

ولا يحول حبي لشهبندر ، وتقديري لجهاده ، دون قول ماأعرفه من

اخلاقه ، بعقب السنين الطويلة التي قضيتها في عشرته . كان على مايظهر يحسن ظنه بمن يدهن له ، وهو لايستحق الا الصفع والدع ، لذلك كثر من خرجوا على رأيه ، لما تصادموا وخاب ظنهم او ظنه فيما كان يؤمل كل واحد من صاحبه . وينسى او يتناسى من كان مدحه بالامس فيقدح فيه اليوم ، يحسّن ويهجن في فترة قصيرة من الزمن ، شأن بعض رجال السياسة . وكان في شبابه لايرى لاحد مزية إن لم يكن خريج الجامعة الاميركية في بيروت ، حيث تلقى الدروس الثانوية ودرس الطب ، حتى ولو كان من عيار الامامين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري ، ويلهج بأن من لم يدرس الطبيعيات والرياضيات كما درسها هو لايحق له أن يمسك قلماً ولا ان يؤسس جريدة أومجلة اوينشر كتاباًاو غير ذلك من أعمال العقل . فطابع الاثرة كان متجلياً فيه تجليه في بعض من تخرجوا بالأميركيين الانجيليين .

كان بيانه في لسانه اوفر من بيانه بقلمه ، فهو اول خطيب فينا ، وقد يخطب في اليوم مرات ويجيد وهو في ارتجاله ابرع منه في تصنعه ، ويزيد خطبه امتاعا مادته من العلم ، ومعرفته تاريخ امته معرفة ندر ه أن يكتب لطبيب مثلها . وما كان بالكاتب الكبير ، وكتابته تعد من الدرجة الرابعة . ونظم بعض مقاطيع وقصائد في صباه ونشرها له الاستاذ كمفاير المستشرق الالماني في مجموعته ، فلما رأيتها منشورة الى جانب شعراء مجودين قلت : مالشهبندر والشعر ، وشعره ليس مما يروي ويتناقل ، وفي نشره دليل ضعف صاحبه في القريض والادب وأولى له أن يترك الشعر لمن كان في فطرتهم ، وتمحضوا له اعواماً أمثال خير الدين الزركلي وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب وخليل مردم بك وشفيق جبري وأمثالهم من شعراء الشام .

أما في التأليف فلم يؤاته التوفيق فيه ، وغاية ماأثر له مقالات أكثرها مترجم عن الانكليزية ، نشرتها المجلات ولا سيما المقتطف والهلال . ونقل في الكهولة عن الانكليزية كتاباً في علم الاجتماع ماأظنه فهم ماترجم وكذلك القراء بالطبع ، ولذلك طواه على غره ، وما أحب نشره بعد

أن طبعه . وله مفكرات عن الثورة السورية ، وكان من أكبر دعاتها ، طبع بعضها والمفيد منها مارآه بعينه . وليس له غير ذلك من الكتب لأن السياسة لم تبق له مع طبه وقتاً لوضع تآليف ممتع .

وكما أنه لم يوفق في التأليف ولا في الشعر لم يواته التوفيق في تأليف أحزابه ، لأنه كان متساهلا في تخير معاونيه وأنصاره ، يتخذهم كيف اتفق من الفريق الذي يعرض له بادىء الرأي . وقد يكون بعضهم من الزيوف والذهب الابريز الخالص قليل فيهم . وربما كان له ان يجيب من ينتقد عليه تسرعه في اختيار الأشخاص أنه يختار أعوانه ممن يراهم أمامه من الجمهور ، ويتعذر عليه أن يأتي بغير هذا العيار ، ومحال طلب صنف من الطعام غير مذكور في قائمة الألوان . وعلى هذا يمكن أن يقال إن توفيقه في طبه أكثر من توفيقه في سياسته ، وأعني بالتوفيق التوفيق الذي يطمح هو وأحبابه اليه مع أن اشتهاره بالزعامة السياسية أكثر من اشتهاره بصنعته الأصلية وهي الطب.

تعرض للنوابغ واصحاب العبقرية أحوال يستغربها أرباب البصائر . طلب شهبندر وهو في وزارة السيد هاشم الاتاسي — على ما روى لي زميله في الوزارة وصديقه وصديقي رضا بك الصلح ، ان يقرر مجلس الوزراء ابعاد اثنين عن الشام ، وبوجودهما لا تستقر الحالة السياسية ولا تستقيم . وأنا اخجل من القارىء ان أصرح له من هما هذان الرجلان المضران ، وكانا من اعز احبابه ، وليس بينه وبينهما إلا الصداقة ، وهما لا يعملان يومئذ في سياسة توافقه ولا تخالفه ، وكانا فقط إن أراد احد بهما السوء أحسنا الدفاع عن انفسهما ، وكان هذان الرجلان المضران صديقي وصديقه عبد الرحمن باشا اليوسف وأنا (العبد الفقير إليه تعالى) وإلى أين طلب إبعادنا ؟ توسل بنفينا إلى الحجاز ، رهن أمر السلطان حسين بن علي ، وبالطبع إذا ساقتنا حكومة ابنه فيصل على هذه الصورة ، لا يلقانا ملك الحجاز إلا بما يلقى أعداءه السياسيين فيدفعنا إلى سجنه المشهور خشية من سراية دعوتنا إلى رعاياه الآمنين المطمئنين . وسجنه لطيف وظريف ،

عبارة عن بئر تحت الارض عميقة جداً قد لا يخرج منها السجين سالماً ، وإذا كتبت له السلامة يبتلى بمرض أو أمراض لا يبرأ منها .

ولما سقطت هذه الوزارة الائتلافية وهرب شهبندر وأصحابه ، قلت رئيسها وقد جاء يودعني في داري : ليتكم نفذتم مقترح شهبندر بإبعادي وإبعاد عبد الرحمن باشا اذاً لأريتكم مقدار أنفسكم . فأجاب وهل رأيت هذا الاقتراح قد عمل به ؟ ومعنى ذلك أن شهبندر اقترح ذلك وما سمع له زملاؤه وأظنه لما خاب فيما بيته لي عاد في مجلس الوزراء فاقترح الغاء المجمع العلمي العربي ، وكان من قبل بضعة أشهر يود لو يكون عضواً فيه ، ويقول لي إني خدعت اوروبا بهذا المجمع ، فأقول له : أنا اجتهد لأفهمها اننا أمة ذات مجد قديم تتوفر الآن على احيائه .

ولما أنشأ شهبندر (حزب الشعب) ، قبل نشوب الثورة السورية ، اقترح عليه صديقي أسعد المالكي أن يعرضوا علي الاشتراك معهم فقال الدكتور : دعوه وشأنه هذا رجل يحب ان يعيش . قال أسعد : الحمد لله على ان عشت وكتبت (خطط الشام) ، وبعد نحو خمس عشرة سنة عرض عليّ شهبندر نفسه ان اشترك معه في حزبه الجديد (الهيئة الشعبية) فاعتذرت . وقد وقعت لي معه بعض أمور تدل على ايغاله في النسيان الذي يحمل ضرراً عظيماً له ولغيره « راجع فصل الجاسوس السافل من هذه المذكرات » .

طلب لي شهبندر أن انفى الى الحجاز مقهوراً ، وأن أنزل مكة مأسوراً ، والله أعلم إن كنت أعود من هـــذه الرحلة الشاقة الى وطني وأولادي ، ولما كان سجين قلعة أرواد تألمت لما حل به ، وتوسلت بكل الوسائل الى استصدار العفو عنه ، فكانت البرقيات والرسائل تكتب ويوقع عليها في داري ، وأنا موظف ومحظور على الموظفين الاشتغال بمثل هذه المسائل . دفعت الى هذا بدافع من حبي لشهبندر ، ولما تتقاضاني المروءة أن أقدم عليه ، ولا منّة لي في ذلك ، ولا نظرت أنه حاول الاضرار بحياتي ، بل أغضيت عما بدر منه ، وقلت إن العاقل لا يزهد في صاحبه بغلطة يغلطها ، أو ببادرة تبدر على لسانه ، وجل من لا عيب فيه .

ولما عرضت عليَّ « الهيئة الشعبية » أن أرأس لجنة تأبين شهبندر أجبت الطلب في الحال وفاء له ، وخرجت بذلك عن خطتي في عزلتي ، وأنا حيادي غير حزبي ، ولهذا النظر أتوا بي ولاعتبارات أخرى رأوها مجموعة فيَّ ، واشترطت ألا أخلط السياسة ببرامج التأبين فارتضوا بذلك ، وهيأت العمل على مايجب ، وصرفت في ذلك أكثر من أربعين يوماً ، زارني خلالها مرات من لا أحب أن أرى وجهه ، ولا يرى طلعتي ، واحتملت تعجيز من يحاولون الظهور على حساب شهبندر وحفلة تأبينه ، واستغلال اسمه ، واستثمار حزبه له ، واستثمار بعضهم لحزبه ، ولما تم كل شيء وفي آخر دقيقة ، وأنا أتهيأ الذهاب الى الجامعة مع أعضاء لجنة التأبين لأترأس الحفلة ارتأى أحد البارزين من أعضاء الهيئة الشعبية السيد زكي الخطيب أن ننقض ماقررته اللجنة من الاشارة الى بعض القصائد الرديئة والكلمات التافهة ، بدعوى ان اغفال أقوالهم مما يضر بحزبهم ، قال ومن الكلمات ماإذا صرف النظر عن تلاوته ، أو لم تتل كما كتبها صاحبها ، تخرج بها بلدة برمتها عن رأي الحزب ! فامتنعت من حضور الحفلة ، وما سوغت لنفسي أن أكون آلة للموتورين ، ولا تكأة للمشاغبين ، ولا أن أصير امعة يملي عليَّ ابن الخطيب ارادته .

عفا الله عن أخي شهبندر كان حركة دائمة في حياته وبعد مماته ، وكان ثورة كله ماحاد عن خطته ، وأنا كنت مثله طول حياتي ماحدت عن دعوتي الى الاخذ بمذاهب التعليم والتربية ، لاعتقادي بأن الامة في حاجة اليها قبل كل شيء .

لما انتهيت من كتب ماتقدم تساءلت كما كنت اتساءل عند كل اختلاف يطرأ بيني وبين من اشتغل معهم ، هل كان الحق ياترى معي في امتناعي من الخنوع لنقض ماتقرر أم أني لا أفهم وهؤلاء المشاكسون يفهمون

أكثر مني ؟ وقد رأيت أن معظم من اختلفت معهم خرجوا عن قانون العقل واحتقروني في باطنهم أن أرادوا استتباعي لتحقيق اغراضهم .

وشهدت في هذه المسألة أن من احتال لارضاء الصعاليك بالعبث بمقررات لجنة التأبين كان بعيداً عن الصواب بالنسبة لما جرى الاتفاق عليه وارتضوه من شروطي ، ذلك لأني ما كنت أعد أقوال من يراد تلاوة أقوالهم مما ينفع في تأبين الفقيـد العزيز ، وهل يوافق العقل على أن تلقى كلمـات لأفراد ماعرفوا بادب ولا بشعر ولا بسياسة ولا بشيء ، وما كانت غايتهم من الحاحهم في القـاء كلماتهم إلا حب الظهور والتبجح أمام الجمهور .

وكيف لعمري أطيق اشغال الوقت بالقاء كلمـات المغمورين الخاملين وأترك كلمات النابهين العالمين أمثال أصدقائي من أعلام مصر شيخ أطبائها الدكتور علي باشا ابراهيم ورئيس الوزراء محمد محمود باشا وعظيم وزرائها حلمي عيسى باشا ، وشيخ كتابها الاستاذ عباس محمود العقاد وشيخ صحافيها الاستـاذ عبد القادر حمزة باشا ورئيس مجلس شيوخها ورئيس نقابة محاميها الاستاذ محمود بك البسيوني ونابغة القانون فيها الاستاذ عبـــد الرزاق السنهوري وأضرابهم ممن تفضلوا وأجابوا رجائي وكتبوا في الراحل الحبيب ما كتبوا .

وأن لغفل أيضاً كلمات علماء العراق أصدقائي البررة الشيخ رضا الشبيبي وطه بك الراوي والشيخ محمد بهجة الاثري وابراهيم بك الواعظ الى غيرهم من رجال لبنان وفلسطين وشرقي الاردن ومنهم من كانوا من أتراب الفقيـد وعاشوا معه سنين ، وكلامهم حجة في الترجمة له أمثال العلمـاء الاجلة اصدقائي منصور جرداق وبولس الخولي وأنيس المقدسي ، هذا منطق لا افهمه وأرجوه لعالى ألا يمنّ علي بفهمه .

هزل ومزاح

كنت يوماً في انكلترا ، فلقيت في القطار انكليزيين يتضاحكان ، فقلت للترجمان قل لهما : إني أعجب من حالكما ، فقد كنت أعتقد في الشرق أن الانكليز بعيدون عن الهزل ، وكل امرىء جد ، وأنهم عابسون لأن أجواء بلادهم أبداً عابسة ، وضحكهم قليل لأن الطبيعة لا تضحك في أرضهم إلا أياماً معدودة . وقد وصفكم الفيلسوف الاميركي أنكم جزائريون Des insulaires منقبضون عن الخلق، تؤثرون الوحدة والعزوف عن المجتمع ، إذا رآكم انسان في فندق تجهدون ألا تمتعوه بالنظر الى عيونكم ، فلا يستطيع مجالسكم أن يقول شيئاً في سوادها وبياضها ، فضحكا وضحكنا .

وزارني في دمشق مرة أستاذان احدهما روسي من جامعة لينينغراد ، والآخر من عنصر انكلوسكسوني . وتحدث الي الروسي ، وتضاحكنا كما يتضاحك المتآلفون ، والاستاذ الآخر ساكت مقطب لا يبدي ولا يعيد .

فأحببت أن احركه على ثقل شهدته في دمه ، والتفت مخاطباً الروسي : قل لصاحبك هل من خدمة يطلب مني قضاءها ؟ كأخذ معلومات عن بعض المخطوطات ، أو الاجتماع الى بعض الشخصيات أو غير ذلك . فأجاب بعبوس : إني آت مع صديقي أرافقه ، وليس لي ما أسأل عنه . وهنا قلت له كلاماً استنتج منه اني اهزأ به ، وقال : قل للرئيس إن له شكلاً خاصاً . فقلت : نعم أصبح لي هذا الشكل بعد أن رأيت الدنيا مهزلة ، والممثلين في مسرحها هازلين ، ولذلك لا أزال أهزل وأضحك ، والحياة كما قال أحد كتاب الغرب فاجعة على من يشعر ، ومهزلة على من يفكر La vie est tragédie pour ceux qui sentent, comédie pour ceux qui pensent .

باغتني في بيتي زائراً بدون استئذان أحد محرري الفيغارو البارزية ، وكان يحمل سلاماً من بعض أصدقائي في باريز ، ويعرف عني أشياء منهم ،

ويحاول على ما يظهر أن يجمل مني موضوعاً يسلي به قراءه ، فقلت له في جملة ما قلت : إن سلطان المفوض السامي المقيم في سورية ولبنان أوسع من سلطان رئيس جمهورية فرنسا . ذلك لأن رئيس جمهوريتكم ممتع بسلطة محدودة ، أما المفوض السامي عندنا فسلطته واسعة النطاق ، ممتدة الرواق ، ومفوضنا يعين رؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات ، وينحيهم عند الاقتضاء . أليس من يعين رؤساء جمهوريات ويقيلهم ، أعظم من رئيس جمهورية ضيق السلطة ؟ فضحكت امرأته ، وضحك هو ضحكاً كالعبوس . وقلت له : إن سورية لتغتبط أن كان فيها سبعون الف في جبل من جبالنا يؤلفون دولة . أليس هذا من الارتقاء الغريب في هذا العهد ؟ وودعني على ان يلقاني من الغد ، وقال إنه سيعيد الي الصور التي دفعتها اليه ، فما بعث لي بما كتب ، وما أعاد لي شيئاً مما أخذ . وسأله احد خلاني عما كان من تأثير اجتماعنا فيه ، فقال إن الرجل هزأة يسخر من هذا الوضع ، سامحه الله على هذا الحكم الجائر ، ومن يسخر من هذا الوضع ؟ .

لا جرم ان الانكليز يصطنعون الوقار كثيراً ، وجرعة الفرنسيس منه أقل من جرعتهم ، وفي طبقة المشايخ ورجال الدين وعمال الدولة كثير ممن يصطنع التزمت والوقار . وقد احببت مرة ان اخرق الحجاب مع صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق (ويرجع عهد صداقتنا الى سنة ١٩٠٩ وهو يطلب العلم في باريز بعد ان نال شهادة العالمية في الازهر) وذلك عندما عهدت اليه وزارة الاوقاف المصرية في وزارة محمد محمود باشا . فكتبت اليه كتاباً اداعبه فيه ، فما اخذت جوابه ، ولما اجتمعنا اعتذر عن الاجابة ، وحفته العناية الآلهية بدخول احد ارباب المصالح عليه في مكتبه الرسمي ، فقطع حديثه وما عاوده ، وهذا كتابي اليه ، وليعذرني السيد مصطفى على نشره ، فأنا هنا من الهازلين ابتعد جهدي عن عمل المتزمتين ، وارجوه ان يعفيني من جده ، ويؤثر به مواطنيه المصريين .

اخي الاستاذ

الله احمد على ان رأيتك تتقلد الوزارة ، وتذهب بالقابها ، وتنوء باعبائها ، وتتمتع بما يتمتع به الوزراء من مظاهر . الله احمد على ان تساوينا بالقاب سبقتك الى التلقب بها مرغماً ، فما اخليتني عند كل فرصة ، على نعومة خصصت بها ، من تهكم مها لان ملمسه في الظاهر ، فهو كالضرب على ام الرأس .

كنت الى امس الدابر تضايقني بلقب المعالي والوزير ، فاذا لبست بذلة قلت إنها لا تليق إلا بالوزراء ، وإذا وضعت على رأسي طربوشاً قلت هذا من كسوة اصحاب المعالي ، فالشكر لمصرف الاقدار على ما ابتلاك بما ابتلاني به من قبلك ، وعسى ان تطول لك مدة هذا البلاء على نحو ما طال بلائي .

احمده واشكره على ان احياني الى زمن ادركت به ثأري ، وشمت بمن طالما شمت منه التنكيت اللاذع ، ولئن اكتفيت اليوم بهذه الاشارة لأحملن ، إن فسح الله في الاجل وهبطت مصر ، كل ما يحدثني المكر ان احمله للوزير صاحب المعالي ، وعندها ارد الصاع صاعين ، واشفى بما يشفي النفس .

وبعد فلا اكتمك ان الحسد دب هذه المرة الى قلبي دبيباً ما شعرت بمثله من قبل . دب لما شهدت اثنين من خلاني يدخلان الوزارة (الثاني الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١)) وقلت في نفسي : ولكم كان اغتباطي شديداً لو من الله علي فولدتني أمي في ارض مصر ، وأنا من المخالفين لحافظ ابراهيم في قوله رحمه الله .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

فان قوله هذا ابن العجز ووليد التشاؤم . أما أنا فلا أعتب على

---

(١) اتفق أن عاد الشيخ مصطفى عبد الرازق بك والدكتور محمد حسين هيكل باشا وزيرين للاوقاف والمعارف ايضاً في وزارة حسن صبري باشا فما رأيت أن أعجز ابن عبد الرازق بتهنئتي كما هنأته لما دخل وزارة محمد محمود باشا ، واكتفيت أن هنأته بقلبي ، ورجوت له التوفيق . ولما عهدت اليهما الوزارتان المرة الثالثة لم اهنيء اخي الشيخ مصطفى لا بقلبي ولا بلساني .

خالقي إلا لأنه لم يخلقني مصرياً ، حتى أحظى الحظوة التي أريدها من أبناء النيل وبنات النيل .

وإني لأعلم ، ولا خجل من الحق ، ان وزارة كالوزارة المصرية يؤلفها رئيس عاقل ، بإيماز ملك عاقل ، لا تشبه وزارة شامية ، يؤلفها ويسقطها ضابط صغير من ضباط الاستخبارات . وزارتنا وزارة متواضعة ، ليس لها من الروعة في الحقيقة ما لوظيفة مأمور المركز عندكم ، وإن قبل لكل من صاحبي البانيا وبريطانيا العظمى يا صاحب الجلالة .

كلمة جد أقولها لوجه الله : إني اهنيء الوزارة بك ، وأنت في نظر من عرفوا فضلك وخلقك أعظم من الوزارة . ورجائي أن تدوم لك الصحة لتقوى بما عهد فيك من حزم وعزم على اصلاح وزارتك ، فهي أكثر الوزارات احتياجاً الى الاصلاح ، عرفناك يا حبيبي الاستاذ مصلحاً مجدداً ، فهل لك أن تنفذ خططك في التنظيم ، لننجو من اتهام الغريب ايانا بالعجز المطلق ، حتى في تقويم ما اعوج من أوضاعنا الخاصة ، ولو أتيناها بأفضل رجالنا يعالج شؤونها .

أما بعد فان التبعة عليك عظيمة ، فاعرف ، دام توفيقك ، كيف تقدم للعقلاء حسابك يوم مفارقة منصبك . ولا برح طير اليمين والبركة يرفرف عليك وعلى آلك .

ووجهت رتبة الباشاوية على الشيخ مصطفى عبد الرازق بك أولاً وباشا ثانياً فكتبت اليه يوم ١٥ المحرم ١٣٦٠ و ١١ شباط ١٩٤١ ما نصه .

سيدي الاخ الحبيب .

وقع احسان جلالة المليك المحبوب بتوجيه رتبة الباشاوية عليك موقعاً حسناً في قلب الداني والقاصي . وتساءلت عما تكون حالة الاستاذ في مظهره الجديد ، وهو الذي ما كان يرضى عن التلقب بالشيخ بديلاً ، وقلت ها قد اتصل القديم بالحديث ، وجمع أخي العظامي الى العصامي ، فطاب الأصل والفرع .

والمهم في هذا الباب ألا تقيد اخوانك بلقب الباشا كل حين ، لتطلق لهم حرية التلقيب ، ولو الى أجل مسمى ، من شاء أن يطلق عليك لقب شيخ تبسم له كما تبسم لمن يناديك يا باشا . وهذا لا يضرك ما دام لقب شيخ يولي الملقب به صفة رجل دين ، ولقب باشا يومئ الى أن صاحبه رجل دنيا ، والرجل كل الرجل هو الذي اسعده الله في الدارين « ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا » .

إذا تقرر هذا فلا حرج إذاً على من يلقبك في المجالس الخاصة بلقب شيخ ، حتى إذا كنت في الأندية الرسمية خاطبوك بالباشا . وبالنعت الاول يذكرونك بمجدك القديم ، وبالثاني بمجدك العظيم . اعمل ولا تبال الناقدين ، وأنت تذكر ما لقي شقيقك علي بك من مرارة التخلي عن لقب شيخ ، وكيف ندبه ورثى العمامة . وتفضل وأسأله هل يعاقب القانون من يسبقه لسانه الى تلقيب مخاطبه عن غير عمد بما لا ينطبق على ما يرضيه من كل الوجوه . فقد شهدت خصومات شديدة نشبت بين أناس أطلقوا على صاحبهم لقب (افندي) وهو يحرص على أن يخاطبه قومه بلفظ (بك) وعندي أن ليس ما يمنع من اتباع لفظ الباشا بشيخ أو الشيخ بباشا ، وإن قلّ ذلك في مصر ، فالملقب أيضاً قليل أمثاله في المصريين .

هذا على شرط ان تنبه على الحافين بك من أتباعك وخدامك ألا يلوموا من يغلط من أحبابك عندما يقول لك يا شيخ ، فان عادة اعتدتها أنا معك ثنتين وثلاثين سنة مثلاً يصعب عليّ نزعها بين عشية وضحاها ، خصوصاً والشيوخ مثلي هم من المحافظين على الأغلب ، وحافظتهم قد تخونهم ، وليست كذاكرة الشبيبة والكهول .

هـذه مشكلتك بالباشا مع نفسك ومع الناس ، بقيت مشكلة أخرى تحتاج أن يبت بها في حدود العقل ، وأنا المستهدف لها أكثر من غيري ، فيما يستقبل من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية ، هذا إذا انفسح الأجل وشهدت جلساته ، وإلا فالاجتماع في سدرة المنتهى عند جنة المأوى .

في علمك أيدك الله أنه كان في الأعضاء القدامى (باشاوان) فأصبحوا اليوم بمن ضموا اليهم من اخوانهم الحدث ثمانية ، عدد أبواب الجنة ، وربما لا يطلع فجر العام المقبل حتى يصبحوا عشرة مبشرة باللغة وأدبها ، اللهم زد وبارك ، أي يكون نصف الأعضاء من ساداتنا المصريين في هذا المجلس العلمي من الباشاوات ، فماذا تكون معهم حال أناوي مثلي يا ترى ؟ وهو ما تشرف حياته برتبة ولا تحلى بلقب ، وقصاراه من دنياه ، أن تتكرم عليه أرضه بلقب (سيد) كلمة نطلقها على راعي البقر وراعي البشر سواء.

الله يحب الحق ، إن روعة لقب باشا دونها كل روعة في الألقاب ، على نحو ما كان في الغابرين لقب شهاب الدين ، وكل لقب كان فيه (الدين) ومهما قيل في ثقل ظل بعض من يطلق عليهم لقب شيخ فانه ينطوي على معان جليلة محببة الى القلوب . أما كلمتنا التي استأثرنا بها وهي السيد فما زلت أقلبها على ألح فيها ما لفقوا لها حتى أخرجوها عن أصل معناها ، وأخذوا منها معنى السيادة ، فلا أهتدي الى وجه في التعليل . ويؤلمني أن اسجل هنا أن السيد ككيس هو المسن من المعز أي التيس والجمع تيوس كما في القاموس .

والغالب أن واضعي اللغة كانوا يوم ايجادهم معنى التشريف للسيد في ظرف كالظرف الذي وضع فيه المجمع اللغوي لفظ (فنان) لارتيست . والفنان في الأصل (حمار الوحش) . وغفر الله لأخي الجارم كم حرص على اقرار هذه اللفظة حتى خشيت يومئذ ، اذا لم يقر المجمع كلمته ، أن ينتهي الأمر بحدوث أزمة مجمعية ، كما تحدث ، وقاك الله ، الازمات الوزارية . ورأيته مغتبطاً لما وافقه اخوانه على اطلاق اسم حمار الوحش على المصورين والمصورات ، والشاعرين والشاعرات ، والمسمعين والمسمعات ، والراقصين والراقصات . وما أدري هل كانت بينه وبين هذه الفئة الجميلة طائلة من الطوائل ، وعهدي به ابن الشعر وربيب الأدب ، غير مطعون عليه في سلامة ذوقه .

التمس عفوك لاشارتي الى معان كان الأولى أن أصون كتابي عن التعرض لها ، ولكن هل نحن ، رعاك الله ، إلا في صدد مجمع لغوي ، ولا حياء في الدين ولا حياء في اللغة . وأسأله تعالى أن يجنبنا مصارع السوء ، دعاء أدعو به في كل ممسى ومصبح ، منذ قرأت ما قاله أحد علماء الأمراض العقلية من أن ثلاثة أشياء تورث الجنون ، العشق ، والتعمق في اللاهوت ، والبحث في اصول اللغة . وسلام عليك وعلى رصفائي المشايخ والباشات .

فأجابني الأستاذ بقدر ما تسمح له رتبته ومرتبته ومما قال : « ثم ابادر الى الاجابة عما تساءلت عنه من حالي في مظهري الجديد ، ولو رأيتني لما رأيت مظهراً جديداً فانني لاأزال شيخاً معمماً يؤكد أسباب مشيخته اشتعال الرأس شيباً ، ولا يهولنك يا صديقي ما تقدر من روعة اللقب ، فما تخفض الألقاب حراً ولا تسمي ، على حد قول الباشا البارودي ... » وانتهى الاشكال ، والحمد لله على كل حال .

هذر

دعاني رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسني لتناول الطعام على مائدته لتكريم الاستاذ محمود عزمي من رجالات مصر ، وكان معنا الآنسة فلك طرزي وثلة من الوزراء والامراء منهم قائد الثورة السورية صديقي سلطان باشا الاطرش وأمير من أمراء العراق ورأيت القوم ساكتين كأن على رؤوسهم الطير مؤثرين الخضم والقضم عن الكلام والمؤانسة فافتتحت الحديث موجهاً الخطاب الى صديقي عزمي بك ، فقلت له ان الآنسة طرزي افتتحت موسم محاضرات السيدات هذه السنة في ردهة المجمع العلمي العربي وتابع زميلاتها محاضراتهن بعدها ، وهذه أول مرة يستقل السيدات بالقاء المحاضرات على بنات جنسهن ، وكان الرجال من قبل يتولون القيام بهذه المهمة . فقال الرئيس لقد نجوت من المشايخ . والتفت الى ضيوفه وقال لهم إن جميع مشايخ دمشق يخافونه ، فاجبته ولكن في دائرة العدل والمنطق ، فاني ورصفائي نعلم الناس ونراقب بانفسنا مانقول وما نكتب ، والمشايخ في حل منا مالم يتحرشوا بالمجمع العلمي فاذا فعلوا أخرجت لهم مساويهم ، وأنا من أعرف أهل البلد بها ، واذا التزموا السكوت لا أتعرض لهم . فقال سلطان باشا كلاماً يمدحني به على خدمتي المعارف وعلى ماألفت من الكتب . فقلت له : ياباشا اسمع مني ، أنا خدمت الامة مقابل أجرى ، واعطتني فوق ما استحق ، وأنت خدمتها خدمة عظيمة فماذا كافأتك ؟ ياباشا لاتؤاخذنا نحن امة لاتقدر الرجال اقدارهم ، ولو كنا نعرف للمحسن احسانه لاقمنا لك تمثالا في كل بلد . والتفت الى ضيفنا العزيز وقلت له بالفرنسية ان هذا الرجل الذي يقرظني هو أشرف رجل فينا ، بل هو مثال الشرف . وبالطبع لم يرق هذا الكلام صاحب

الدعوة ، ولعله كان يريد ان أقول له إنه هو الذي نفع سورية بما لم ينفعها أحد قبله . وشتان بين من يعمل لمحض خير الامة ، ويهون عليه ذهاب ماله وخراب قصوره في سبيل قوميته ووطنيته ، وبين من يكاد لا يفكر حياته في غير مصلحته .

قالت لي ابنتي الكبرى مرة اني أعرف ان فلاناً من أصحابك وانك تحبه وتعرف له قدره ، فقلت لها : حق ماتقولين ولكن الرجل لايحب إلا نفسه على مايظهر ، ولا يشتاق لاحد ، وقد اتغيب عنه مدة فلا يسأل عني ، هذا مع الاعتقاد بانه يحبني ويجلني ، وقد كان ابوه على شاكلته مع عشرائه واحبابه ، وعاتبني ذات مرة على انقطاعي عنه ، فصارحته بمعاملته لاخوانه ومعارفه ، وكان يريد أن يزار ولا يزور ، واذا زار فبدافع قوي جداً ولا يسأل عمن غاب ، ويريد أن يشخص الاهلون الى مجلسه أبداً . فاجابتني البنيّة عجيب وهكذا نساء هذه الاسرة ، اذا اجتمعت اليهن أظهرن كل لطف وشوق ، واغيب عنهن مدة طويلة فلا يسألن عني ، وكثيراً ما افاتحهن بهذا الاهمال اذا اجتمعنا بالعرض ، فيعتذرون ويطلبن بالحاح العودة الى تبادل الزيارات . النساء كالرجال والفروع كالاصول .

تألفت وزارة في عهد من العهود دخل فيها أحد أصدقائي فشخصت اليه اهنئه في مكتبه ، وكان في جواره مكتب أحد رصفائه في الوزارة فرأيت من اللياقة أن أزوره أيضاً ، وهو من معارفي ، ومشهور باستقامته ونزاهته ، فتهلل كثيراً لزيارتي له وما كان بيننا تزاور من قبل واتتني منه بعد أيام بطاقة مطبوعة بالمطبعة على مثال النشرات التجارية التي ترسل لكل انسان يشكرني على تهنئته بالوزارة باللسان الرسمي الجاف . فقلت لصاحب لي كان إلى جانبي : ان الرجل لايعرف الواجب ، فان هذا المنشور العام قد يجوز ارساله لاكثر موظفي وزارته وغيرهم من عامة القوم ، ولا يرسل لأصحاب المقامات ، ومهما عظم الرجل في بلد كبير

لايخلو فيه من عشرة أشخاص هم أعظم منه سناً وعلماً ومقاما ، فعليه مع مثل هذه الطبقة أن يسعى بنفسه الى اربابها لا أن يكتفي بالبطاقات عن رد الزيارات ، وعليه أن يعاملهم بالمثل على الاقل إن لم يجب أن يزيد في اكرامهم . ودارت الايام وتقلبت بالرجل الاحوال عزلا ونصباً فما زرته بعدهـــا ولا سلمت عليه إلا السلام البسيط وذلك إذا لقيته عرضاً في شارع أو مجلس .

مسألة اعطاء كل انسان حقه من الخطاب والألقاب مسألة دقيقة ، فما كل من مسك القلم كتب كتابة مقبولة ، لتستوفي غرض مرسلها وترضي المكتوب اليه ، فان ما يخاطب به الصغير لا يخاطب به الكبير ، وما يقال لزيد من العبارات لا يقال لبكر .

لما فقدت قرينتي جاءتني من أصحابي تعزيات كثيرة فأجبت كل واحد جواباً غير جواب الآخر ، فاستغرب هذا مني من اطلع على رسائلي ، فقلت له إن الاصدقاء درجات ومن عزوني من طبقات مختلفة ، وتختلف درجة صداقتي لشخص عن شخص ، وكلهم بحسب الظاهر صديق وحبيب ، ولذلك وجب ان يكتب لكل واحد بما يناسب علاقتنا وصداقتنا ، على ما يقضي بذلك الذوق ثم العرف والعادة.

عزيت مرة أحد أصدقائي البغداديين بوفاة أبيه ، وكان ذا منزلة رفيعة في نفسي وفي نفوس العرب ، وابنه في منصب كبير ، فكتبت له كتاباً بخطي ودفعته الى رئيس ديوان الوزارة ليقرأه فاستحسنه ، ولم نرد ان يكتب على الآلة الكاتبة بل ابقيناه بخطي زيادة في التكرمة ، وجاء الجواب بعد مدة في نشرة مطبوعة زاد المعزّى في آخرها بضع كلمات ظنها وفاء حقي في التعظيم ، فدفعت الجواب الى رئيس الديوان فاستغرب صدوره من رجل تناول مثل ذاك الجواب اللطيف ، واجتمعت بصاحبي هذا بعد حين وآخذته على كتابه وقلت له كان عليك ان تكتب بنفسك وبعبارتك وخطك جواب تلك التعزية ، او تعهد الى كاتب تلقنه فكرك فيعبر عن رأيك اصدق تعبير ، ويكتب لك ما تريد انت لا ما يريد هو . اما انا فقد كتبت بقلبي وعاطفتي

وانشائي ، وما كنت موظفاً في ديوان من دواوين وزارتك ولا عاملاً في ناحية من ارجاء دولتك ، وقد تحتاجني انت ولا احتاجك ، وصداقتي لك قد تنفعك وصداقتك لي لا تنفعني ولا تضرني . كانت عبارتي قاسية ، وهكذا جاءت ، ومن ادب صاحبي ان سكت وراعى حقوق الأخوة . وما رأى ان يوسع شقة الخلاف ، بعد ان تجلى الحق تجلياً لا مجال للمماحكة فيه . وما كنت أؤاخذه هذه المؤاخذة لو لم أكن على مثل اليقين انه ممن يعقل ولمظم التبعة على عظم فهم صاحبها ، وصاحبي هذا كان غاية في التهذيب والأمانة والسراوة ، جل من لا يسهو ولا يهفو .

واذكر اني لما زرت الأندلس ، ارسلت الى اصحابي في الاصقاع العربية بطاقات بريدية من غرطانة عليها صور العاديات الاندلسية ، وكتبت على كل بطاقة سطراً يخالف بلفظه ومعناه ما كتب على البطاقة الاخرى (واظن كان عدد البطاقات مائتين وكسراً) . ذلك لانه كان من المرسل اليهم الاستاذ المبجل والصدر المحترم والصديق الذي تجمعني به عدة جامعات ، ومنهم القريب والنسيب . وكان لما ارسل وقع عند المرسل خصوصاً لمـــا قابل بعضهم ما بعثت اليهم من العبارات .

عزيت وزيراً مصرياً بعزيز عليه فأتاني الجواب بخط احد كتاب الوزارة على ما يظهر يحمل يبوسة الرسميات ، وما اظن الوزير كتب ذلك ولا أملاه ، وإنما هو من صنع كاتب صغير في الوزارة اعتاد ان يكتب هذه الكتابات الموجزة لصغار الموظفين عندهم ، وغلبتُ حسن الظن وقلت في نفسي لأشك ان الوزير وقع هذا الكتاب بدون ان يقرأه ، وكثيراً ما تجيئني مثل هذه الرسائل الرسمية الجافة فألقيها في سلة سقط المتاع ولا اعود إلى مراسلة صاحبها وكنت اذا اضطررت الى مراسلة بعض العظماء ممن لهم علاقـة بالمجمع العلمي العربي او بوزارة المعارف اترك الرسميات واكتب كتاب الاخوان ، حتى لا أساق الى استعمال اليبوسة الرسمية ، وتقصر مصطلحات الدواوين عن وفاء حق المكتوب اليه . ومما عاهدت النفس عليه الا اكتب

لكبير ، وهو على راس منصبه ولو مات كل اهله ، او قامت الافراح في جميع بيوتهم ، حتى لا يحتفي بالجواب مكتوباً بيد خرقاء ، وله من ضيق وقته إذا اراد الدفاع عن نفسه مايبرر موقفه مني ، ومع أني ممن لايرغب في لمظم الناس بمضهم بمضا اكره من يكتب لي بما يكتب لكل انسان ، واذا تممد الكاتب ذلك ، والغالب انه لا يتممده ، فاني اعده قد هجاني فاقطع صلتي به ، وهذا ولا جرم ضرب من ضروب الضمف البشري ، بيد انه مظهر من مظاهر عزة النفس وحب الكرامة ايضاً ، وله نظائر عندالمدنيين ، واشياع كثيرون في الاقدمين والمحدثين ، ومن عاملك معاملة تشعر باحتقارك يدعوك الى تحقيره ، ويضطرك الى ان تخرج عن تواضعك لتناقشه في منزلتك ومنزلته وإذا اظهر قحة قد يكلفك غير أخلاقك ،

الامير عمر طوسون

فقد الاعزة

هبطت مصر أواخر سنة ١٩٤٤ وكنت آمل أن أهنأ بالاجتماع الى أحبابي ، وأنا أشتاقهم سنين ، فعلمت أن رئيس بمكوكتنا الأستاذ وحيد بك الأيوبي اصيب بفلج منعه من الكلام ، وأنه كلما عاده أحد أحبائه بكى وأبكاه ، فأشار أحد الأحباب اليّ أن الأولى ألا أعوده لئلا أشق عليه ، ثم نعي اليّ أستاذان عظيمان من أصدقائي محمد رياض باشا وجعفر ولي باشا ، وما هي إلا أيام حتى نعي صديقي رجل الاسلام ومصر الأمير عمر طوسون . أربع مصائب في أيام قليلة ، وكلهم على صفات ممتازة من العلم والأخلاق والاريحية .

حدثني الوزير المصري حمدي سيف النصر باشا قال قضيت في السودان ضابطاً نحو أربع عشرة سنة وكنت وكيل الامير عمر طوسون في بعض شؤونه هناك ، ولا سيما في تربية بعض النابهين من أبناء السودانيين ، وقد علم منهم على نفقته الخاصة خمسين شاباً التعليم العالي . قلت له : وهذا عدا ما أنفقه من الاموال في خدمة القضية السودانية ، وانشأ المدارس والجوامع والمساجد في السودان ، الى آخر حسناته هناك وهنا ، ولا اراني مبالغاً اذا ادعيت أنه لم يخدم مصري قطراً غير قطره بأجل من خدمة الامير طوسون للسودان كما خدم مصر والاسلام بماله وقلمه وجاهه ، والأمير لا يعرف الا الخير ، وما تعرف الى غيره ، صرف فيه ماله ووقته . وحدث مرة ان مدارس العروة الوثقى ، وكان الامير رئيس مجلس ادارتها ، كادت تقف في أزمة مالية من أزمات مصر الشديدة ، فقرر مجلس ادارة الجمعية اغلاق ابواب مدارسها ، ريثما تنفرج الأزمة ، فما رضي الأمير عن هذا القرار ، واقترض في الحال مبلغاً من المال أمد به الجمعية ، وكان الأمير يومئذ مضيقاً أيضاً . ولا أذكر أن ثروة عظيم في الشرق أنفقت على أعمال الخير مثلما أنفقت ثروة الأمير عمر ، ولا عرفت رجلاً دأب على خدمة قومه أكثر من خمسين سنة بمختلف الطرق

أ كثر من الأمير عمر . وأظن من سيقرأ هذا سوف يعطيني الحق في حزني على هذا الأمير لأنه فذ العرب بأخلاقه وعلمه .

كنت أسمع بالأمير عمر طوسون وانه عالم الأمراء دؤوب على نشر العلم وفعل الخير ، وكنت أعجب بما كان من بلائه في الحرب الطرابلسية وغيرها ، وما كان لي شرف الاجتماع به ولا شرف مراسلته . ولما فجعت بأخي احمد كرد علي محرر جريدتنا « المقتبس » بعث الأمير يعزيني تعزية لا أرق منها ، ويذكر لي مناقب شقيقي وحسن خدمته للأمة العربية فانظروا الى هذه الاخلاق الشريفة يعزيني ومقامه مقامه ، وأنا لم أتشرف بعد بالاجتماع اليه .

نعي العظيم يقع موقع الألم العظيم من النفس ، فما بالك اذا كان الرجل الى هذا صديقاً براً ، عرفته وعرفك فتمازجت روحك وروحه ، ولا يستغربن اذا كان تأثرك لفقد مثله اكثر من تأثرك احياناً لفقد القريب ، ولطالما أحدث موت العظماء ثلماً في بناء الامم ، وما كل يوم تنبت الارض رجالاً من الصنف العالي كعمر ورياض وجعفر . فقد الصاحب العزيز من أكبر المصائب ، لايسلي شيء عنه من امور العالم .

دخلت على والدي في احدى المشايا قبل نيف وخمسين سنة وهو جالس في ثوبه يستعد لاستقبال سماره ، فرأيته متجللاً منقبض الصدر خلافاً لما اعتدت ان اراه ، فسألته عن سبب كآبته فما احار جواباً . ولما الححت عليه قال لي : إذاً خذ هذه السبحة واحص مي الاسماء التي اوردها عليك . فاخذ يورد علي أسماء منها ماسمعت به ومنها مالم اسمع ، حتى اذا قلبت ثلاثمائة حبة من حبات المسبحة وهو يقرن كل اسم بلقب (شيخ او افندي او آغا او سيد او بك او باشا) قال : كفى يابني هؤلاء اصدقاء والدك طوتهم الخرسا (يريد الارض) واصبحت انا بعدهم غريباً في هذه البلدة ، اليس من حقي ان انقبض ؟ اما انا فاكبرت منه هذا العاطفة واعجبت بذاكرته التي أحصت هذا العدد الدثر من الموتى في ساعة وبعض ساعة . سبحان الباقي بعد فناء خلقه .

المصريون والسوريون

بعض العرب يتهم المصريين بقلة العناية بجيرانهم سكان الاقطار العربية ويقولون ان لسان حال المصريين أن واجب غيرهم أن يعرفهم وهم غير ملزمين أن يقابلوا المعرفة بمعرفة لان لهم من ارتقاء ما لا يحتاجون معه الى غيرهم ، ويهمسون بينهم أن من هبطوا مصر في أواخر القرن الماضي ما كانوا سلماً على مصر ، وان كل من ينزلها اليوم ونزلها أمس لايقصد غير الانتفاع بها وربما انتفع بضررها ، وفي العادة ان يطمع في الغني بما لايطمع بالفقير ، ولذلك كان ادلال الغني على الفقير . وما يصدق على الفرد الى حد قليل لا يجب أن يطبق على الجماعة . وحال هؤلاء يستلزم روابط محكمة وأن ينظر الى الامور أعلى من نظر الأفراد .

ليس من ينكر على الشعب المصري كرمه وأريحيته ، يتمثل ذلك في الطبقتين الدنيا والوسطى ، وبعض أهل الطبقة العليا أيضاً ، ويدخل فيها أرباب الرأي والثقافة ، وهؤلاء ينظرون الى هذه المسائل غير نظر الكثرة الغامرة ، فان منهم من لشيعوا بروح الاقليمية ، فوهموا أن في مصر كل شيء فلا داعي لأن يعنى أهلها بأمور غيرهم ، ولا أن يأخذوا شيئاً عما سواهم ، لأنهم سبقوهم وبرزوا عليهم ، والاشتغال بما لا يجب الاشتغال به مضيعة للوقت والمال ، والكامل لا يأخذ عن الناقص ، والعالم لا يقتدي بالجاهل ، وهذه القاعدة لا تطرد اذا أنصفنا ، فليس كل من ولد في مصر يكره من لم يولد فيها .

وترجع هذه النفرة في الجملة الى عاملين الأول ما كان من ضرر بعض هذا الغريب على مصر لما استعان به الحاكم في مقاصد تخالف مقاصد الوطنيين ،

فكان عيناً وعوناً لأعدائهم عليهم ، والثاني جهل الأصيل بحال النزيل أو الدخيل ، فالأول لا يعرف عن الثاني شيئاً يصح به اصدار حكمه على مجموعه ، فان أمثال من يشكون منهم توجه اليهم من مواطنيهم مثل هذه الشكوى ، وسيرة المتجرين بالدناءات لا تحمد في أمة من الأمم . ويشكو المصري الى ذلك من تصرف ذلك المرتزق في التجارة وغيرها . وهذه الشكوى تتناول الدخيل من الأجانب ، والدخيل العربي على كل حال أقل شراً من أكثر الدخلاء . ومن جهل بعض المصريين في الدهر الغابر أن كانوا يعتقدون أن سكان الشام غير مسلمين ، والمسلمون منهم عبارة عن أولئك المتشردين والمهربين ، وبالاختلاط عرف المصريون سكان الشام غير المعرفة الأولى ، وأدركوا الطبقات التي تعطف عليهم ، والطبقات التي لا تهم الا لاملاء جيوبها من خيرات مصر ، وتخدم على العمياء كل من يفضل عليها .

وتقدم الدخيل في دواوين الدولة المصرية ، واغتنم المتجرون فرصة انتشار الأمن وعدل القضاء ، فتوسعوا في متاجرهم ، وهم من أكثر العارفين بطرق الكسب ، فأفلحوا وملكوا الأرضين والعقارات ، وعمروا القصور واغتنوا بنشاطهم واقتصادهم ، وبمنافستهم للغريب والقريب . ومصر مبتلاة بالغريب من أزمان طويلة لا تعيش وحدها مهما بلغ من غناها وعلمها ، ومهما دلت به من مركزها ، ومهما وضعت العراقيل في طريق المهاجرين اليها ، فالقوانين الطبيعية لا يتغلب عليها قانون ، ومصر في الواقع تقوى بمن ينزلها وتمصره تربح منه ويربح منها .

والخوف اليوم من أن مصر قد تضطرها أحوال الأقطار المتحدة معها الى الانفاق عليها غير وارد فان للاقطار الاخرى مواردها وهي غنية أيضاً تستطيع أن تقوم بأود جيش وحكومة كما هي الآن وكلما حسنت ادارتها ارتقت اقتصادياتها وقويت معنوياتها .

يزيد اختلاط مصر بالأقطار العربية اليوم بعد اليوم ، وكان هذا التمازج مقصوراً على الشام ومصر فتناول اخيراً العراق وجزيرة العرب

الوحدة العربية عند كرد علي

وبعض شمالي افريقية ، ويزيد هذه العلائق احكاماً تلك المؤتمرات الطبية واللغوية والثقافية والهندسية والاثرية والحقوقية والسياسية والاقتصادية والنسائية التي تعقد في مصر والشام والعراق والحجاز في كل سنة فيتعرف بذلك عشرات من أهل الرأي والعلم الى رصفائهم في مصر ، وكلما كثر تعرّف هذه الشعوب قوي الأمل في تحقيق أماني العقلاء في الوحدة العربية الشاملة.

ومن أهم العوامل في تمازج العرب ان يشخص أهلها في كل داع الى البلد العربي المجاور يتجرون ويسكنون ويصطافون ، وعليهم أن يتبادلوا الأساتذة فان الرجل الراقي اذا نزل على قبيل كان بالضرورة واسطة تعارف ، وصلة من صلات الوصل الجميل ، بين من أتت عليهم أزمان وبلدهم مفصول جسماً وان لم يفصل روحاً عن بلد جاره . ومن أهم ما يجب على المدارس تلقينه أن تدرّس بعناية تاريخ كل قطر دراسة واسعة بحيث يكون لتعارف صغار العرب بهذه الدروس مقدمة الى اختلاطهم ببني قومهم متى كبروا . والحكومات في بعض الأدوار كانت السبب في قطع أوصالهم ، وقد زالت هذه الموانع اليوم ، وتحتم على كل عربي أن يشارك بهذه النهضة ما وسعه أن يشارك ، وليس عندنا ما يقال الآن للشعوب العربية الا قولنا : تعارفوا وتعاطفوا ، فالتعارف رأس كل اتحاد والتعاطف روح كل اجتماع .

بعد الفترة

انقطعت نحو سنتين عن متابعة التدوين في مذكراتي لما عراني من دهشة الحرب على نحو ما عرا العالم جمعة . وغريب ان أدون وأنا أشهد موت القرائح وجدب الأدب ، وانقطاع تبادل الافكار بين الغرب والشرق . قُطع بين كل قطار وقطار ، وتعذر السفر في الجو او على اليابسة إلا بقيود ثقيلة ومراقبة شديدة ، وذلك حتى في حدود بلدين متقاربين ، اما السفر في البحر فتعذر إلا من الاجواء البعيدة عن الخطر قليلاً ، وملت الآذان سماع الأخبار لما تحمل من دعايات ، وما يتخللها من مبالغات ، واشتاقت النفوس الى العلم المجرد الذي كان يفيض من الغرب قبل الحرب ، وود الشيوخ لو طالت اعمارهم حتى يروا طلعة السلام في العالم وما اسفر الحرب عنه ، وها قد دخلت الحرب في الربع الاول من سنتها الخامسة وتمضي عليّ أيام لا أمد يدي الى المذياع التقط منه خبراً من الاخبار ، وإذا اتفق ان قرأت صحيفة سياسية فقراءة عنواناتها تجزئني على الاغلب ، إذ كل ما يكتب يراقب ، وكل ما يراقب تكثر الظنون في الحكم على صحته ، وكل قول يحاسب عليه قائله .

وصدق الجنرال كاترو وهو يعرفني إلى اركان حربه بقوله ان صاحبي هذا شهد مثلي الحربين الحرب العالمية وهذه الحرب . وأنتم سعداء لأنكم لم تشهدوا إلا الحرب الحاضرة . ولعله يريد أني كنت مثله من شهود شدتين على البشر ، أما انا فقد شهدت ثلاثاً فكنت من شهود الثورة السورية عامين ، دع حروب الدولة العثمانية كحروب اليمن وحروب جبل حوران وحرب الارمن وحرب طرابلس وبرقة وحرب اليونان والبلقان وغيرها وربما كان مجموع سني الحروب التي أدركتها أكثر من عشرين سنة .

طال تمويهي على نفسي هذه المرة لأجلب اليها السلوى فما أفدت شيئاً ، وكنت يعلم الله شبه سجين مرفه عليه تراقب حركاته وسكناته وترسل العيون عليه لترى ما يقول وما يفكر وما يعمل ، وينظر في كتبه اي تراقب حتى يسمح له بقراءتها أما ان يكتب وينشر ما يريد فهذا مرام دونه حدَد. ولولا ان كنت افزع ثلث ايام الشهر الى القرية ثم سكنتها لابعد عن حركة القصبة واخبارها وآلامها لزدت غماً الى غمي وهماً الى همي ، وكنت اشغل النفس في جملة ما أشغلها به بموضوعات ما كنت استحب ان أطرقها لاعتقادي بأن غيرها أفيد منها كبحثي في غوطة دمشق وتاريخها وطبيعتها وأدبها ولهجتها ، وككتابي مختصراً في وصف دمشق وتاريخها وحاضرها ، وكتدويني لمذكراتي السياسية وغير ذلك وان قال بعض النابهين ان هذا من اهم ما تجب معالجته .

إي وربي اصبحت أتألم لسماع تلك الاغنية المحزنة التي لم تتبدل يوماً واحداً منذ أكثر من ألف يوم . قتل وجرح وأسر ونسف وقذف واغراق واحراق ، وقائع يرمضني سماعها ويزيد في ألمي كلما ذكرت من يقتل كالبحارة والطيارين والضباط وأمثالهم ، وأقدر لنفسي عدد من يقضى عليهم باليتم من الاطفال والترمل من النساء ، واقدر في باطني العيون تبكي كل يوم . هذا فقد ابنه ، وهذه مات وحيدها ، وتلك هلك ابو مثواها ، واولاد خسروا من يكدح لهم . وتألم نفسي هذه الايام أن ارى الاخلاق تفسد ، والصدق يقلّ ، والفحش يزيد ، وألا يرى معظم السكان حرجاً في الكذب والسرقة والسفاهة ، وغدا الانسان اشرف المخلوقات لا قيمة له الا بقدر مايستطيع ان يقتل أخاه في الانسانية . وفي الحروب ترتفع أسعار كل شيء وترخص قيمة الانسان .

أنا هنا لا ألظرف ولا أتلطف ، وإنما هي خواطر نفس ابديها ، وحقائق ابثها لا أكاد اخفيها ، ولطالما حاولت ان احسن الظن بمستقبل الانسانية ، فما هي إلا أيام حتى يظهر هذا الناطق المتمرد بمظهره الحق ويكتسي كسوة

الهمجية ، وليس هناك من يفكر في حرام او غبن اذا كان في الحرب لصحيح الحدود بين دولتين واستئثار واحدة بارض كانت لغيرها ، وسر الحرب اليوم استئثار احد الفريقين المتحاربين بالسياسة العالمية ، ومن قبض على قيادها قبض على الغنى والسؤدد .

كنت اعزي النفس بأن ادون عما قريب اخبار السلام وما فيه خير للبشر واذا الامر يطول واذا النغمة في الاولى كالنغمة في الثانية ، واذا عقول البشر كلها اتجهت الى جهة واحدة وهي البحث عمن تكون له الغلبة من هذين الفريقين المتقاتلين ، واختلفت الآراء فمن متشيع للحلفاء ، ومن عاطف على اعدائهم مقدس للبطولة فيهم ، ومن شامت باحدى الدول لاساءتها في استعمارها الى آخر ما يقول فلاسفة الحرب وطلاب الثارات اذا خلت الميادين . ويسألونك متى تضع هذه الحرب اوزارها قل هـذا ليس من علم الخلق ، وكذلك من المجهول كيف تنتهي وعم تنجلي . وفي اعتقادي ان الغالب نفسه لا يعرف ذلك وغاية ما ادرك ان الغالب سيملي ارادته وتصبح الدنيا أما انكليزية سكسونية روسية او جرمانية يابانية والامر يومئذ لله .

دور جديد

بعد ان سقطت فرنسا في يد المانيا في السنة الأولى من الحرب الحاضرة لطورت السياسة فرأت بريطانيا ان تحتل سورية ولبنان لاسباب حربية فارسلت جيشاً طرد منها جيش الاحتلال الفرنسي او جيش من كانوا انتدبوا عليها بصك من جمعية الأمم ، وبعد قتال دام اربعة وثلاثين يوماً في اطراف القطر الاربعة عقدت الهدنة يوم ١١ تموز ١٩٤١ وعهدت بريطانية الى الفرنسيس الذي سموا أنفسهم فرنسا المحاربة — أي الذين ظلوا على ولاء بريطانيا وتركوا فرنسا الأم — بالنظر في سياسة سورية ولبنان كما كانت على عهد الانتداب . فاوعز المندوبون الجدد الى رئيس دولة سورية وجمهورية لبنان بالتخلي عن الحكم وأتت السلطة الفرنسية الرياستين بشخصين اعتمدت عليهما فنصب المندوبون السيد تاج الدين الحسني رئيس جمهورية سورية بمرسوم من المفوض السامي الافرنسي قال فيه إنه ثبت له بالبحث ان صاحبه خير من يتولى الامر في سورية ، ثم أعلنوا أن سورية ولبنان مستقلتان فارسلت اليها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة مفوضين سياسيين وتبودلت عبارات المجاملات الدولية .

ولما هلك الرئيس تاج الدين قام السيد شكري القوتلي أحد البارزين من زعماء الكتلة الوطنية فتبنى الزعامة بالاتفاق مع اصحاب الشأن وضمت الكتلة اليها أناساً ما كانوا من حزبها ، وبدأت الانتخابات في عهد حكومة موقتة ، وكانت الانتخابات في المدن حرة في الجملة وفي الاقضية تحت سلطة ضباط الاستخبارات الفرنسيين وجماعة الدرك السوري وهم يأتمرون بأمر الفرنسيس ومن نصبوه رئيساً للحكومة الموقتة ، فخرج النواب من طبقات مختلفة وائتمر الضعفاء بأمر الاقوياء وانتخبوا السيد القوتلي رئيساً للجمهورية

وألفوا وزارة ضمت من سبق لهم تولي الوزارات من الكتلة وغير الكتلة ومنهم أربعة من رؤساء الوزارات وذلك برياسة السيد سعد الله الجابري وهو كالسيد القوتلي ممن جاهدوا في سبيل الاستقلال واضطهدوا . وكان معظم البارزين في المجلس من رجال الكتلة ، وبعض نواب الاقضية والمدن غير متأهلين التأهل الكافي لحمل هذه الامانة . وبات الرجاء معقوداً لما يتمتع به رئيس الجمهورية الجديد من الثقة ألا ترتكب الكتلة ما ارتكبته من الاخطاء في الدور الماضي . اما الانتداب الفرنسي فأخذ يتقلص شيئاً فشيئاً .

وأخذت بريطانيا العظمى تسعى لربط الممالك العربية برابطة واحدة فعهدت الى نوري باشا السعيد رئيس حكومة العراق بمفاوضة مصطفى باشا النحاس رئيس الحكومة المصرية وبدأت المفاوضات مع حكومة سورية وحكومتي جزيرة العرب ولم يتعرضوا للاقطار العربية في شمالي افريقية برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . والغالب أنهم رأوا أنه لا يسهل اليوم تحقيق هذه الأمنية . وما كانت انكلترا راضية عن الوحدة من قبل ولكن الحرب الحاضرة اثبتت لها فائدتها ، وتبدو الصعوبة فقط في حل مسألة فلسطين بعد أن وعدت انكلترا على لسان وزير خارجيتها بلفور بان تجعل لليهود من ارض الميعاد وطناً قومياً ، وليس ايجاد حل يرضي الفريقين العرب واليهود بالمتعذر على ساسة الانكليز ، خصوصاً بعد ان رأينا اليهود الواغلين على ذاك القطر قد تسلحوا واخذوا يطيلون ايديهم على رجال الحامية من الانكليز ، ونسوا ان البريطانيين كانوا يحمونهم من العرب الى عهد قريب وينزعون من هؤلاء كل اسباب المقاومة .

وهناك صعوبة قليلة مع لبنان لأن من أهله من بلغ بهم التعصب الديني مداه ، ولا سيما بعض تلاميذ مدارس المبشرين ، فهؤلاء لا يحبون أن يدخلوا في جامعة أكثريتها مسلمة ، وقد سبق لرئيس جمهوريتهم أن صرح بأن لبنان لا يجب أن يدخل مع سورية حتى في محالفات اقتصادية . قال هذا مع علمه

أن اللبنانيين يهلكون بدون أن تغذيهم سورية بحاصلاتها . ولبنان في الحقيقة مضطر إلى الدخول في الجامعة العربية ، والسوريون من أحرص العرب على هذه الوحدة وقد عزموا — كما قلت المفوض السامي في فلسطين أثناء اجتماعي إليه مؤخراً — إذا أبى اللبنانيون الانضمام إلى الوحدة العربية أن يجعلوا من ميناء حيفا منفذهم البحري بدل بيروت ، وأن يقولوا لهذه عيشي وحدك كما تحبين . والغالب ان هذه الوحدة سيتمتع فيها كل قطر من الأقطار العربية بحكمه الذاتي ثم تلغى الجمارك والجوازات وقيود الحدود ويتوحد البريد والبرق والهاتف والنقد . ولتصبح هذه الولايات مجتمعة الشمل بعد تشتتها ، والنجاح مضمون للشعوب المتآلفة المتحالفة . ولن يكون صوت الكبير كصوت الصغير في المعترك الدولي والنضال العالمي .

ورأيت اناساً من المفكرين يسيئون الظن بهذه الوحدة ويرون فيها سبباً جوهرياً لامتداد سلطة الصهيونيين تحت العلم العربي الموحد ، ذلك لأن فلسطين لا تكفي لتصريف بضائع معامل اليهود ولا حاصلاتهم من أرضها ومن المتعذر تصريفها في أوربا أو في غيرها ، فاذا تمت الوحدة يستطيع الصهيونيون أن يصرفوا بضائعهم وحاصلاتهم في جميع الممالك الداخلة في الوحدة العربية ، وأن يتوسعوا في ابتياع الأرضين في العراق والشام وغيرها ، وهذا مغنم غير قليل للصهيونية .

في مذياع القدس

دعيت إلى القدس لالقاء أحاديث في المذياع خلال شهر رمضان سنة ١٣٦٢ – ١٩٤٣ مع ثلاثة من أصدقائي الأساتذة طه الراوي العراقي والمصريان عبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد وكنا نحن الأربعة نحوم في أحاديثنا حول الوحدة العربية وإن لم نتفق على ذلك من قبل ، وما أوعز إلينا موعز بهذا الفكر . فكأننا والوحدة اليوم على كل لسان في ديار العرب قد رشحت أفكارنا من بيئتنا فأخذنا على أنفسنا اعداد العقول لقبول هذه الوحدة . وكنا في فلسطين نتمتع بحرية مطلقة في الأحاديث التي ألقيناها ، ومنها ما كان قبل أشهر مما يحذفه المراقب . وتفضل المفوض السامي فقال لنا في جملة حديثه إن جماعته سألوه فيما إذا كانت أحاديثنا مما يجب مراقبته فكان جوابه إن أحاديث الضيوف تدور على الأدب والشعر ، ولا يراقب الأدب والشعر ، فاعفونا من النظر فيما خضناه من الموضوعات . وقد احتفى بنا ولاة الأمر هناك وودوا لو نزور فلسطين كلها فاعتذرنا بضيق أوقاتنا وأرادوني في دار الاذاعة الفلسطينية أن أقول كلمة في تهنئة المسلمين والمسلمات بعيدهم فقلت الكلمة الآتية :

« يا بني امي ويا بني عمي . سلام عليكم طبتم وسلمتم ، وسعدتم ولا شقيتم . تهنئات لكم بعيدكم ورجاء أن يعود عليكم وقد أظل السلام العالم ووقف عذاب الانسان للانسان ، وخفتت أصوات الشهوات ، وقلمت أظافر المطامع ، وعاد البشر إلى سكونهم وأمنهم يتراحمون ويتعاطفون .

وعيد الأعياد يوم يحنو غنيكم على فقيركم ، وتمتد يد موسركم إلى معسركم ، وينصف قويكم ضعيفكم ، ويكثر بين أظهركم صدق العهد وصدق الود ، وتقل الفوارق بين طبقاتكم ، وتتوحد الأفكار في باديكم وحاضركم فلا شعور إلا بالوطنية ، ولا دعوة لغير القومية العربية .

ما العيد إلا يوم يزيد عدد المتعلمين والعالمين على الجاهلين والأميين ، ويوم تكون الكلمة العليا للمصلحين ، ويوم تنعمون كما تشاؤون في الحياة الفاضلة ، تغتبطون لا تشكون ولا تألمون .

العيد يوم تستمتعون بحرياتكم ، وتسنون بأنفسكم دساتيركم ، وتنفذون بأيديكم قوانينكم ، تتحابون لا تتباغضون ، وتنهضون لا تحجمون ، وتتحركون لا تجمدون .

وأسأل محيي الأمم ومميتها أن يوفر من السعادة قسطكم ، ويملي بالعلم كلمتكم على نحو ما كان أجدادكم ، وأن يعمر بالعمل الصالح دياركم ، ويحفكم بالسلامة ، ويشملكم بالأمنة ، ولا يجعل لغير العقل سلطاناً عليكم ، ولا لغير السداد سبيلاً إلى أقوالكم وأفعالكم إنه سميع الدعاء . »

كنت في السنين الأخيرة أهرب من السياسة ، كما كنت طول حياتي أهرب من الظهور ، والسياسة ترصدني وتلحقني آخذة بتلابيبي ، وذلك لما قام في نفسي بعد أن عانيت من السياسة ما عانيت أن الاشتغال بالعلم أوفر عائدة ، وان السياسيين قد لا يفيدون كما هو المتوقع منهم . وكنت إذا صادفت لطفاً من بعض قدماء أصحابي كرئيس جمهوريتنا الحالي السيد القوتلي وقابلته بمثله يفسره المفسرون بأني أطمح في منصب كبير فأضطر إلى الانقطاع عن مجالس أصدقائي حتى أقطع الألسن عني ، وغاية ما أطلب اليوم أن تطول حياتي حتى أعيد طبع كتبي منقحة ، وقد عزفت نفسي عن الخدمة ، وهي تحتاج من ذي الوجدان أن يعمل فيها عملاً نافعاً وإلا فأحجى به أن يتخلى عنها لمن يحسنها .

عود إلى الوحدة العربية . في الحروب تختفي الأحزاب السياسية وتتضاءل الحرية الشخصية ، وتبحث الأمم عن منافذ تخرج منها إلى دور سعيد مرعية الجانب موفورة الكرامة . ولما ظفر الحلفاء بأعدائهم من الالمان والطليان في شمالي افريقية وسقط بعض الأرض الايطالية في أيديهم قويت الفكرة

في تأليف الوحدة العربية فان اجتماع ملايين من العرب إلى غاية واحدة مع مصر تتألف منهم كتلة عظمى يستحيل انتهاك حرمتها كل حين . واذا جاءت هذه الوحدة ناقصة بعض شروطها في أول الأمر لا يأتي زمن طويل حتى تستجمع صفات القوة والسيادة ، وما برح بعض المفكرين يستبعدون قيام دولة العرب ، فهم متشائمون لا يولون ثقتهم دولة من الدول لكثرة ما شاهدوا من وعود في الماضي لم يتحقق بعضها . ولا شك أن العالم سيتبدل تبدلاً كثيراً ويلغى اسم الاستعمار والانتداب والحماية ، ويكتفى بمحالفات ومعاهدات لضمن للقوي شيئاً من الحقوق بدون جمجمة . والمأمول يومئذ أن يرفق القوي بالضعيف ويقل ظلم الظالمين في العالمين .

مفاسد الحرب

زادت الكارثة المالية في الفساد، وضعف معدل الأمانة، وأصبحت السرقة والتزوير اموراً طبيعية تكاد لا تنكر ولو انكاراً صورياً كما كانت أيام السلم. وكان لبعض التجار في هذه الفترة وثبات واحتيالات، وعلى كثرة ماربحوا ما شبعوا ولا ارتوو . وكان المأثور عن جمهرتهم انهم أقرب إلى الشرف من أكثر أهل الطبقات الأخرى. ولو قد كشف لك الستر عن أعمال صغارهم والدخلاء فيهم لشهدت ما هالك من لصوصية دنيئة وأسفت على تدني الطباع إلى هذا الحد.

ورأينا رؤساء حكومات ما أهمتهم غير مصالحهم الخاصة، وقد اساءوا استعمال نفوذهم باتجارهم بالحبوب وغيرها من أصناف المأكولات، ومنهم من زرع الحشيش المخدر واتجر به، حللوا لأنفسهم ما حظروا على الناس، وذلك تحت حماية رجال الأمن. وكان هؤلاء يشددون الضغط على الفقراء، ويا ويل من ينقل رطل خبز أو مدّ قمح من قرية الى أخرى، وعلى ذلك كان بعض رؤساء الحكومات قبل الجمهورية الرابعة مهربين رسميين وأكثر ما يهربون المأكولات يجيعون بلداً ليطعموا آخر ولا تهمهم من ذلك غير مايدخل صناديقهم، ولا يقيمون للمروءة وزناً في هذا الزمان العصيب، فكيف ينكر على صغار الموظفين استرسالهم في سرقة أموال الحكومة والامة. وادعى بعض هؤلاء الكبار أن غيره يحسن الانتفاع من منصبه أما هو نفسه عن ذلك مع انه ربح عشرات الالوف من الليرات من التهريب واستعمال بقوة وظيفته على مقاسمة اناس من المهربين أرباحهم، كان له منها القسم الأعظم. وكان بعض رجال الأمن يحسنون القيام بأعمالهم ولا يرتشون أيام كان المنتدبون يسيّرونهم فلما استقلوا بأعمالهم ورفعت عنهم المراقبة

ونشبت الحرب نسوا ما تعلموا فأخذوا يجورون على الرعيـة ولا سيا في الأماكن البعيدة عن الأنظار . ولا همّ المأمون على الأمن إلا مصادرة الحبوب وتهريب المحظورات يشترك بذلك مع قادته .

ما اعجب طباع البشر ! كنت اعتقد النزاهة في بعض الموظفين واذا الحرب تنادينـا انهم كانوا كاذبين في دعواهم ، يظهرون التورع عن كل ما ليس لهم خوفاً وطمعاً ، وهم في الواقع ما عَدَوْا سيرة رؤسائهم ، يتمرغون معهم في حمأة اللصوصية ، لا يبالون الشرف والنزاهة ، ودعواهم على فعلاتهم ارتفاع اسعار المعيشة حتى افقد فقد التوازن بينها وبين رواتبهم ، نعم ان مستوى العيش زاد خمسة عشر ضعفاً عما كان عليـه قبل الحرب ولم تزد الرواتب اكثر من ضعفين او ثلاثة ، فمن الصعب على من لم يكن له مورد آخر غير راتبه ، ان يعيش بمشاهرة ضئيلة . وهذا ايضاً ليس فيه مبرر لسلب الرعية واضاعة حقوقهم . ولولا ان انشأ الانكليز في هذه الاقطار مشاريع استلزمت شغل عشرات الالوف من الايدي العاملة كفتح طرق وانشاء جسور واقامة حصون ومستشفيات وثكنات ومستودعات ومآوي وملاجئ لعم الفقر الطبقات النازلة وربما كانت تنشب ثورات وتنتشر مجاعات . وكلما تضخم الورق النقدي نقصت قوته على الشراء فزادت الاسعار ارتفاعاً . كان في سورية ولبنـان قبل الحرب نحو ثلاثين مليون ليرة سورية من الورق النقدي متداولة فزادت في الحرب ثلثمائة مليون آخر . وهكذا حال مصر والعراق وبعضهم في الأقطـار الثلاثة لكثرة الجيوش النازلة فيها يعملون ويربحون . أما الثروة العامة فمصابة بداء مجهولة نتيجته ، ولا يتجلى ما تؤول اليه الا بعد الحرب وان رأينا بعض الأملاك والاراضي ترتفع اسعارها الى ضعفي ما كانت عليه ثم تعود الى النزول .

طلعت علينا الحرب العالمية الماضية وهذه الحرب الطويلة الحاضرة بضروب من التبدل في اخلاقنـا ومنازعنا وأهم ما كان محسوس الأثر ذاك الفجور

الساري في الطبقات . الامور المالية تزيد وتنقص ، والثروات تقل وتكثر ، والارض تعمر وتخرب ، والشجر يكتسي ويعرى ، لكن فساد أمة نذير اضمحلالها ولا تنفع معها ثروتها ولا صناعاتها ولا فنونها ولا علومها . لا جرم أن الفحش لا يرتفع من الامم في حال ترقيها وتدنيها ، اما بعض العالم اليوم فقد استحلوا كل محرم بلا حياء ، وكادت النخوة تفقد من الرؤوس ، وكان لكثرة الجيوش المنوعة دخل كبير في الاسترسال في البغاء فعم البلاء وأنذر هذا السقوط بسوء العقبى .

الهزل

الهزل ينفع في الاحايين والجد نافع كل حين ، يدخل الهزل النشاط على النفوس وهو عون على الجد ، واذا استكثر منه يسمج ولا ينفع وربما غلب الهزل على من كان تحصيل الرزق هيناً في أرضهم ، ولهم شيء من الفراغ يخلون فيه الى أصحابهم وعشرائهم ، والهزل قد يكثر في الحواضر لأنها لا تخلو من متبطلين ، يسهل عليهم تحصيل رزقهم بدون سعي عظيم .

ومن لم يرزق حظاً من أدب النفس لا يدري كيف يهزل الهزل الجميل ، ولا كيف يتهكم التهكم الذي يسر ولا يسوء . وهزل الناس فرع من أدبهم يسمو بسموه وينحط بانحطاطه . ومن الهزل القطيع أن بعض المفرطين في هزلهم يختلقون أكاذيب مضرة تجوز لساعتها على سامعها ، كأن ينعون اليه زوجته أو أباه أو أمه أو عزيزاً عليه ، وهم يظهرون الاسى على ما حلّ به . وهذه « المقالب » — واحدها مقلب كما يسميها المصريون او « التراكيب » مفردها تركيبة كما يدعوها الشاميون — خالية من الذوق وفيها غلاظة وسماجة ، لا يقدر فيها من يجرؤن عليها عظم الخطر الذي ينشأ من هزلهم هــــذا .

رأيت كثيرين من الهزالين ومنهم رجل في مصر جمع الى نبل المحتد جميل الأدب ، وعرف بابتداع المقالب يقصد بها ادخال المرح على أصحابه وتسليتهم فيما لا تهتز له أعصابهم كثيراً ، كأن يوهم بالواسطة عقيلة صديق له أن سير زوجها هذه الأيام فيه ما يدعو الى الريبة ، فتغضب ولعلها أو تصارمه أياماً ، وقد يدعو جماعة من معارفه الى تناول الطعام في دار صديق لهم يوم كذا ، فيخف المدعوون الى دار صاحب الدعوة المزيفة في الوقت المعين ، او يزور هو على لسان صاحبه دعوة الى بيته يدعو اليها من لا يعرفهم

صاحب البيت . ورأيت في دمشق رجلاً صرف عمره وهو يهزل وأصحابه كثار تختلف درجاتهم في المدنية والثقافة ، ولا يفتأ يخلب ألبابهم بما يسمعهم كل يوم ، وما عرفت أنه أغضب انساناً بهزله ، ولا أساء الى قريب ولا بعيد بنقده ، أو ظهر من كلامه بذاءة . اذا اجتمعت اليه لا تحب أن تفارقه لكثرة ما يسمعك من تهكم ، ويورد على مسمعك من قصص ونوادر وبعضها واقعي يطيبها ، بما يمزجها به من أفاويه ، ويبرزها في قالب شفاف من رقيق حسه وصائب نقده . وقد ينسب بعض قصصه الى نفسه مخافة أن يرتكب كبيرة الغيبة ، وفي هزله درس أخلاق ونقد عادات .

هذه الفئة من أرباب الهزل يجب الانتفاع بما تلقيه من دروس تستسيغها العامة أكثر من دروس الخواص . يقول ابن المقفع إن آثرت أن تفاخر احداً ممن تستأنس اليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدُونّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً فاذا بلغ الجد وقاربه فدعه ولا تخلطن بالجد هزلا ولا بالهزل جداً ، فانك إن خلطت بالجد هزلاً هجنته ، وان خلطت بالهزل جداً كدرته ، غير أني علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت على الاقران وذلك ان يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق .

استعمال العقل

كان استاذنا الجزائري يحذرنا من القول الا بعد الاستثبات ويبغض الينا الاستنتاج الا اذا استوثقنا مما لدينا من النصوص ، ولا يحب أن نتوسع باعطاء الآراء اذا لم نكن على بصيرة من صحتها . وكان التزيد في نقل الأخبار من أشد ما يسوءه ، ولا يحب الاكثار من التعليق على الحوادث بما لا يفهم منها . وهو يريدنا أبداً على ان نستعمل عقولنا قبل ان نشرع بالكلام .

حدثني صديقي الأمير أمين ارسلان قال كنت تلميذاً في المدرسة الملكية في الاستانة وكنت اختلف الى منزل السيد جمال الدين الافغاني وكان من عطفه علي ما جرني على غشيان مجلسه كثيراً . قال دخلت عليه صباح احد الجمع فوقع نظري على كتاب في مذهب كونفوشيوس بالفرنسية ملقىً على المنضدة ، فنظرت الى السيد كالمتعجب من تنازله ، على جلالة قدره في الاسلام، لاقتناء هذا الكتاب ، فقلت له : ومولانا أيضاً يضيع وقته في تلاوة هذه الكتب ؟ فقال : نعم فان فيها حكماً عظيمة . ثم قال : وهل أنت اليوم في سعة من وقتك لنقرأ هذا السفر معاً فاجبته الى دعوته مع الشكر . وعند ذلك أمر خادمه ان يمنع الناس من الدخول عليه طول النهار ، وأخذت أتلو على السيد وهو يفسر لي ما أبهم عليّ ، وكان يدرك مقاصد المؤلف ومصطلحات المذهب أكثر مني مع تمكني من اللغة الفرنسية . قال وما أمسى المساء حتى أتينا على الكتاب برمته ، فقال لي السيد : وكيف رأيت يا أمين كلام كونفوشيوس ؟ فقلت شيء عظيم يستفاد منه يامولاي ، وما كنت أظن الامر هكذا ، فقال لي وهو كذلك ، وعليك بعد الآن ألا تصدر حكماً في شيء قبل الدرس وإمعان النظر .

ولو جرى اكثر القوم على هذه الطريقة لا يقولون الا ما يعلمون ، ولا يتفلسفون الا بعد التفكير لما سرت الاغلاط الفظيعة الينا ، ولتوفر علينا عناء كبير وعبث كثير . نعم ان من نرى اقوالهم أكثر من افعالهم ، وخطأهم يزيد على صوابهم ، لو استعملوا عقولهم قليلاً لظهروا بمظهر من قلَّ فضوله ورجي صلاحه .

قام مرة نائب حلبي في مجلس النواب السوري يطلب الغاء المجمع العلمي العربي بدعوى انه يكلف الجمهورية مالاً كثيراً ولم يأت بثمرة تذكر ، فتصدى للرد عليه رئيس مجلس النواب (السيد فارس الخوري) ورئيس الحكومة (السيد سعدالله الجابري) ونائب دمشق (السيد نجيب الريس) وغيرهم من النواب ، وبينوا له فساد حكمه على معهد ما زال يخدم الآداب العربية منذ ربع قرن ، تشهد لذلك مجلته ومحاضراته ، وما ينشره من الكتب ولو لم يكن من المجامع النافعة ما انبرى العلماء في الاقطار العربية والمستعربون من الافرنج يذكرونه بالاعجاب والتقدير ، ومما سأل رئيس المجلس ذاك النائب المتهور هل اطلعت على اعمال المجمع او حضرت محاضرة من محاضراته حتى تحكم عليه هذا الحكم ؟ فاجاب نعم حضرت مرة محاضرة لرئيسه وكان موضوعها الكذب ، فقال الرئيس فأنت على ما يظهر لم تستفد شيئاً مما قال الرئيس في هذا المعنى .

وأراد احد المتنطعين ممن تنطق ألسنتهم بما لا يعتقدون كيداً وحسداً ان يغمز المحاضرات التي يلقيها اعضاء المجمع وغيرهم في ردهته . فقال وهذا الرئيس يقتبس محاضراته من كتبه ، فاجابه احد العلماء الحاضرين وهل تستطيع أنت ان تؤلف مثل كتبه ولكتبه موقع في نفوس العرب ، فبهت ذاك المتسرع إلى تزييف ما لا يعلم ولو كان كل من حضرة النائب وجناب المتفلسف الناقد استعمل عقله ما جسرا ان يصدرا مثل هذا الحكم في أمر لا يعرفانه .

ويسرنا وقوع تبدل محسوس في العقول وفي صورة الحكم على الامور. رأينا احد رؤساء حكومة سورية (السيد حقي العظم) وهو انتدابي يقول أي فائدة أتت من المجمع العلمي العربي ، وهذا مجمع مصر يكفينا المؤونة ، وبالفائه نقتصد مبلغاً نصرفه في أمر آخر من اعمال الحكومة ، وشهدت في العهد الاخير رئيس حكومة وطني (السيد سعد الله الجابري) يدافع في مجلس النواب عن هذا المجمع العلمي دفاع الغيور على العلم العارف بما نجم عن هذا المجمع من الفوائد العظيمة . وما وقع من الاول والثاني من الرؤساء يدخل في باب الارتقاء المحسوس في العقول .

دار ... في تصدر النساء بين أعمال الرجال

المؤتمر النسائي

عقد في القاهرة في شتاء سنة ١٩٤٤ مؤتمر نسائي اشترك فيه وفود من الشام والعراق ولم يشارك فيه نساء جزيرة العرب ولا غيرهن، وألقين الخطب وطلبن المطالب في اصلاح حال المرأة، ومما قررنه مساواتهن بالرجال في الوظائف، إذا تساوى الذكر والانثى في الشهادات والمؤهلات، وأن يَنتخبن ويُنتخبن أي يصبحن نائبات في المجالس النيابية، يتولين أمور الناس في الحكم، اي يتخلين عن بيوتهن وتربية أولادهن، ويتصدين لشؤون لم يخلقن لها، وبعض ما طلبن مما يتعذر تحقيقه لان النساء لم يفلحن في المحاماة ولا في الطب ما عدا الفرع الخاص بامراض النساء، ونجحن في تمريض المرضى والكيمياء العملية وتربية الاطفال، ولم يأت منهن في الغرب الى اليوم مهندسة ولا قاضية ولاطباخة ولا خياطة، وثبت انهن لم يأتين العالم بشاعرة ولا كاتبة من الطراز الاول ولا بعالمة ولا مخترعة من عيار الرجال، وإذا نجحت حكومات النساء في بعض دول الغرب فالفضل فيه للرجال الذين كانوا يعملون من وراء حجاب، واذا اخفق الرجال في بعض الادوار فقد كان السبب فيه النساء مذكن حاكمات بالفعل والظاهر أن الرجال هم الحاكمون.

سررت بعقد هذا المؤتمر يتمرن بنات حواء على الخطابة والكتابة والتفكير، أما هن فمهما قررن وشاهدن من بعض الرجال صدوراً رحبة في سماع شكاواهن فمن المستحيل أن ينفذ من مطالبهن إلا ما كان المنطق السليم يؤيده. ونصيحتي الى الفضليات منهن ان يعنين بتعليم بنات جنسهن وأبناء جنسنا اولاً حتى اذا صار المتعلمون والمتعلمات أكثر من الاميين والاميات جاز لهن ان يطلبن بعض ما طلبن من الرجال، وربما يخجلن يومئذ من تقرير ما يخالف طبائعهن، ويتعذر عليهن تحقيقه من عدة اعتبارات، لان الفطرة لم تؤهلهن له، وما أحب لهن الاشتغال بالعبث والسير مع الهوى، وهن أعرف بما يعرض لهن من حالة صحية تخرجهن عن اتزانهن مدى الشباب والكهولة.

محاضرات في المحافظات

كان المجمع العلمي العربي قرر انتداب بعض أعضائه لالقاء محاضرات في أمهات مدن سورية وطلب الي رئيس الجمهورية مثل هذا الطلب وتعذر انفاذه لما حال دونه من قيود مالية ترجع الى صرف المقتضى من النفقات في هذه الرحلات ، والموازنة لا تسمح الا بالقليل من الواجب انفاقه . وقد دعاني رصيفي الامير مصطفى الشهابي محافظ جبل العلويين ، أو جبال النصيرية كما كانوا يسمونها قديماً ، الى القاء محاضرات في اللاذقية حاضرة محافظته فصحبت رصيفي الدكتور جميل صليبا وألقينا ثلاث محاضرات على جمهور لا يقل عن ألف نسمة منهم مائتا سيدة وكان الحضور على غاية التهذيب والنظام ، كلهم أسماع تنصت لما يلقى وتقدر ما تسمع .

وقد اغتبطت أنا وزميلي بالبداءة باللاذقية بعد أن فصلت أكثر من عشرين سنة عن سورية وجعلت على عهد الانتداب دولة قائمة برأسها كما جعلوا الاسكندرونة وجبل حوران ! ولا تقل نفوس محافظة العلويين اليوم عن نصف مليون نسمة بين علوي وسني واسماعيلي ومسيحي . وطول سواحلها مائة وخمسون كيلومتراً وعرضها ستون . وسهولها كجبالها خصيبة ومياهها دافقة وهواؤها معتدل وزراعتها منوعة واشجارها المثمرة وغير المثمرة تأتي باحسن الغلات .

ويندر المتعلمون في أكثرية السكان من العلويين ذلك لان الحكومات السابقة لم ترعهم حق الرعاية وكانت تستثمرهم فقط ، وكانوا اذا آنسوا غرة من حاكميهم خرجوا عليهم ، وقد نفرهم بعض جهلة السواد الأعظم وباعدوا بينهم وبين الاسلام ، وما هم الا فرقة من فرقة عشش الجهل في عقول منتحليها ، وان زعم بعض سخفاء العقول أن أصلهم نصارى ومنه جاء اسمهم النصيرية ! ومثل هـــذا دعواهم في أن الدروز ليسوا من المسلمين ، وقد سعى المبشرون في تنصير العلويين والاسماعيليين والدروز فما أفلحوا .

جامعة الدول العربية

كنت في مصر لما انفض مؤتمر جامعة الدول العربية فسألت بعض أعضائه أما حسن لأحدكم أن يأتي في المؤتمر على ذكر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وينادي بأنها أقطار عربية فيها عشرون مليوناً من العرب وهي جديرة بان تضم الى الوحدة العربية . وهلا خطر ببالكم أن تعرضوا لذكر الامارات العربية الواقعة على المحيط الهندي والخليج الفارسي كعدن ولحج والمحميات التسع والشحر والمكلا وحضرموت ومسقط وعمان والكويت والبحرين . وقلت هذا لجلالة ملك مصر المعظم فابتسم وقال الأسباب معروفة وأشار الى احدى الدول الكبرى . وسألت أحد أعضاء الجامعة العربية عما اذا كانوا يفكرون في الغاء الحواجز الجمركية بين الدول العربية ويبطلون الجوازات لتسهيل السفر بين البلدان الداخلة في هذه الوحدة فقال ولا تبطل جوازات السفر ، والجوازات أقل ما يطلب الغاؤه من هذه الشركة الجديدة . وقد وقع مندوبو الأقطار الداخلة في هذه الجامعة على صك الجامعة الجديدة وكلهم متفائلون خيراً بنتائجه ، وما رأيت أحداً جرأ فانتقد شيئاً منه فعسى أن يكون الباطن كالظاهر وأن تكون نتائج الجامعة العربية خيراً من مقدماتها .

المعارف والاصدقاء

عجيب حال بعضهم يطالبون بحقوقهم ويهملون اداء ما عليهم من حقوق ، ولا يرون عليهم أن يطالبهم انسان بحق له عليهم . لاحظت هـــذه المرة أن بعض معارفي من كبراء المصريين وأهل الأدب والرأي فيهم يعتبون عليّ اذا جئت مصر ولم أسأل عنهم ، لأن العرف الغربي الذي ساروا عليه في التزاور هو أن يبدأ القادم فيزور أصحابه اولاً ثم يزورونه . أما جمهرة أصحابي فكانوا اذا سبقت فزرتهم يكتفون من اكرامي غالباً بدعوتي الى طعامهم أو شرابهم ، ولا يرون من الواجب أن يزوروني ولا أن يسألوا عني بعدها ، سيان عندهم غبت أم حضرت . أنا أعـذر من يتهاونون في هذه الحقوق بعض العذر اذا صح ما يشيرون اليه من طرف خفي أنهم في شغل شاغل عن كل أحد ما دامت شروط مجتمعهم متقلقلة ، وليس في وسعهم تنظيم أمرهم وسط الفوضى . وأعتقد أن معظمهم يهرعون الى أرباب المقـامات السياسية أو الى من يتوقعون منهم فائدة محسوسة . وقد جريت في السنة الأخيرة (١٩٤٥) على قاعـدة جديدة استرحت بها اذ رأيت العقل يوجبها ، وهي ألا أسأل إلا عمن يسأل عني وأزور فقط من أعدهم من أخلص خلاني ، واعتذرت عن حضور الدعوات التي دعيت اليها وقد بلغت عشر دعوات ومنها رسميات لأني لا أريد أن يتخذ بعضهم من دعوتي اعلاناً عن كرمه واتساع علاقاته ، وكنت عمدت منذ سنين طويلة ألا أواكل من لا أعرفهم ، ولا أحضر مجلساً اتنغص فيه أو يتنغص غيري من وجودي معه ، فربحت بذلك وقتي وصحتي وبانت لي درجة تلك الصداقات . وتوخيت للتذرع الى ذلك ألا يكتب اسمي في صحيفة اخبارية حتى قلّ من يقصدني ممن أريد أو لا أريد مقابلته ، وزرت في جملة من زرت

في الريف صديقي الكريم قليني فهمي باشا من أعيان مصر دعاني الى داره في مغاغة من الصعيد الأوسط واطلعت على ما أنشأه فيها من مدرسة ريفية ومدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية وكنيسة وجامع ، عدا سرايه في حلوان التي أعدها لتكون بعده مستشفى ووقف عليه ما يلزمه وعلمت ان صديقي يملك في تلك البلدة ستمائة فدان قسمها مناصفة بين اسرته وبين أعماله الخيرية . ولو جرى من رزقهم الله الغنى الطائل على الجود بعشر ما يملكون يصرفونه في البر لما بقي في وادي النيل فقير ولا جاهل ولا مريض .

غرائب

ما أحب أن تذكرني الصحف في أمر لي شخصي مخافة شغل اصحابي بشيء خاص بي ، واضطر الى مجاملتهم كما جاملوني . فجعت بفقد ابنتي العزيزة سعاد فذكرت صحف دمشق الخبر وهرع الأصدقاء ورجال الجمهورية الى تعزيتي في مزرعتي وفي البلدة ، ولم تجئني سوى تعزية واحدة فقط من الديار الشامية (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) مع كثرة أصحابي فيها ، ووردت عليّ تعزيات أكثرها بلسان البرق من اخواني المصريين ومن جملتها برقية من عظيم لم يسبق لي أن تشرفت بمعرفته شخصياً وإن كنا يعرف أحدنا صاحبه غياباً منذ سنين طويلة وهو صاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الحكومة المصرية . ذكرت هذا هنا ليعذرني بعض المذال على حبي المصريين وتفاني في حب مصر .

أنا والعقيدة

قال لي الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي فكرت في أمرك ملياً وحمدت الله على أن أنشأك نشأة اسلامية ولم يجعلك مطية لأعداء الاسلام يتخذون من قلمك أداة لنشر دعوتهم ، ولو قدر لك ذلك لكنت بما رُزقت من بيان وجلد شراً على أمتك . والسرّ في هذا الذي عجب منه صديقي أني اعتقدت وأنا في العقد الثاني من حياتي أن الدين المعقول أجدى على البشر من الالحاد ، وأن من السهل الهدم والصعوبة في البناء ، ومن حاول أن يدك بناء قائماً على وجه الدهر وهو عاجز عن اقامة غيره كان خليقاً أن يمدّ في الحمق .

وقويت في نفسي هذه العقيدة عندما درست الاسلام دراسة علمية ، وتدبرت القرآن وسيرة الرسول وأصحابه ، وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها ، وأحببت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا ، بعيداً في الجملة عن التقليد ، ولما جاءت نوبة العمل كنت أدون ما علمت ، ومع هذا رأيت أن أتباعد عن الأبحاث الدينية لعلمي بأن في الأمة أناساً كثيرين انقطعوا إليها ، وآثرت أن اوجه وجهي شطر علوم المدنية ، لاعتقادي نفعها في انهاض الأمة ، وامة لا تصلح دنياها لا يغني عنها دينها ، والدنيا مزرعة الآخرة . وكان لي من التربية الأولى عون على تفهم ماشغفت به ، وما أوغلت في تقدير ما تعلمت بادئ بدء ، ولا استرسلت في الغرام بما لقفته بعد .

حكّمت العقل فيما عرض لي من القضايا الدينية فلم أستطع حل بعض مسائل الآخرة من طريق العقل وسلّمت بما جاء ، ولم يكن ما استعصى عليّ إدراكه سبباً في خروجي على الدين كله ، قبلت العقيدة بالتسليم

واعتقدت اعتقاداً جازماً بخالق الأكوان ، وقلت انه لا يطلب من كل إنسان أن يعرف كل سر ، وأن يعلل بالمنطق كل أمر . ومن طبعي ألا أتفلسف إلا بعد درس النصوص أما أن اعطي حكمي في كل ما يمر في ذهني وقد شغل به قبلي أرباب العقول قروناً فما أثمر لهم طول تفكيرهم شيئاً ، فهذا ما كنت أتجنبه .

أهمني من الدين قبل كل أمر جوهره ومعاليمه الاجتماعية فعففت عن كل مال محرم في الشرع والعقل ، وما رأيت في استخدام الكذب فائدة ، وصنت قلمي ولساني عنه ، وتفانيت في حب الحرية ، وقاتلت من يحتالون ويستغلون السذج لمآربهم ، وعذرت بعضهم على نقص تربيتهم ، وما عذرتهم على الزور والخداع قط . كرهت التعصب والعصبيات فلم ادافع عن مسألة ما اعتقدت صحتها ، ولا ألقيت قولاً وأنا أوقن بعضرته ، وقلما قبلت لنفسي تقليد أحد في آرائه ، أو سرقة آراء غيري وادعاء انها من عندي ، وقد وقع لي وأنا في العقد الثالث أن قلدت استاذاً لي في رأيه ببعض رجال الاسلام ، ثم رجعت بعد الدرس عما اعتقدت ، واخترت مذهباً جديداً لي هداني إليه التجرد في البحث عن العصبيات الدينية .

اجتهدت في أقوالي وأفعالي وما ندمت على ما قد أتيت من خطأ ، مادام الخطأ غير مأمون السراية إلى أرقى العقول . مقتُّ الظلم وقاتلته وأهله مهما كان دينهم وجنسهم ، وما ونيت ولا تحولت عن دعوتي ، ودعوت إلى العدل وبالغت في تقدير من لشبعوا بروحه ، وأعترف أني كنت أرفعهم فوق أقدارهم لأجعل منهم مهازاً لغيرهم ، وما كرهت حياتي مخالفاً لي في النحلة ، ولا مبايناً لي في الجنس ، ولا وضيعاً في المرتبة ، وإنما كرهت رديء الخلق والطبع ، ومن يجوز الخروج على نواميس العقل ، ولطالما أكبرت كل عطف يبدو من صاحب القوة على الضعفاء اكباري لكل من يفعل الخير ويكتمه لا ينشره .

أما بعد فلا يطلب ممن كثر اطلاعه على الآراء المختلفة أن يظل على رأي واحد طول عمره في عويص المسائل ، فالاجتهاد فيها تبع أبداً للتجارب التي تستجد الدارس ، وكان الواجب أن يقوم المرء بكل ما وجب عليه ويبتعد عن كل ما عنه الشرع نهي ، ولكن النقص من خصائص البشر . أسأله تعالى أن يجنبنا مزالق المنافقين ممن يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

عملية أخفقت

قلت في غير هذا المكان أن حكومتي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة اعترفتا باستقلال سورية ولبنان وتبادلت هاتان الحكومتان مع الدولتين المظيمتين الرسائل السياسية . ومضت حكومة سورية في جمهوريتها وتبعتها حكومة لبنان ، فانتخبت النواب وانعقد المجلس النيابي وطلبت حكومة لبنان من حكومة الانتداب الافرنسي الاستيلاء على حصتها من أموال المصالح المشتركة وغير ذلك من المطالب ، فشق ذلك على فرنسا المحاربة ، وصدر أمر قائدهم بالقاء القبض على رئيس جمهورية لبنان وعلى رئيس حكومته ، واعتقلوا مع بعض الوزراء في قلعة راشيا وعهـــدت الى السيد أميل اده رئيس الجمهورية الأسبق أن يتولى كبر هـذا الأمر ، وشرع بانتخاب حكومة شرعية لا من رجال الشوارع كما وصموا الحكومة المغضوب عليها . فقامت مصر والعراق وسورية والمملكة العربية السعودية تقبح هذا العمل وعاضدت بريطانيا أهل لبنان معاضدة فعلية حتى رجع الفرنسيون عن قرارهم واستدعوا قائدهم الذي قيل انه لم يعمل إلا بما قضت به لجنـــة فرنسا ومجلسها العام ، وأعادوا المعتقلين الى كراسيهم .

استغرب كل عاقل عمل فرنسا المحاربة وخرقها الاجماع في استقلال لبنان . وقد وقف جلالة ملك مصر فاروق الأول وحكومته وحكومة العراق أجمل موقف في هـذه القضية ، وأنحوا على من جرؤا على سلب ماليس لهم ، وذكّروهم بأنهم امة يحتل عدوها أرضها لا يحق لها أن تسيطر على بلد غيرها ، وهي لا مملكة لها ولا سلطان ، يصرّف عدوها أمرها ، وهي لا تملك من استقلالها قليلاً ولا كثيراً . وفي الحق ان الفرنسيين المحاربين أو الأحرار قد خسروا في هذه الحركة عطف العرب

وكان عملهم وبالاً عليهم ، كأنهم ظنوا ان فرنسا في سنة ١٩٤٣ هي فرنسا سنة ١٩٣٩ تعتز بجيشها واسطولها ، وتتمتع بعظمتها وسلطانها ، واعد لبنان جزءاً من أمبراطوريتها ، وما هي إلا منتدبة عليه وعلى سوريه فقط . وقد زال الانتداب بزوال جمعية الأمم التي كانت عهدت إليها بادارة سورية وباعتراف الدولتين اللتين لهما الشأن الأول في هذا الباب انكلترا والولايات المتحدة باستقلال سورية ولبنان على صورة لا مجال لدولة مهما علت منزلتها أن تنقض هذا القرار .

مؤتمر المجمع اللغوي

دعيت في آخر سنة ١٩٤٤ لحضور مؤتمر اللغة العربية في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة وكان ضمني الى اعضائه مؤسسه عليه الرحمة ، وكنا نجتمع مرة كل سنة فحالت الحرب الحاضرة دون اجتماعنا أربع سنين . وقد رأيت بعد هذه الفترة تغييراً عظيماً في تركيب هذا المجمع ، وكان ينظر في تعيين أعضائه الى الكفاية العلمية فأصبحوا يجري انتخاب بعضهم بتأثيرات الحزبية ، ولما جاء الدستوريون الى الحكم بدلوا في أوضاعه واختاروا أناساً منهم أو ممن كانوا هم راضين عنهم ، ولما جاء الوفديون اختاروا اناساً منهم أيضاً ، ولا يبعد أن يجيء السعديون أو غيرهم يتولون زمام الحكم غداً فيضمون رجالاً الى أعضاء المجمع يرون من المصلحة ارضاءهم . والحزبية أضرت بمصر ضرراً بالغاً تناول كل عمل له اتصال بالحكم .

عُرضت على المؤتمر ثلاث مسائل كبرى اذا أقرها يدخل التبلبل في اللغة العربية . الاولى اختراع خط جديد يراد به الاستغناء عن الشكل فيكون هذا من بنية الكلمة وبذلك يزيد عدد حروف الهجاء كثيراً ويأتي هذا الخط السقيم فيحل محل خطنا الجميل ونستعيض عن هذا السهل الذي تعلمناه بذاك الصعب الذي ما عرفناه . والاقتراح الثاني ان تبسط قواعد اللغة العربية في اللغة والصرف ولا يلتفت الى ما ورد في الجموع والتأنيث والتذكير وغيرها ويحذف المترادف من المعجمات وكل ما كان له أسماء كثيرة من المسميات . والاقتراح الثالث وهو أعظم الاقتراحات ضرراً باللغة اختيار الحروف اللاتينية لكتابة الحروف العربية ، وبذلك يقضى على تراث ألف وخمسمائة سنة ولا يأتي جيل واحد على المسلمين حتى ينسوا القرآن .

هذه ثلاثة اقتراحات عرضت على المؤتمر فجرت المناقشة فيها طوال

دورته هذه ، وردذت كلها وخطب في تزييف الاقتراح الاخير ثمانية أعضاء ، وما جسر واحد من الفريق الثاني أن يجهر بمعاضدة الحروف اللاتينية إلا أنهم جعلوا لردها مخرجاً وهو أنهم ارجأوا النظر فيها الى السنة القادمة ، عسى أن يقوم من يعالجها معالجة أخرى او يقيض الله مخترعاً آخر يفكر تفكيراً ثانياً في اخراج هذه اللغة من ورطتها ، وما أظن نغمة الحروف اللاتينية تعود الى الانبعاث من مرقدها لان في تحقيق ذلك هدم اللغة لا محالة ، وحدثني عارف ثقة ان وزارة معارف مصر أمرت باغلاق مسألة الحروف اللاتينية وكفى الله المؤمنين القتال .

وأريد ان أسجل هنا ألمي من تسرب العنجهية الحزبية الى مجالس العلم ، وتلويث وجه الجميل باصباغ السياسة . ورأيت هذه المرة أيضاً كثرة غرام بعض أرباب النباهة من المصريين بمصانعة بعضهم بعضاً على ما لا يدخل في المنطق السليم ، والعلماء اولى الناس ان يصونوا انفسهم عن المصانعة والتزلف . شهدت صديقاً لي منهم قد امسك مع ما فيه من فضل عن القول لما أفضنا في مسألة الحروف اللاتينية لان مقترحها من حزبه ، وكان المفروض فيه ان يكون على خلاف هذا الرأي فحاول بسكوته ألا يغضب المقترح ولا ينقل عنه أنه يقول بالحروف اللاتينية ، لان ذلك مما يؤذي سمعته ، ويود ايضاً ان يرضى المجددين الذين دأب بعضهم على التأفف من كل قديم ليقال عنهم انهم دعاة تجدد . وما اقول كما يقول خصومهم إنهم يحاولون نشر الالحاد ، وان كبيرهم المتفلسف يوحي اليهم آراءه فيتابعونه على العمياء ليقال عنهم إنهم مصلحون . والحر من يجاهر ولا يخاف فيقول مثلا إني عملت ما عملت لخدمة الغرض الفلاني ، وقد عدلت عما كنت ادعو اليه امس ، وأنا الآن أعمل لخدمة أغراض اخرى .

هذه الدنيا ام العجائب ، وهؤلاء الناس اغرب ما فيها ، فان أمثلهم يكتم حب الدنيا على ما لم يكن يتوقع صدوره من مثله . إي وربي إن ذنب الكبير كبير ، وانا لا اريد هذه الطبقة ان تتخلى عن مطامعها في الحياة ،

فقد فطرنا على حبها ونحرص على ما يضمن لنا الرفاهة فيها ، بل أريدها أن تصدق في مطالبها ومظاهرها . فلو قال فلان مثلاً أنا سياسي وبودي أن أعمل فقط في السياسة فآتي كل ما يأتيه السياسي لقلنا له : سر في طريقك لا تبال الناقدين أما أن يخالف السمت الذي طالما سار عليه ، فهذا ما لا نرضاه لعدو فضلاً عن صديق . المرء حر في اجتهاده فاذا كان اجتهاده مما يضر فيؤاخذ على تفريطه بقدر ما يؤثر عنه من فقه ومعرفة ، وما فطر عليه من ذكاء ونباهة .

أما أنا فأحب أن يوافقني بضعة من الصفوة المختارة على عمل أعمله ولا أطمع في أن يجمع السواد الاعظم على استحسانه وأفقد عطف العارفين ، وأظن من يسرون ما يسرون ، ويظهرون بما يظهرون ، يذهبون الى أن القوم أغبياء لا يدركون .

كان لي صاحب من أعظم رجال الدين ، وكنت أعجب بأوليته وبما فطر عليه من حب الحق والعدل ، وفي سبيل ذلك أوذي وما التوى ، فلما تقدم به الزمان ، وتربع في دست السلطان ، هان عليه بغية جلب المغانم لمن يحب ، ووضعهم مواضع ليسوا لها بأهل أن يحلل لنفسه سلب الحق من صاحبه ليلقيه الى يد من لا يستحقه مدفوعاً بعامل الشفقة والعطف . وسالب الحق من صاحبه وحامله الى غير أهله سارق . والسرقة انواع كما أن الرشوة انواع . ولطالما اشتهيت أن أرى في رجال الدين من يعملون حقيقة بما علموا . وشهدت بعضهم قد عفوا عن أشياء لقصور فيهم أو عجز او لتوقع مظهر أكبر ومغنم أوفر ، حتى اذا فتحت أمامهم سبل الانتفاع أفتوا لأنفسهم بجواز ما اجترحوا .

وما برحنا منذ الزمن الأطول بين عالم ذكي يدور مع الأيام كيف دارت ، ويدوس كل ما يمنع عنه منافعه ويصده عن شهواته ، وعالم غبي يعتقد الخرافات ويعف عن المحرمات . الأول شيطان متحرك والثاني غبي

اخرس . وفتوى كل منها تكيفها اهواؤه . ذكروا أن أحد علماء مصر قال في درسه ذات يوم يحاول الطعن على الشيخ محمد عبده وكان اصطاف في الغرب ، ان كل من زار أوربا كافر فقال له أحد الحاضرين : ما قول سيدنا الشيخ في الجناب العالي الخديوي فهو يسافر كل سنة الى تلك الديار ؟ فكان جوابه على البديهة : ويستثنى من ذلك صاحب الأمر والنهي الذي يذهب الى الغرب لاقتباس نظام الحكم النافعة .

وعلى ذكر الكفاية العلمية يدعوني حبي لمصر أن أصرح هنا لمن يتهالكون على دخول مجالس المديريات والنواب والشيوخ وسلاحهم في اهليتهم لها أموالهم ووجاهتهم ثم حزبيتهم ومصانعتهم وما اليها ، وهم غير أهل للجلوس على تلك المقاعد ، انهم بعملهم هذا يخونون المصلحة ويخونون أنفسهم . أما المصلحة فضررها ظاهر لان فاقد الشيء لا يعطيه ، والمجالس في حاجة الى من يغذيها بعلمه وتجاربه ، ومن يعجز عن هذا يسيء الى نفسه ، والعاقل على كل حال لا يرضى أن يكون عالة على غيره في أمر يحتاج الى روية ودربة ، اما أن يجلس مع الجالسين كالصنم لا يعيد ولا يبدي ، فليس من شأن الشريف . وفي بعض الأمثال الافرنجيـة . من وسد اليه عمل لا يحسنه وقبله فهو وضيع .

الحروف اللاتينية

وهـذا ما قلته في مؤتمر اللغة العربيـة في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة عندما ناقشت صاحب هـذا الاقتراح : سمعت زميلي عبد العزيز باشا فهمي يتلو علينا موضوعه في الدعوة إلى الاعتماد على الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية ثم قرأت مقترحه مطبوعاً فرأيته مفتناً في ايراد البراهين عارفاً بالاستطراد والاستنباط ، يريد أن يؤثر في عقل السامع والقارئ . وقد وقعت له مقاطع من الـكلام خانه فيها اللفظ فجاءت تحمل هنات غير قليلة ومنها قوله إننا نحن الضعاف أي العرب نطأطئ كواهلنا أمام تمثال اللغة نحمل أوزار الف وخمسمائة سنة مضت وأننا من أتعس خلق الله في الحياة لأننا لم نعالج التيسير الذي فعله أهل اللغات الغربية ، وأن هذا الاستكراه الذي يوجب على الناس تعلم العربية الفصحى هو في ذاته محنة حائقة بأهل العربية وان ذلك طغيان وبغي وأن رسم الـكتابة العربية طلاسم مستغلقة مبهمة وُكِلَ أمر الناس في فكها إلى السحر وما ينقـذف في القلوب من الالهامات والاشراقات إلى غير ذلك مما لم يكن غير اسلوب خطابي يحاول أن يخرج منه ليفرض على الناس اختراعه الجديد . وما أظن زميلي معتقداً كل الاعتقاد أن الواحد من أبنائنا اليوم يقضي كل سني الدراسة من أولي وابتدائي وثانوي وعال وجامعي ويخرج بعد هذا الزمن الطويل المريض غير مستطيع بسبب سوء الرسم قراءة أي نص مطبوع — بل المخطوط — من لغته العربية قراءة صحيحة . هذا يا سيدي الأستاذ مبالغة لا يؤيدها المشاهد المحسوس وكذلك قوله ان رسم الـكتابة العربية هو الـكارثة الحائقة بنا في لغتنا وأنه رسم لا يتيسر معه قراءتها وان هذه المشقة تحمله على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين لأن قواعدها عسيرة ورسمها

مضلل وأن الأمة إذا أجابته إلى دعوته وقبلت الحروف الهجائية التي زعم انها لا تخل بشيء من نغمات الحروف العربية تنجو من هذا الحرج ويخلص العرب من ذخائر مؤلفات كلفتهم هم وأسلافهم الهيل والهيلمان (كذا) إلا أنه اعترف في مكان آخر أن الضرر من ذلك هو القضاء على تراث الأجداد وأن هذا التراث يمكن للحكومات أن تتلافاه وذلك بانفاق مبلغ من المال لطبع امهات المعاجم اللغوية وامهات كتب العلم والأدب والفنون بالرسم الجديد وما إخال الاستاذ إلا ويعتقد أن هـذا من الأقوال المعسولة لأنه يتعذر على أهل الأرض تلافي ما يفوتنا ولو قضوا في هذه المهمة مئة سنة بالنظر لسعة التأليف في لغتنا وكثرة المؤلفات الصالحة التي كلفتنا ولا فخر الهيل والهيلمان .

بلغ بالاستاذ فرط الغيرة على تبسيط اللغة أن رثى لها بما فيها من صعوبات ومنها تبرمه بما في الأفعال من مجرد ومزيد وبالفعل الثلاثي يتبع أوزاناً مختلفة ومن أن للفعل الواحد عدة مصادر ومن أن الأفعال تبنى للمعلوم والمجهول والاعلال والابدال والمعرب والمبني ، ونعى على العربية تعدد جموعها ولشكل الواحد من الأسماء الجامدة جملة أشكال وقال إنه ليس لهذه اللغة في مفرداتها وقواعدها أول يعرف ولا آخر يوصف يريد أن يقول إننا لا يضرنا أن نجعل لغتنا كلغة بعض القبائل البدائية قبل عصر التاريخ ساذجة كل السذاجـة بألفاظها وتراكيبها لا شواذ فيها ولا مركبات بل بسائط يتعلمها من يتعلمها في بضع ساعات أو بضعة أيام وما أظن ما اختاره لهذه اللغة اصابته لغـة من لغات العلم لعهدنا أو لغة من لغات الشرق في آسيا . وقوله هذا خيال جميل إلا أنه متعذر كل التعذر على التطبيق . وماذا نعمل وهكذا خلقت لغتنا ونحن لا بد لنا في وضع لغة اخرى مكانها حتى نرضي دعاة التبسيط ولي أن أقول إن هـذا شعر والشعر لا يدخل في الأبحاث العلمية .

يقول زميلي إنه يوشك أن تغزونا اللغات الأجنبية فنترك لغتنا ونستعيض عنها بلغة من لغاتهم وهـذا خوف لا محل له لأن العربية تزداد كل يوم

رسوخاً في نفوس أهلها بفضل النهضة التي نهضناهـا وبفضل توفر أسباب التعليم والنشر . ومما قال ان لغتنا كانت سبب تخلفنا في مضمار الحضارة وما أظن شيخ القضاة إلا ويعرف أن لانحطاط الشعوب الاسلامية في بعض مظاهرها عوامل اخرى لا علاقة لهـا بحروف الكتابة وقواعد الرسم وأن برهانه هـذا ضعيف لا يصح الاستدلال به على ما هو بصدده . انه يعرف كما نعرف جميعاً أننا أنشأنا مدنية شهد لعظمتها كل من قاموا بعدنا وما حال هذا الخط ومن قبله القلم الكوفي دون الانتفاع بما آل الينا من علوم القدماء وما وضعناه نحن بصنعنا وقرائحنا من علوم وآداب كلفتنا الهيل والهيلمان كما يقول زميلي الحصيف .

وتبرم حضرته من تعدد اللهجات العربية وأنا ابشره بأن هذه اللهجات يقل عددها ولا يزيد كما ادعى لأنها تقترب كل يوم من الفصحى بفضل المدرسة والجريدة والكتاب والخطبـة والمذياع . أي أن اللهجات الدارجة تتضاءل أمام اللغة الأدبية ، والفصحى تتغلب على العامية اليوم بعد اليوم . ومن الحجج التي أدلى بها لاثبات قضية التمثيل لنا بالأتراك وهي في الواقع حجة عليه لا له . فالأتراك لما أخذوا بالحروف اللاتينية وقضوا على الأمية فيما زعموا بهذه البدعة الجديدة التي ابتدعوهـا قطعوا كل صلة بينهم وبين ماضيهم ، وعمر هذا الماضي لا يقل عن ستمائة سنة . وهل الشعوب إلا تكملة ما صنع أجدادها وورثوه عنهم ؟ وشأن العربية غير شأن التركية لأن العربية تحمل تراث العالم الاسلامي كله وإذا عملنا عمل الأتراك نقضي على تراث علمي وأدبي وديني دام مطرداً خمسة عشر قرناً مما لم يعهد لأمـة مثله اللهم إلا إذا صحّ ما نقل عن قدم المدنية الصينية . ومعنى الزهد فيما خلفه العرب من آثار القضاء على مشخصاتنا ولا يرضى بذلك عربي ولا مسلم .

سمعت التركية من أرقى الطبقات وسمعتها من الفلاحين والباعة ، سمعتها من ابن استانبول عذبة رقيقة وسمعتها من ابن آسيا الصغرى خشنة جاسية فما ثبت لي أن الحروف اللاتينية وفت بنبراتها ورنة ألفاظها فما بالك بهـذه

الحروف إذا اعتمدت للتعبير عن مفردات لغة فيها الثاء والظاء والطاء والحاء والخاء والذال والضاد والصاد والعين والغين والقاف ، والتجويد أو موسيقى الألفاظ حاكم متحكم في كل لفظة وفي كل نبرة .

خسر الأتراك اي خسارة بما أتوا من العبث بلغتهم فلا نريد أن نتقيل مثالهم ولا نجوّز لأنفسنا الاقتداء بأهل لغة من اللغات فمنحانا غير منحاهم ولغتنا تتسامى عن جميع لغات الشرق . وها نحن نرى اللغة اليابانية وحروفها صور وأشكال قد تصعب على المبتدئ بحسب الظاهر وما منعت اليابانيين من أن يأتوا بمدنية ضاهوا بها مدنية الانكلوسكسونيين أساتذتهم وقد بلغت أشكال اللغة الصينية مائة الف شكل وما حالت أيضاً دون تعلمها وضنانة أهلها بها . إن هذه الصعوبة الموهومة في لغتنا ما وقفت في سورية دون تعليم الرجل البالغ من ابن العشرين إلى الخمسين في المدارس الليلية التي أنشأناها بما أخرجناه به في أربعة أشهر من الأمية يتعلم خلال هذه المدة القصيرة الكتابة والقراءة والحساب (الأعمال الأربعة) ويقرأ في المصحف وفي الجرائد ويكتب ما يريد بعبارته .

إذن فالعربية ليست من الصعوبة بخطها على ما يزعم رصيفي ، والعرب إذا قصروا في التصوير فقد عوضوا عنه هذا الخط الجميل والنقوش كما قال أحد علماء المشرقيات . واللبس إلى حروف الكتابة باللاتينية أقرب من اللبس إلى الحروف العربية وقد يحل الغربي نفسه الكتابة العربية قبل أن يحل حروف الكتابة باحدى اللغات اللاتينية .

العربية تحتاج إلى من يحسن تعليمها على الأصول الحديثة . لغتنا سهلة يوم نتعلمها وكلكم تعرفون أن عدم العناية بتثقيف العامة وفشو الأمية فيهم كان فيه الضرر البالغ ، نحن هنا لاحياء العربية ويخشى أن تدعو هذه الضجة حول هذا الموضوع إلى زعزعة السمعة الادبية التي أحرزتها مصر فان في اعتماد الحروف اللاتينية بدل هذه الحروف العربية الجميلة تناقضا مع الغاية السامية التي انشئ المجمع لأجلها . نحن لا نملك بوجه من الوجوه

ادخال جديد مضر يكون منه القضاء على قديم مقدس . هـذه الحروف هي ملك الشعوب الاسلامية كلها اختارها ثلاثمائة مليون من المسلمين إذا ابطلت تخسر مصر ويخسر العرب ويخسر الاسلام .

وأرجو رصيفي أن لا يحاذر من موت عربيتنا الحسناء بفعل نشر لغات الاجانب بين أظهرنا وألا يدركها هـذا المجمع ولا عشرون مجمعاً من مثله فان هذا لتشاؤم غريب واللغة كل يوم تزيد انتشاراً على الالسن والاقلام. ولغة حرسها القرآن هذه القرون الطويلة لا يخشى عليها البوار وهي تزيد قوة مع الأيام وأتوسل إليكم يا رصفائي ألا نطيل المناقشة في هذا الموضوع لأن ذلك يقلل من قيمة عملنا ويظهرنا في الملأ بمظهر لا نرضاه لأنفسنا . اقول هذا على شدة اعجابي باجتهاد صاحب هذا الاقتراح وسلامة قصده .

قصص مصرية

قص مصري عارف على أحد أصحابي قصة عجيب صدور مثلها من أمي قال : حاول جندي من جنود محمد علي الكبير مرة أن يغتاله بخنجر كان يحمله في كمه ، ولما سدده الى صدره اتقى ضربته بيده وقال له في الحال قد عفوت عنك وأنا اعرف بأنك لستحق الترقية وأن تكون ضابطاً ، وقد رقيتك الى رتبة كذا ، فشكر وتهلل ، وبعد قليل رقى به رتبة أخرى فتزوج الرجل ، وتوسع في عيشه ثم رقاه ترقية ثالثة فرابعة حتى وصل الى رتبة عسكرية عالية . واتى به ذات يوم الى حضرته ، وقد أعد له سكيناً فقال له الآن اقتلك ، بعد ان تنعمت بنعيم الدنيا ، لتفارقها آسفاً ، ولو قتلتك يوم حاولت اغتيالي لقتلت بك صعلوكا ، وربما هانت عليك يومئذ مفارقة الحياة .

حكى الاستاذ محمد صفوت باشا من وزراء مصر قصة غريبة كانت السبب في تبدل أجناس حكام مصر على عهد الخديوي اسماعيل قال : كان الموظفون في الحكومة المصرية على ذاك العهد من الاتراك أومن أجناس أخرى غير مصرية . ونزل ذات عشية أحد هؤلاء الاتراك ، وكان مأموراً في بعض أعمال مركز السنبلاوين على علي العبد عمدة احدى قراها (إكوة) يصحبه خمسة من الفرسان ، فقال له : نحن ستة رجال نريد منك ست فتيات من ذوات الجمال نلهو بهن الليلة عندك ، فقال له العمدة : على الرحب والسعة ، وهذا يكون بعد العشاء ، وأخذ يظهر أنه يهيء لهم طعاماً ، والمأمور يلح في طلب البنات والعمدة يطاوله ويقول له : لا يتيسر ذلك قبل أن تغيب الشمس ، فان هؤلاء البنات يحاذرن الخروج من بيوتهن إلا مع الدجى . ثم قال له : ان النساء يفزعن من رؤية السلاح فلو تجردتم منه فتجردوا ووضعوا سلاحهم في مخدع مصاقب لمخدعهم ، ثم جاءهم باربعة وعشرين رجلاً

يحملون حبالا فأخذوا يقيدون الفرسان وقائدهم ، ووضعوهم في غرفة اقفلوا بابها اقفالاً محكماً وأوعز الى رجاله ألا يقدموا للواحد منهم أكثر من رغيف ومقداراً من المش في كل وجبة ، وذلك من تحت الباب ، وامتطى حصانه وراح يطلب القاهرة وواصل سراه حتى وصل الى قصر الخديوي وكان هذا خارجاً منه ، فرمى بنفسه تحت عربته ، فسأله عزيز مصر عن حاله وعما يحمل من ثوب أبيض تحت ابطه فقال له : هذا كفني إذا صدر أمرك بقتلي فهو جاهز ، وقص عليه ما وقع له مع الفرسان وما فعل بهم ، فرأى فيه رجلاً جلداً ذا شيبة جميلة ، وأعجبه ما أتاه ، وقال له : وهل في المصريين من يجرؤ على أن يعمل مثل عملك . قال : نعم يا مولاي عبدك هذا . فصدر أمر الخديوي اسمعيل بطرد أولئك المأمورين من الخدمة ونفيهم الى مكان سحيق ، وأخذ من يومئذ ينحي الغرباء عن خدمة الحكومة ، ويمين للوظائف المرتقين في المصرية من أبناء مصر .

حدث أن اعتدى بعض جند الحامية الانكليزية حوالي سنة ١٨٩٢ على بعض نساء قليوب فاوسعهم أهل البلدة ضرباً واهانة فنمى الخبر الى عميد الاحتلال أن لاحد أعيان تلك المدينة محمد الشواربي دخلاً في الامر ، وان الفتنة دبرت بمعرفته ، فاستدعى المأمور الاداري في تلك الناحية إلى نظارة الداخلية ، وهو مصري الاصل ، وقص عليه المستشار ما بلغ مسامع العميد في هـــذا الشأن ، فنفى المأمور ان يكون للشواربي يد في الفتنة فقال له هل تجرؤ ان تقول هذا امام العميد ؟ قال : نعم أقوله ولا أبالي لانه الحق . فاجتمع المأمور إلى العميد ، وأبان له الاصل في وقوع الحادث ، وان نساء القرية لحق بهن اهانة من بعض الجند وهن يملأن جرارهن من النيل ، فقابلهم رجال البلد بما يليق بمن يدفع عن عرضه وعاقبوهم بما يستحق اعتداؤهم . وانفصل الامر على ذلك وطوي أمر هذا الحادث .

مضى نحو عشر سنين أصبح خلالها شواربي باشا من احباب العميد يوالي زيارته له ويتعاطفان ويتهامسان . وفي ذات يوم احب الشواربي أن يلتقي

مأمور بلدته ، وكان هو المأمور نفسه الذي برأه يوم التحقيق الاول في مسألة اعتداء الجند على بعض نساء قليوب ، فأبى المأمور أن يستقبله في داره في آخر ساعة من اوقات الدوام ، وبعث يرجوه ان يأتيه من الغد الى دار الحكومة ، فشق رفض المدير على الباشا ، وابرق من ساعته الى العميد الانكليزي وغيره يطلب نقل هذا المأمور الى مكان آخر ، لأنه طال مقامه في مديريته وذلك ليعم عدله الارجاء الأخرى . فبعث العميد يستدعي الباشا وقال له : إن المأمور الذي تشكو انت منه هو صاحب اليد عليك يوم الاعتداء على الحامية ، ولولا شهادته الحسنة فيك لكنت تحت التراب منذ عشر سنين ، وزاد العميد ان الباشا أذكره بهذا الرجل المستقيم الحازم ، وأنه كان يستحق الترقية منذ مدة طويلة ونسي هو ان يرقيه ، فرقاه في الحال ثم رقاه في ستة اشهر ثلاث درجات . (قص عليّ هذه القصة أيضاً محمد صفوت باشا رحمه الله)

وعلى ذكر الشواربي باشا لا بأس بأن اذكر هنا ما حدثني به أحد اذكياء المصريين منذ اكثر من ثلاث وثلاثين سنة قال إن شواربي باشا قصد ذات يوم الى عميد الاحتلال الانكليزي لورد كرومر يرجوه ان يقتصر في الري على المهندسين الانكليز لأنه ثبت أن بعض المهندسين من المصريين يضيعون حقوق الفلاحين في الري ، ولا كذلك المهندسون البريطانيون . فضحك اللورد وقال للباشا : إن المملكة الانكليزية واسعة تحتاج الى رجال أكفياء يديرونها ، والمقتدرون عندنا قلائل ، وإن من عندكم من الانكليز قد بلغوا ثمانمائة رجل فلو طلبت عشرة آخرين لا أستطيع أن آتيكم بهم لأن من الصعب ايجاد رجال كالذين عندكم من أبناء البيوتات ومن الطبقة المتعلمة المتمرنة المشهود لهـا بالعفة والاستقامة . اما إذا اردت أن آتيكم بموظفين من شوارع لندن فالخطب سهل آتيك بألوف ولكنهم لا ينفعونكم . وكان العميد لورد كرومر في حسن ادارته نفع مصر كثيراً مدة مقامه الطويل فيها عميداً .

حدثني من اثق به أن الحكومة المصرية لما كانت تبيع أراضي الدائرة السنية اشار على العميد بعض اصحابه ان يبتاع لنفسه جانباً منها فأبى وقال له إن هذه الارضين هي ملك المصريين فلا يجوز ان يقتنيها الانكليز . قالوا ولو كان للعميد مأرب في المال لخرج من مصر صاحب بضعة ملايين من الجنيهات على الاقل ولكنه على ما كانت لعطيه حكومته من رواتب ونفقات كان ينفق من ماله في هذه السبيل ، حتى غادر مصر وعليه دين عظيم وفته عنه أمته بان ردت عليه رأس ماله . ولطالما قلت لاصحابي إن لورد كرومر بسيرته الذكية كان للبريطانيين خير دعاية في الشرق ، لو انفقت انكلترا مئة مليون جنيه لتتحبب الى قلوب العرب والمسلمين ما استطاعت تحقيق ماحققه لها رجلها العظيم بحسن ادارته وفرط عفته .

اثم النبوغ

حدثني ثقة قال كان الشيخ محمد عبده مسافراً مرة الى اوربا ومعه صديقه فتحي باشا زغلول . وكان هذا يقرأ في بعض ساعات النهار على الشيخ فلسفة ابن رشد . ومن جملة من كان معهما في السفينة رجل من القضاة اسمه عرفان باشا . وحدث أن قال الشيخ لابن زغلول : الغالب أنك تخطيت سطراً فالمعنى لم يتم فأعاد فتحي نظره فقال : حقيقـة إن الأمر كما قلت يامولاي ، ونظر عرفان باشا الى الكتاب فاذا هو مكتوب بالفرنسية ، واذا بفتحي يقرأ العبارة ويعيدها بالعربية بمجرد القاء نظره على الأصل ، فدهش عرفان باشا وقال : رجل يبلغ به ارهاف الحس أن ينتبه لسطر تخطاه القارئ ، والقارئ يتلو الكلام في هذا الموضوع الصعب بالعربية مباشرة ، آخـذاً المعاني عن كتاب كتب بلغة أعجمية ، ومعنى ذلك بالفرنسية Livre ouvert – والله إن المرء ليضيع معكما ، ولذلك سابتعد في هذه الرحلة عن مجلسكما ، وتنحى ناحية خوفاً أن يلحقه اثم هذا النبوغ . والغالب أن عرفان باشا كان من الأثرة بحيث شق عليه أن يرى من تتعذر عليه مدانانهما بعلمهما وذكائهما . فكان شأنه في هـذا شأن محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب فقد روي أنه كان يأنس باهل البـلادة ويستوحش من أهل الذكاء ، وسئل عن ذلك فقال : مؤونة التحفظ شديدة .

حدثني صديقي الاستاذ أحمد فهمي العمروسي ان الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله كان صديقاً للشيخ حسن الطويل الذي ظل طوال حياته مدرساً للغة العربية وعلوم الدين بمدرسة دار العلوم بالقاهرة وهو من اعظم علماء عصره ، وكان الشيخ حسن لاحظ مرة أن الشيخ محمد عبده أعرض عنه ولشاغل بحكم منصبه فأحب أن يداعبه لما دخل محفلاً عظيماً كان يتصدره الاستاذ الامام . وقد دعي للجلوس بجانبه مراعاة لعلمه ولكنه أبى واتخذ له مكاناً قصياً ثم حكى الحكاية الآتية معرضاً بأولي الحل والعقد .

قال : يحكى أن قرية من قرى الريف كان كل سكانها من القردة وكان من عادتها انه اذا مات العمدة لا يتأتى لولده ان يخلفه الا اذا استطاع بدهائه وذكائه ان يعتقل اسداً ، فلما مات العمدة خرج ابنه هائماً على وجهه ينشد اسداً يشد وثاقه فاتفق أن مر به أسد فاستأذنه في الاقتراب منه دون أن يمسه بسوء فأذن له ، وطمأنه على حياته ، فقص عليه القرد الصغير قصته ورجا ملك الحيوانات الا يضن على احد رعاياه المخلصين بخدمة جزئية كهذه فقبل الاسد واشترط عليه ان يعود اليه عقب تعيينه عمدة فوراً ليفك وثاقه فوعده خيراً . ولكن نشوة الفرح بالوظيفة ملكت عليه حواسه وانسته وعده وظل الاسد ملقى في الخلاء غاضباً محنقاً الى ان مرّ به كلب فما كاد يقع نظره عليه حتى اطلق ساقيه الى الريح وولى هارباً ، فناداه الاسد وامنه على حياته وطلب اليه ان يفك وثاقه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء فأسرع الكلب بفك رباط الاسد وحل وثاقه ثم اراد ان يتظرف مع الاسد فدعاه لينزل عليه ضيفاً في تلك القرية تكريماً له وتشريفاً فقال له الاسد : انني احرص على كرامتي من ان انزل بأرض ، القرد فيها يربط والكلب يحل .

قصّ عليّ احد ادباء السوريين أنه بينا كان راجعاً من بلاده الى الازهر في مصر لقيته سيدة في ميناء يافا وكلمته بلهجة مصرية وسألته فيما اذا كان

ذاهباً الى مصر القاهرة فأجابها بالايجاب ، فقالت له بكل سذاجة : اريد ان احملك هذا الجواب لتعطيه الى امي . فقال في نفسه لا بد أن يكون لهذا الكتاب شأن وإلا لكانت السيدة وضعته في البريد والاجرة قرش واحد . فأخذه ووعدها ان يوصله . ولما بلغ القاهرة حدثته نفسه ان يسلم الكتاب الذي يحمله الى البريد تخفيفاً من عناء البحث عن بيت المكتوب اليها ، وعاد فرجح أن يحمله بنفسه ، وبعد بحث ساعة عن دارها في خط السيدة زينب اهتدى اليها ، ولما فتحت له ربة الدار الباب وعرفت ان معه كتاباً من ابنتها اخذت تبكي ، ثم رجته ان يفض الكتاب ويقرأه عليها فقرأه ، وهم بالانصراف فرجته ان يتريث حتى تأتي ابنتها ولسمع هي ايضاً كتاب اختها ، معتذرة انها مثلها لا تقرأ ولا تكتب ، فجاءت ابنتها بعد حين وتلا عليها كتاب نزيلة يافا ، واستأذن بالذهاب فقالت ربة الدار إن ابنها يحب ان يسمع كتاب اخته ايضاً وهو لا يلبث ان يحضر ولا بد من ان تتغدى معنا واعتذر ثم ما وسعه الا القبول ، ولما طعم اراد الانصراف فقالت من يخرج في هذا الحر ؟ ولا بد ان تقيل عندنا فقال ، ولما تم هذا الاكرام واحب مغادرة البيت اخذت عليه ربته العهد ان يزورهن كل اسبوع وان يعهد اليهن بغسل ثيابه . وبعد قليل ثار الازهر فكان صاحبنا من جملة من اعتقلوا من طلابه . وبعد ايام من سجنه سأله مدير السجن اذا كان له زوجة فقال : لا . قال : رأيت منذ ايام سيدتين تقفان على باب السجن في الشمس ساعات تسألان عنك فقال : ان لم يخطيء ظني فالسيدتان هما اللتان حملت اليهما الكتاب من يافا وقص عليه قصتهما . ولما نظر اليهما تأكد ذلك ورجا السجان ان يمنعهما من حمل طعام اليه بدعوى ان ذلك محظور على السجناء وقد لاحظ انهما طالبتان ذلك من غير شك ، فلما أبى صاحب السجن اجابة طلبهما اجابتا : اذا كان جلب الأكل ممنوعاً فهل يمنع جلب الشراب ؟ فكانا مدة سجن هذا الشامي يأتيانه كل يوم بمقدار عظيم من السكر والليمون والثلج ليعمل منه شراباً يكفيه ورفاقه

في السجن جميعاً . وظلت الام وابنتها على الوفاء لحامل الكتاب حتى خرج من القطر المصري للمرة الأخيرة . فلما قص عليّ هذه القصة قلت له هذه حقيقة اخلاق المصري وهذا مثال صريح من وفائه وكرمه ، تأصلت فيه هذه الأخلاق ولعلها كانت في الطبقات النازلة لا تقل عن الطبقات الاخرى ، تناولت سكان المدن وسكان الريف ، وربما كانت في الريف جلية أكثر من الحواضر .

لما شرع الخديوي اسماعيل بان يعهد بادارة مصر للمصريين أبناء الفلاحين كان مدير بني سويف احد أوائك الموظفين الجدد وهو من اهل تلك الناحية فأخذ أهله وجيرانه ومعارفه يدخلون عليه ويقضون ساعات في غرفته حتى اصبحت كأنها مقهى او منتدى ، يتحدثون ويتناقشون ، ويتناولون القهوة ويدخنون ، فضاق صدر المدير الجديد ، وهو الحريص على ان يخلو بنفسه ليفض مصالح أرباب المراجعة ، وفكر في الامر فلم يجد أحسن من أن يعهد إلى الفراش التركي بأن يدخل غرفته ، والمجلس غاص بالانسباء والحاسيب والمصانعين ، ويبربر بالتركية ويقول لهم ما يفهمون منه طردهم ، ففعل ما أراده المدير على القيام به . ولما كان الفراش يزمجر خاف المدير نفسه صولته ، واختبأ وراء مكتبه مأخوذاً بالعادة التي تأصلت من خوف سطوة الغريب . وليس من السهل نزع عادات تأصلت قروناً إلا بطول تربية حرة ، وتوالي بطون بعد بطون .

عرفت صديقي الاستاذ امين الرافعي صاحب جريدة الاخبار المصرية وطنياً صادقاً يخدم مصر وسياسة مصر ويخدم الاسلام والمسلمين بروحه وقلمه ونبوغه ، وعرفت انه شريف بكل مافي الشرف من معنى . قال لي من كان له به خلطة وكان له مؤازراً في تحرير صحيفته أحياناً إن يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزارة المصرية عرف ان حالة أمين الرافعي المالية سيئة وكان يعجب بخطته ، وان كانت الاخبار ، لا تتحرج من نقد حكومته ، فأرسل اليه كتاباً

معه حوالة بعشرة آلاف جنيه معونة لجريدته ، وقال إنه يرسل هذا المبلغ من يحيى ابراهيم القاضي لا من يحيى ابراهيم رئيس الوزراء وانه لا يطلب اليه ان يغير خطته ويكف عن نقد حكومته بل يريده على ان يظل على ما هو عليه لتستفيد الحكومة من آرائه فما كان من الاستاذ صاحب الأخبار إلا أن رد المبلغ مع الشكر ، وحجته انه ما أخذ شيئاً من أحد حياته بدون عوض ، ولا يريد ان يعود نفسه الآن أخذ شيء من احد . وجاء بعد حين فتح الله بركات باشا من أكبر زعماء السياسة في عصره ، وعرض على أمين الرافعي ان يتكفل له جماعته بوفاء ديونه ويأتونه بمحررين يدفعون هم أجورهم ، ويعطى هو كل شهر مئة جنيه ، ولطبع له الجريدة ، ويأخذ هو جميع وارداتها ، على ان يبقى على ما هو عليه حراً في آرائه ونقده ، فلم يقبل هذا الاقتراح ايضاً وهو في أشد الضيق . وبعد بضعة ايام وقفت جريدة الاخبار اضطراراً ، ولم يرض صاحبها منة أحد ، وفضل ان يوقف عمله على ان يتناول شيئاً من طرق لا يرى معظم الصحافيين بأساً من أن يتناولوا منه . قال من قص علي هذا إن احدى كبريات الصحف الانكليزية لما نعت أمين الرافعي قالت مات رجل يقل جداً في العالم من لهم مثل أخلاقه اما في مصر فلا . نعم امين الرافعي أمين الصحافة العربية ولو سار أرباب الصحف على هذا المثال من العفة لـكان اسمها غير اسمها وتأثيرها في الافكار أكثر من هذا التأثير .

قال لي صديق قصدت فلاناً ذات يوم بكرة وكنت أنسيت عنده حافظة أوراقي بالامس فالتقيت في أسفل السلم بانسان لم يتبين لي من ملامحه ان كان مصرياً او سورياً او ارمنياً ولا ان كان تاجراً او زارعاً او مستخدماً في بعض المهن وصعدت معه بالمصعدة الى دار صاحبي فدخلنا عليه سوية فبادرني هذا بقوله نسيت الحافظة امس خذها ، وخف لتوديعي على حالة بشعر بانه مضطرب بعض الاضطراب ، وكأنه يريدني الا اسمع كلام الرجل الذي كان قاصده مثلي ، وما بان لي سر هذه المعاملة الخشنة الا هذه الأيام وقد اتهم

صاحبي ذاك بالاتجار بالمخدرات فظهر ان الشخص الذي ما احب ان اجتمع اليه طويلاً ربما كان شريكه في هـذه التجارة الشائنة . فقلت له ان من الاسرار ما لا يكشف إلا بالعرض وبعد مضي اعوام ، وربما يقتضي لكشف الأمر البسيط عشر سنين وسر صاحبك ما عتم ان كشف بعد اشهر قليلة . وانا وقع لي شيء من هذا القبيل يصح درجه في باب الأقاصيص ذلك اني كنت اصدر جريدة المقتبس فانتخبت محكماً في قسمة اراضي عظيمة مختلف عليها بين اخوين وابناء اخ ، وشق على احد الأخوين ان اكون محكماً لانه شعر انه على جلال رتبته — باشا — لن يحكم المحكمون الا بالحق الذي يرونه في تقسيم الأراضي بين الورثة ، وهو يريد ان يأخـــذ منها حصة الأسد . ونقل لي انه قال عني لأحد شركائه ومن هذا فلان الذي جئتم به محكماً عنكم وهل هو إلا صباغ ؟

وما أدركت يومئذ قول ذاك الباشا المؤدب وما يقصد من وصمي بالصباغة اللهم إلا انه كان يشير إلي أني صحافي أصبغ الناس بالصبغة التي أتخيلهـا . ومضى على هذا الحادث أكثر من خمس وعشرين سنة وكنت في زيارة صديقي الاستاذ محمد عبد الرسول في دار الكتب المصرية فجاءه شيخ شاب يطلب إليه مخطوطة فسأله صديقي عن اسم بلده فقـال له إنه من أبيوقا . فضحك صديقي وأسرَّ إليَّ أن بلد هذا الشيخ مشهورة بسرقة الحمير وبتغيير أشكالها ، فاذا كان الحمار أبيض سوَّدوه وإذا كان لونه إلى السواد صبغوه أبيض ، فضحك الشيخ وضحكنا ، ورأيت الابيوقي يدرك النكتة وعلى شيء من الأدب فسألته عن اسمه وعمله ورجوته أن يكتب لي في مفكرتي اسمه واسم بلده ، وكان من طلاب التخصص في الأزهر ، ودافع فيما كتب عن قريته ، وأنكر أن تكون الآن كما كانت بالأمس ، وختم الصفحة التي كتبها بالآية الشريفـة (وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وعند ذلك تجلى لي سر قول ذاك الباشا الدمشقي أني صباغ وتمنيت لو حقق الله لي هذه الصفة لاستطيع صبغ الحمير بالصبغة التي اريدها.

ملك بالمجان

دعيت الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد بأكسفورد في صيف سنة ١٩٢٨ والتقيت في الفندق بباريز بسمو خديو مصر السابق عباس حلمي الثاني ، رأيته واقفاً في رأس السلم فتصافحنا تصافح الاخوان ، وتعانقنا تعانق المماثلين ، ودعاني من الغد الى غابة بولونيا لتناول الغداء معه ، وقد اشار اليّ أنه يرغب في تقلد ملك سورية فقلت له ان سورية تسعد بتولي أمرها رجل من آل محمد علي خصوصاً وسموه عرف ادارة الملك ومرن على الأعمال الاقتصادية والمالية ، وبتوليه زمام الشام يدخل روحاً جديداً اليها . فأشار اليّ ان ابحث في لندن عن رأي الحكومة البريطانية فيه . فحرت في أمري كيف اصل الى التعرف الى احد من بيدهم شؤون السياسة الانكليزية وهذا يحتاج الى الظهور بمظهر ما كنت مستعداً للظهور به . فلما عدت الى باريز سألني الخديو عن المهمة التي انتدبني اليها فقلت له كلاماً مبهماً خلاصته انه اذا لم يحسن سياسته مع الانكليز وهم غاضبون عليه لماشاته السياسة العثمانية الالمانية خلال الحرب الكبرى فان من العبث التشبث بهذا الأمر .

ذكرت ما جرى هذه الأيام وقد مضى الخديو الى جوار ربه تاركاً بضعة ملايين من الجنيهات وليس له غير ولد واحد ، فقلت لو ألهم يومئذ بأن يصرف مبلغاً من المال في الدعاية كاستكتاب مقالات في الصحف البريطانية المقروءة واعداد مآدب للتعارف والدعاية واهداء هدايا لمن يلزم ، واهل سورية من وراء ذلك ينادون به ملكاً عليهم لتولى صاحبي ملك الشام . فالامساك أضاع علينا ملكاً حصيفاً كان اقل ما يعمله من الخير لنا ضم شملنا تحت لواء واحد ، وربما كانت الشام اندمجت في مصر بعد زمن ليس بطويل .

م (٣٣)

افلاس عن طمع

من حق كل انسان ان يحتال لمعاشه بالمعقول من الطرق لا بالاختداع والختل . وذهب بعضهم الى انه ما دام حكم من يسرق دجاجة حكم من يسرق جملاً ، وحكم من يسرق مصرفاً حكم من يسرق قرشاً ، فليس هناك ما يقعد ببعض اللصوص عن التوسع في السلب لان العقوبة واحدة . وشهدنا لصوصاً كباراً لم يقنعوا بسلب المئات وتجاوزوها الى سرقة الالوف والوف الالوف فأنشأوا مصارف في مصر والشام اعلنوا أنهم يدفعون فوائد لمن يودعون عندهم اموالهم تربو على ما تدفعه المصارف الاخرى فاستغووا ارباب السذاجة وجمعوا بذلك مبالغ جناها أربابها بالتقتير والحرمان في طويل الأعوام . أخذوا لأول الأمر من ربا ما أودعوا اكثر مما تعطي سائر البيوت المالية فلما تجمع لارباب تلك المصارف ما أيقنوا انه يضمن لهم الغنى نفذوا برنامجهم الذي كانوا أسروه في أنفسهم ، فكانت دعوى الافلاس بحيث لم يسلم عشرة في المئة من رأس المال . وذهب وفر كل اولئك المساكين الذي ادخروه لشيخوختهم أو أعدوه ليستمتع به أعقابهم . والغالب ان ارباب تلك المصارف توصلوا الى اتمام أحابيلهم باساليب عرفوا بها التلاعب بالعقول وبخاصة عقول من تخدعهم الظواهر وتقضي عليهم المطامع فتغالط نفسها في الاخرق والكذاب .

وكان العامل الأول في مصارف ثلاثة من هذه المصارف الاغترار بمذهب صاحب المصرف وعندهم ان من كان مذهبه كمذهبك لا تبلغ به قلة الذمة الى أكل مالك ، وما أدركوا أن شيطان المال لا يحرم ولا يحلل ويلذه استلاب النعمة من صاحبها واقتناصها من جانيها . ومن المغرورين من خدعتهم صداقة صاحب المصرف لهم فوهموا ان الصديق يعف عن مال صديقه .

وكان من المنكوبين العاجز والعاجزة والطفل الذي يحتاج الى من يموله حتى يكبر ، ومنهم الشيخ الذي قضى عمره حتى جمع ما يتبلغ به يوم الهرم . أما اللصوص فهيأ لهم المجتمع الخارج فبرأتهم الحاكم على نحو ما تخترع ذرائع للقتلة تنجيهم بها من القتل . وكأن قوانين هذا العصر وضعت لحماية الاثرياء لا لحماية الفقراء ، وكأن لسان حال العابثين يخاطب الأولين زيدوا ما شئتم من ثروة بالطرق التي ترونها ، ويشير على الآخرين بقولها انكم لستم خلقاء أن تملكوا حتى ما قاسيتم في جمعه عرق القربة . وستنقضي القرون قبل ان يتمتع كل الطبقات بحقوقها ، وترتفع سلطة الأغنياء عن الفقراء . الدَّين بالربا لا يقول به عاقل الا في الضرورات الملجئة ، والأولى ايداع ما يوفره الصناع والزراع في صناديق التوفير بفائدة قليلة وبمبلغ معين وذلك تحت اشراف الحكومة . والوسط اذا جمع مقداراً من المال لا يكفيه لتوظيفه في عقارات أو أرض أو شركة واذا تركه في داره للأقدار يسطو عليه اللصوص وكذلك اذا اشترى به سهام المصارف وحصص الشركات يقع أيضاً في أيدي السارقين أصحاب تلك المصارف وتلك الشركات . وباسم المذهب وباسم الصداقة تؤكل أموال الضعفاء فويل للفقير من الغني .

انتقام الهي

كان جماعة يتحدثون فذكر احدهم ما خدمت به المسلمين بكتابي الاسلام والحضارة العربية . وكان في المجلس رجل عرفته قصاباً ، ودكانه قريب من بيتنا القديم ، وكان مشهوراً بين أهل حيه بنجدته وأريحيته ، فأخذ يتهلل لكلامهم ويحمد الله . فسأله بعض الحاضرين في ذلك فقال : منذ مدة طويلة اقترح عليّ أحد بني فلان ان اقتل صاحبكم الذي ذكرتموه هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر وقال انهما كافران ومن اعداء الوطن ، وتعهد لي أن يعطيني خمسين ليرة عثمانية جزاء عملي ، ووعدني أن ينقذني من ايدي القضاء اذا قبض عليّ ، افلا احمد الله على أني لم أكن آلة لمن يحاول الانتقام من رجل ينفع المسلمين كما قلتم .

نقل لي هذا الحديث بعد مرور سنين على التشبث باغتيالي وما استغربت صدور ذلك من بيت عرف أهله باللصوصية والجاسوسية . وما أدري من الذي تذرع منهم بهذا التذرع المشين ، والغالب انه ذاك الذي كان في المحكمة يعج الشرع من باطله وتزويره ، ويضج الأيامى واليتامى من اكله أموالهم ، ومن اخوة هذا اللص من تجسس للترك واهلك من تجسس عليهم من العرب ، امتهن هذه المهنة الدنيئة هو وبعض أهل بيته . وقد اخلصت هذه الاسرة في جميع الادوار في تجسسها للتركي والافرنجي ، وأنا لم أكن بالطبع يومئذ من الساكتين عن سيئات لص المحكمة وكان له من المساوي ما لو قسم على عشرة لجاءوا اشراراً يخشى بأسهم . أما هو فما رأى للخلاص من الانكار عليه اقرب من اغتيالي ، وجائزة القتل سهلة الاداء يأخذها من تركة من التركات أو سرقة من السرقات أو من دعوى باطلة يتقدم بها الى المحكمة أحد المزورين ، وبذلك ينتقم لنفسه من حيث لا يشعر به ، وربما كان يعتقد

أن يقتلني وقتل صديقي شهبندر يكم السن الناس عن الانطلاق في نقد سيرته . وما أظنه الا كان مسوقاً بأيدي الحزب المستولي على الدولة العثمانية يومئذ ، فصادف ما اقترح عليه هوى في فؤاده ، والحزب يجازيه على فعلته بابقائه في محكمته مدة يقطع ويبلع وفي ذلك ربح عظيم له .

ليس من المستغرب ما بيته ذاك الذي ضري بالعبث بالشرع فأصحاب الجبلة الرديئة لا يلذهم غير الشر ، أما من تطوعوا لتزييف خططهم فيرون ان كف أذى الأشرار أيضاً لذة لا تعادلها لذة . وسكوت العارف عن تلاعب المتلاعبين مدرجة الى تكثير سوادهم .

حقاً اني كنت اغلو في الانكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة مستحكمة فيّ لا استطيع الرجوع عنها ولو حاولته ، ولطالما نصح لي بعض أحبابي ممن يؤثرون العافية ان اشفق على نفسي وأخفف من الطعن في الأرداء ، وذلك بالاغضاء عنهم اتقاء مكروههم ، وما كنت استمع للنصح لان من طبيعة الشباب عدم المبالاة بالعواقب كثيراً ، وكنت أعد سكوتي عن الظلمة ضرباً من التقية ، والتقية ليست من مذهبي . وأري ابداً ان لا سبيل الى النجاة من الظلم الا اذا كثر الناقمون على مرتكبيه . والتغاضي زيد عن مساوي عمرو خوفاً ورياء مؤد حتماً الى تفاقم الشر .

سبحان الله ما اشد انتقامه ، فبعد ان جمع ذاك الخاسر الدنيء من الذهب والفضة ما ظن معه انه دفن الفقر على الدهر ، عمّر قصراً عظيماً جمع فيه كل نفيس مما سلب ونهب ، وجاءت الثورة تنسف القصر فأصبح رماداً تسفوه الرياح ، وحرق جميع ما فيه من متاع واعلاق .

كفاءة وعمل

أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢١ وعلى ما صادف من المثبطات انتج ما ساعدت بيئته على انتاجه : أثار الافكار وخدم اللغة العربية بما وصل الى علمه وعلم مؤازريه . وارادت بعض الحواضر العربية ان تحذو حذو دمشق في تأسيس المجامع العلمية فجاءت مصر بعد اعوام فأنشأت مجمعها اللغوي فوضع ألوفاً من المصطلحات العلمية الجديدة وبسط قواعد اللغة العربية . وكانت بغداد وعمان وبيروت تذرعت بمثل هذا الغرض الشريف فاجتمع مجمع بغداد جلسات قليلة ثم انفض عن لا شيء . واتفق ان كان مجمع عمان ناقص التركيب لقلة الرجال فاخفق . أما مجمع بيروت فمع وجود أكفياء من العلماء والادباء في لبنان حالت الطائفية على ما يظهر دون مضيه في طريقه اذ كانت كل طائفة من طوائفه تحاول ان يكون لها التفوق على الطوائف الاخرى من حيث عدد الاعضاء والتفرد بالرياسة . وما كان الداعي الى تأليف مجمع لبنان في الحقيقة الا ليقال فقط ان في لبنان مجمعاً كما في سورية . ومن الغريب ألا يتولى تأسيس المجمع اللبناني ارباب الكفايات الحقيقية ، وأن يتصدى للرياسة من ليس عنده شيء من الادوات اللازمة لها ، وقام بعده شخص آخر وكان كصاحبه لم يؤلف كتاباً ولا عرف له رأي ولا اشتهر بادب ولا شعر ولا نثر ولا لغة .

قالوا ان مائدة العلم لا يجلس اليها طفيلي لقد كذبوا فانا مازلنا نشهد في زماننا سلطة الطفيليين قائمة ، وعهدنا دعيّ العلم أقرب الناس الى الافتضاح ان لم يحقق الواقع دعواه ولو بعض الشيء ، ودعيّ العلم اليوم ينافس العلماء ويحاول ان يسكتهم بسلاطته . ومن تطالّ الى ما ليس له فهو الوقح الوتح ، واي قحة اعظم من ان يتذرع امرؤ برياسة علمية وهو ما اثبت ادنى كفاءة

في عمل من اعمال العقل ، ويظن مع هذا ان مجرد عرض اسمه على العارفين يوجب عليهم ان يطأطئوا رؤوسهم ويسلموا له . وقد توصل هذا المتطفل الاخير أن يطرق باب من يظن أنهم يعلون ارادتهم على المجمع العلمي العربي ليحمل اعضاءه على انتخابه عضواً مراسلا زاعماً ان هذا المجمع اذا ضمه إلى جملته يحق له أن ينتخب رئيساً في الحال للمجمع العلمي العتيد ! لتشبث بارد لا يصدر الا عن مأفون الرأي . ليت من تعلموا في بعض المدارس قشوراً من اللغات والمعارف يعرفون مقدار أنفسهم ويحاسبونها على ما تأتي وتذر وعلى ما تحسن وما لا تحسن . انحطت اللغة العربية في لبنان بعد أن أزهرت فيه زمناً ، ومن جاهر بهذا النقص قام عليه الادعياء وطعنوا فيه يريدون اثبات كفاءتهم بوقاحتهم .

بليت بيروت بعد الشهرة العظيمة التي استحقتها منذ أواخر القرن الماضي بفئة تصرف كل شيء على قاعدة التجارة الشائنة وتظن أن العلم تجارة ، وفي وسع من يتعاطاها برأس مال قليل أن يشق طريقه في الحياة ، ولتعتقد أنها والعلماء سواء تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون وتلبس كما يلبسون . اما طائفة المصطفين الاخيار فقد رأت العزلة وما تنازلت أن تنزل الى ميدان تنافس فيه أرباب الدعوة المريضة فخلا لهؤلاء الجو . ولو تولى الاكفياء القياد لابانوا على الاقل لاؤلئك الطفيليين مبلغهم من العلم والعمل

عزة النفس

قص عليَّ أحد أصدقائي من الوزراء السابقين أن أحد زملائه ذكر له أنه كان يرجع اليه خلال وزارتهم أمر توزيع النفقات السرية التي تصرف في الدعاية وأنه رأى كل من أراد اعطاءه من ارباب الصحف يقبض ما يسمح له به شاكراً الا صحافيين اثنين فانهما أبيا تناول شيء ، مع أن احدهما أقرب الى قبول ما يعطى ، وعف الثاني عن أن يقبل شيئاً مع تصريح الوزير له بان يعطيه مبلغاً أكبر مما يتقاضاه زملاؤه .

وعرفت كاتبين فنانين من أسرتين نبيلتين اشتغلا بالصحافة وما تناولا ما عرض عليهما مراراً من المعاونات المالية ، وأثبتا بتعففهما أن نبل المحتد اذا اقترن الى التربية الفاضلة جاء المربّى جدّ شريف .

كم من فقير غني النفس تعرفه ومن غني فقير النفس مسكين

وللقاريء ان يسمي المال الذي تصرفه الحكومات في الدعاية بالاسم الذي يعن لخاطره . يسميه معونة أو جائزة او رشوة ، وكل ما يطلقه من الاسماء لا يخرج عن معنى أخذ شيء مقابل خدمة لا يقوم بها الآخذ ان لم يقبض الجعالة ، ولا يدفعها المعطي إلا إذا أخلص القابض في اتمام مايتطلبه منه .

ومن تدبر تناول الصحافيين أموال الحكومات حتى يجملوها في الأعين لا يتأتى له مهما تجوَّز أن يجد وجه حلٍّ لما يقبضون . ومن عادة الدول أن تقطع هذه الادرارات يوم تبدو من قابضيها حركة تخالف سياستها . فالمال على هذا لا يدفع الا للحصول على أمر ما كان يتوصل اليه بغير البذل . ولو كان ما يطلب اذاعته حقاً لنشر لهم بالمجان . وربما كانت منة للحكومات على الناشر إذا اختصته بما تحب نشره قبل غيره . لا يتوقف تناول مثل هذه المعونات على الغنى ولا على الفقر فقد يكون الموسع عليه أقرب

إلى التهامها من المموز المعدم ، وليس حظ الفقراء من عزة النفس أقل من حظ الموسرين ان لم يكن اعظم ، ولو لم يكن الفقراء على جانب من الكرامة لهاجموا الاغنياء في بيوتهم واستلبوا منهم نعمتهم وكسوتهم . ومتى زادت سلاطة الفقراء توقع الاغنياء قرب زوال نعمتهم .

للحكومات اغراض تبذل في تحقيقها من الاموال التي ائتمنت عليها وتعد ما تأتيه مشروعاً ، لانه في سبيل الخير العام . ومهما كانت الوسيلة الى ماتتوقع من نشر الهيبة ، والظهور بمظهر القوة ، وتحويل الافكار الى المجرى الذي ترتئيه ، فتبعة من يتناول هذه المعونات لعظم كما حلا في الباس الباطل ثوب الحق ، وحاول افساد الضمائر وتضليل العقول . وليس لنا أن نصف الصحافي بما نصف به المحامي فشأن هذا رد الحق الى صاحبه ونزعه من غاصبه ، والصحافي إذا أجاز لنفسه أخذ المعونات يعبث بالمصلحة العامة ، ولك أن تقول بان الحكومة تفسده وهو يفسد القراء . ولو امتنعت الحكومات عن صرف المال في مثل هذه الطرق وتركت الصحافة وشأنها ، لراجت الصحيفة التي اشتهرت بصدقها وحريتها ولسقطت الجريدة التي لا قيمة لها ولا وزن لآرائها ، وفي ذلك فائدتان صون أموال الدولة والابتعاد عن تلويث سمعة الصحافة .

ظهر تلاعب في احدى دوائر المعارف مرة فما كان من مديرها إلا أن أعطى ارباب الصحف مبالغ حتى يسكتوا عما وقع من الاختلاس وسوء الاستعمال . فسكتوا كلهم وفي أقل من هذا كانوا يقومون ويقعدون ، ورشا المدير بعض الطلبة حتى يسبوا الوزير في خطب لقنهم موضوعاتها . وهناك شركات تضيع حقوق الناس وتتعدى حدود قانونها لا تذكرها الصحف بكلمة نقد ولا نصح ولا رجاء لانها تقبض على رأس كل شهر ثمن امتناعها عن الكلام . فهي مضطرة الى التغاضي عن حقوق أرباب الحقوق مخافة أن تنقطع المشاهرة .

حمل الغرب الينا مفاسده فضممناها الى ما كان عندنا من مثلها فزدنا ضلالاً وخبالاً ، وان في تسخير الكاتب قلمه لخدمة حزب أو دولة أو شركة على صورة لا تخرج عن طمس الحقائق والعبث بحق الغير لمن اعظم المضرات على الحاضر والمستقبل .

الثورة السورية

شهدت دورين كانا أشد أدوار حياتي دور الحرب العامة (١٩١٤ — ١٩١٨) دام أكثر من أربع سنين ودور الثورة السورية دام نحو عامين (١٩٢٥ — ١٩٢٦) وقد سايت نفسي في الحرب الكبرى برحلات قمت بها في بعض أرجاء السلطنة أما في الثورة السورية فلم تتجاوز البقعة التي اضطربت بها أكثر من أربعة كيلو مترات واضطررت إلى أن ألزم داري زهاء سنة ونصف لا أخرج إلا بعد الشمس وأعود قبيل الغروب ، وتخلفت عن زيارة مزرعتي حوالين كاملين ، وحرمت كل نزهة في الضواحي ولو على ميل من المدينة .

هكذا اقتضاني التوقي يومئذ ولعلي كنت اتهم بمالأة الثوار لولا هذا الاحتياط — ومنهم من التحق بالثورة للنهب ومنهم الشريف المخلص الذي ثار في سبيل الحق والحرية — أو يتهمني بعض تجار الوطنية بمماشاة السلطة الفرنسية . وكنت في حرج وتقلقل وما احسست في حياتي بملل كما احسست أيام الثورة ولا حجزت حريتي كما حجزتها طوال أيامها . اني كنت بين عاملين قويين إن نصحت الثوار خونوني وإن محضت رجال السلطة النصح ارتابوا في أمري وآذوني . والعاقل على كل حال يمتنع في الازمات من التصريح برأيه وأسلم له أن يتعامى ويتجاهل .

كنت عند قيام الثورة من الفئة التي لا تقول بها لاعتقادي بانها تخرب وتفني وقلما تنتج بقدر ما تنفق ، فلما اندلع لهيبها عدت احاول تخليص شيء من النار وتخفيف الشر ما أمكن . وهذا المنطق لا يجوز أيام الثورات والنفوس متحمسة ، والثائر مستعد للبطش بكل إنسان ، وصاحب السلطان لا يركن إلا لمن يماشيه ويعاونه على العمياء معاونة فعلية .

نشأت بيني وبين قائد موقع دمشق الجنرال اندريا معرفة خلال الثورة وأقسم لي مرة بشرفه العسكري وبحياة ابنه الوحيد أنه لا يحب أن يقتل أحد منا ولا من جيشه ، مع ان الحرب صناعته وما خلق إلا للضرب والطعن ، وأنه لا يحارب إلا مضطراً ، وطلب مني أن اعلن ذلك في الملأ وصار يلقاني وألقاه منذ بدأ الصالنا بزيارته لي في المجمع العلمي العربي ، ثم عرض عليّ الوزارة أربع مرات ، ولما قلت له إني إذا تقلدت الوزارة يقتلني الثوار في فراشي قال : نحميك . فقلت له : دعنا من هذا يا قائدي احموا أنفسكم أولاً . وقلت له : إني أخشى عادية الثوار . فقال لي ، إني على يقين أنك إذا خرجت إلى الغوطة يُقبل الثوار يديك لما لك من المكانة عندهم . وأنا كنت موقناً أن لا معنى لقبول الوزارة والثورة مشتعلة وخصوصاً وزارة المعارف ، وأي معارف وأي مدارس مع ثورة .

تعرفت إلى السيد الكلير رئيس محكمة الثورة وشكرته على تبرئته صديقي فخري بك البارودي ، وكان برّأ كثيرين ممن جيء بهم إلى محكمته من أبناء هذه الديار . فقلت له إنك بتبرئتك الاستاذ فخري بك والقنابل تلقى على دمشق ، والناس يقتلون في الشوارع والبيوت والحقول والحدائق ، قد أشرت بلسان الحال إلى أن هناك شيئاً أفعل من كل هذا وأرفع مكانة اسمه (العدل الفرنسي) الذي مثلته ، وإن وجود أمثالك في سورية يقيمون العدل على هذا النحو الشريف لأنفع لفرنسا من عشرة طوابير من الجند تنزل ديارنا .

كانت المسائل في الثورة إذا ردّت إلى الضباط الفرنسيين ورجال القضاء المدنيين منهم تدخل في طور معقول في الجملة ، وإذا رجع الأمر إلى من سموهم الأنصار ، وهم مؤلفون من شركس وأرمن واسماعيلية ، فهناك الطامة الكبرى . جاءوا ببضعة رجال اتهموا بأنهم ثوار فلما مثلوا أمام محكمة المسيو لكلير أتى يشهد عليهم مستشار الشرطة بيجان فسأله الرئيس عنهم فقال : ثوّار . قال : من قبض عليهم ؟ قال : أنا . قال : ولم يكن معك

أحد ؟ قال : كلا . قال كيف قبضت عليهم وهم عشرة ؟ قال بقوتي . فقال له لو كانوا عشر دجاجات اطلقن من قفص ما استطعت أنت وحدك أن تمسكهن بيدك فهل تستطيع أن تمسك وحدك عشرة رجال مسلحين ؟ فأطلقهم الرئيس العادل في الحال ، ووبخ المستشار الكذاب على فعله الدنيء أمام المحكمة .

واتصلت الصداقة بيني وبين المسيو الكلير وكان يتفضل ويكثر من زيارتي ويقص عليّ أشياء تدل على صفاء نفسه واتصافه بصفات الأحرار العارفين ، وأكد لي أن عواطفه اسلامية لأنه قضى ثلاثين سنة من حياته في الجزائر بين المسلمين . وباح لي يوماً أن الجنرال غاملين قائد جيوش الشرق زاره وشكره باسم فرنسا لتبرئته اسماعيل بك الحريري شيخ مشايخ حوران ، وانه قال له انك بهذه التبرئة حقنت الدماء ، ولولا ذلك لاندلع لهيب الثورة في اقليم حوران من أجل شيخ مشايخها ، ونحن لا أرب لنا أن نضرب أحداً لان فرنسا ليست في حاجة إلى نصر جديد .

أوردت هذا مثالاً من عقلية الطبقة العالية من الفرنسيين وكنت أرى صفات الخير متجلية في بعض ضباطهم وقوادهم ، ذلك ان رجال الحرب عندهم يختارون للخدمة بدون طلب منهم وأكثرهم مهذبون ، وربما كانوا من أبناء الأسر القديمة الشريفة . أما المدنيون ففيهم من يعرض نفسه للخدمة أو يقدمه لها حزبه أو جمعيته وجمهرتهم في الغالب من المتوسطين بخلقهم ومعرفتهم . وشتان بين من يكون العامل الأول في نصبه الشفاعات وبين من يُعينه رؤساؤه لمعرفتهم مزاياه . وفرق بين من يزكي نفسه ومن يزكيه من لا غاية لهم .

ولما أحيل السيد الكلير على المعاش أردت ورئيس الدولة أن نبقيه في سورية لننتفع بمواهبه وأن نجعله مستشاراً لبلدية دمشق بدلاً من اولئك الفاسدين الذين أتونا بهم فلم تقبل حكومته وغادر سورية آسفاً ونحن أشد أسفاً .

مما اتهم به

يتهمونني بالتحامل على دولة الترك العثمانيين ، ويقولون ان (خطط الشام) و (الإسلام والحضارة العربية) و (القديم والحديث) من تآليفي ملئت بالطعن على هذه الدولة . وما كان لرجل تلقى ثقافة امة وأدبها ودرس تاريخها بلغتها وغير لغتها وعاش شطراً كبيراً من حياته بين أهلها وفي ظل حكمها وعاشر طبقاتها ودرس نفسيتها إلا ويعرف عنها أكثر مما يعرفه الراضون عنها وهم من طبقة اغتنت بسرقتها وسرقة رعاياها وارتاشت بأكل أموال الأوقاف واستصفاء المدارس والمساجد أو كانت على الأقل من موظفيها أو كان غرامها بتزيين صدورها برتبها وأوسمتها ، أو ممن استهواهم الدين فشفع لتلك الدولة عندهم كونها مسلمة لا حرج عليها إذا ظلمت واستبدت .

أنا لا انكر أني أنظر في تاريخ العثمانيين نظر العربي لا نظر التركي ، ولما ظهر كتابي خطط الشام قرأه أحد الاتراك في أنقرة وربما كان من أصحاب الأخبار ، فقال : ما كنا نظن أن فلاناً يحكم على حكمنا الديار الشامية هذا الحكم الجائر . ولو أنصف لقال : تُرى هل اختلق وكذب أو قال ما وقع ؟ فالمختلق والكذاب لا يصح أن يمسك قلماً ويكتب تاريخاً . فان كنت بالغت على رأيهم في وصف عهدهم الحديث عندنا فالعهد القديم من كتبه ؟ أليسوا مؤرخين منا ومنهم شهدوا ظلم التركي وسوء إدارته ؟

لو تجردنا من كل عاطفة ، وهذا من المتعذر ، لما حكمنا على دولتهم مهما تسامحنا إلا بأنها دولة ظالمة قضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد ، وخربت المدنية التي سقطت عليها في الأقطار الواسعة التي احتلتها وما أحدثت لها مدنية يُعتد بها . وربما زعم زاعم أن ظلمها عنصرها كان أشد ، ولكن عزاء الترك أن لهم الدولة والسلطان سلطانهم يهون عليهم

ما لا يهون على غيرهم من العناصر . ولو كانت الدولة صالحة للبقاء لما رأينا أهم أجزاء أرضها في أوربا أحط من عامة الممالك الاوربية بعد مقام الاتراك فيها خمسة قرون ، ولما شاهدنا الممالك التي اقتطعت منها مثل مصر واليونان ورومانيا وصربيـا وبلغاريا تقفز إلى الترقي قفزة مدهشة منذ نجت من معوج سياستهـا .

هذه حقيقة شهد بها أهل تلك الدولة أنفسهم وامثل رجال العلم فيهم ، وكلهم على شبه اجماع مع مؤرخي الغرب بأن دولة الترك العثمانيين ما كانت إلا دولة حرب ، وليس السيف كل شيء في قيام الممالك . وإن معظم الولايات التي استولوا عليها كانت قبل حـكمهم أكثر رقياً منها يوم رحلوا عنها ، ونحن نقول لو سلم العرَب من استيلاء الترك عليهم اربعة قرون لـكانوا اليوم ارقى شعب شرقي ، ولو قُدّر للشام أن يخرج عن حكمهم يوم طرحت مصر نيرهم الثقيل عن عاتقها لـكانت الآن كسويسرا علماً ورقياً .

جزاء مادي

اجتاز مرة بطريرك الموارنة بعض قرى الاصطياف في شمالي لبنان ، وكان بعض المصطافين من مسلمي طرابلس جالسين في المقهى ، فلم يلبث بعض رعاع الموارنة أن انهالوا عليهم بالضرب والشتم قائلين مالكم لاتقومون أما رأيتم سيدنا وسيدكم ؟ فسكت المسلمون على هذه الاهانة ، ورجعوا من الغد إلى بلدهم وأخذوا يفكرون في تأسيس مصايف لهم في سير من عمل الضنية . واتفق أن عاد من المهجر أحد أبناء تلك الناحية من المسلمين وقد أثرى كثيراً فأنشأ في سير فندقاً ودوراً للاصطياف وعبد الطرق وأنشأ الحدائق ، وما جاءت السنة الآتية حتى استغنى الطرابلسيون عن أهدن وبشري وحصرون وحدث الجبة وغيرها من المصايف التي ألفوا الاختلاف اليها ، وبارت تلك الدور والقصور بواراً أبدياً . وعبثاً حاول بطريركهم أن يعوض أصحاب المصايف عن بعض ما فقدوه من الارباح وعبثاً توسل بعض أعيان الموارنة في تلك الناحية أن يعود الطرابلسيون إلى اتخاذ قرى لبنان الشمالي مصايف لهم ، وكان عمل الطرابلسيين أحسن جواب لمن أعمام تعصبهم الديني فضربوا بمادياتهم لما حاولوا أن يضربوا المصطافين بمعنوياتهم ، ونتج من هذا امتداد العمران في صقع لا يسمع فيه المسلمون اهانة ولا قذفاً ، وكان عمل أولئك الاجلاف عبرة لمن يريدون أن يعيشوا في هذا القرن بعقلية أهل القرن الماضي .

لا يبعد أن يتصدى أهل كل ناحية من النواحي القريبة من لبنان لانشاء مصايف لهم في أرضهم . وفي جوار هذا الجبل من الداخل والساحل قرى لو نظمت بنظام الاصطياف قد تفوق لبنان بجودة هوائها وعذوبة مائها

كبعض أرجاء جبال العلويين وعكار والهرمل وجبل عامل وجبل الاربعين وجبل قلمون واقليم البلان واقليم الزبداني وسفوح جبل الشيخ من نواحيه الاربع .

والشيء بالشيء يذكر فقد اذكر في ما صدر عن رعاع الموارنة في معاملة اعيان الطرابلسيين بعقوبة إلهية حلت بأحد أعيان الموارنة ، وكان أيام الاحتلال الفرنسي يجاهر المسلمين العداء ، ان ابنة له عشقت شاباً مسلماً اسمه محمد وعبثاً حاول أبوها واهلها ارجاعها عن عشيقها والزواج من احد ابناء المسيحية فما سمعت الا لصوت غرامها وظلت تسافح هازئة بكل الاعتبارات فاصاب اباها المتعصب من ذلك مصيبة وأي مصيبة وهذا مما نعده جزاء مادياً والناس لعهدنا لا يهتمون لغير الماديات مع الأسف .

المجمعان العربيان

قال لي جلالة ملك مصر ان المجمع العلمي العربي اهداه مطبوعاته فقرأها ورأى طبعها المشرق والتعليقات المفيدة على الكتب القديمة فمجمعكم يعمل خلافاً لمجمعنا فأجبته ان المجمع المصري يعمل أيضاً واكنه قصر في نشر اعماله في مجلته . وتفضل كما جرى منه في أعوام سلفت وأرسل الي أحـــد خاصته لنتفاوض فيما يحفز مجمع فؤاد الأول الى العمل .

نجح مجمع دمشق لأن أعضاءه أخلصوا في خـدمته منذ وضع اساسه وكثيراً ما كان بعضهم يقرظني ويجهر بعملي فيه فاقول لهم مخلصاً ان المجمع مدين لأعضائه مثل اخي فارس الخوري انشأه معي وحماه من تمحكات السياسيين الأغبياء . والسيد فارس لا يحتاج الى تعريف بعد ان ثبت في مؤتمرات الدول العالمية انه رجل الدول العربية في السياسة وانه عارف بقضية مصر معرفة لا يدانيه فيها سياسي . ولجميع الاعضاء الذين عملوا معي في دمشق منذ أنشأته كطاهر الجزائري ومسعود الكواكبي وسليم البخاري وعبد الله رعد وسليم عنحوري وعبد القادر المبارك من الأموات واسعـد الحكيم وسليم الجندي ومرشد خاطر وجعفر الحسني وخليل مردم بك وجميل صليبا وحسني سبح وشفيق جبري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعبد القادر المغربي ومحسن الأمين وبهجة البيطار وهم في الغاية علماً وغيرة على خدمته أما في الأصقاع القريبة فكان من عاونوه شكيب ارسلان انستاس الكرملي محمود شكري الالوسي راغب الطباخ فؤاد الخطيب احمد رضا سليمان ضاهر ادوار مرقص عيسى اسكندر المعلوف محمد اسعاف النشاشيبي عبد الله مخاص رضـا الشبيبي بهجة الأثري داود الجلبي جرجس منش طه الراوي احمـد الاسكندري

احمد تيمور رفيق العظم أمين المعلوف عبد العزيز البشري احمد عيسى ابوعبد الله الزنجاني الى عشرات غيرهم من المستعربين من علماء المشرقيات ومنهم مرجليوث وماسينيون وكربتكو ونللينو وجويدي وبراون الخ .

أما اعضاؤه في مصر فقلّ منهم من عاون هذا المجمع معاونة فعلية كأنهم يظنون ان دخولهم فيه من باب اعترافِ المجمع بفضلهم فقط ولم يعهد لاحدهم ان كتب له رسالة أو أفاض عليه رأياً وغاية ما سمعنا منهم تقريظاً لعملنا وموازنة المجمع لا تسمح له باعطاء كل من يؤازرونه مكافآت كما تفعل مجلات مصر وجرائدها فتعطي اعضاءنا هناك ما يرضيهم ولذلك يحق لنا ان نقول ان المادة دعت الى عدم الانتفاع بأدب اخواننا المصريين .

الدستور السوري

عدل مجلس النواب الدستور السوري ليتسنى اعادة السيد شكري القوتلي الى رئاسة الجمهورية مرة ثانيــة واجمع المجلس يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨ على انتخابه فكان اجماعه أي اجماع الامة هو بعض ما تكافئ به امة رشيدة رجلاً اخلص في خدمتها حياته . كل هذا واجب وحسن ولكن الذي نريد الا ينساه كل عربي ان نعتدل في مدحنا وقدحنا فقد ورد في الأثر احبب حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوماً ما .

الاخوان المسلمون

قال الاستاذ سعيد التلاوي في جريدة الفيحاء يصف الاخوان المسلمين ولعل آلم ما يقع امام الانسان من حوادث واحداث تحز في نفسه وتدمي فؤاده ان يرى الباطل مرتدياً ثوب الحق والفساد مبهرجاً بدعوى الجهاد وهـذا شأن الفئة التي اطلقت على نفسها اسم الاخوان المسلمين كأنما أرادت أن تفرض نفسها على الناس فرضاً وتحتل ميدان الدين والوطنية والقومية احتلالاً لا يكون معه مكان الذين لم ينتموا الى هذه الفئة

اي اننا نحن الذين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر في حاجة لنكون مسلمين حقاً أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر وبالاخوان المسلمين واذا لم نؤمن فاننا لاجرم نكون من الاخوان الكافرين!

فالاخوان المسلمون جماعة طغت عليهم الانانية وفتنتهم الدنيا وغرتهم الحياة فطفقوا يسعون على بلوغ الشهرة والجاه والسلطان من أقرب الطرق وهو طريق الدين الحنيف والشريعة السمحاء وراحوا يركبون للوصول الى آمالهم وأمانيهم كل مركب ، ولم ينس الناس تلك الحملات التي شنوها على كرام الوطنيين وعيون القوميين اثناء معركة الانتخابات الماضية ، تلك الحملات التي كشفت حقيقتهم واظهرت نيتهم وبينت طويتهم مضافة الى ما فعلوه من قبل في الموقف المعروف بفتنة « نقطة الحليب » التي قمعها الرجل الصالح الصادق سعد الله الجابري وانقذ البلاد من كارثة كادت تقضي على خيوط الاستقلال والحرية والسيادة في ذلك الحين مضافة الى ما فعلوه من بعد في اليمن ، تلك البلاد العربية التي كان على رأسها ملك عربي مسلم لم يسمح لاجنبي ان يطأ أرض بلاده مدة أربعين سنة ولم يوقع على ورقة أو صك أو عهد بينه وبين دولة أجنبيـة فـكان نصيبه رحمه الله القتل والتمثيل به وسرقة

أمواله ونقلها بالطائرة مع الفضيل الورتلاني وتحويل قسم منها الى الاخوان المسلمين في القاهرة .

وما هذه الشواهد البسيطة الا مقدمة بسيطة كذلك لما يحاول الاخوان المسلمون ان يفعلوه الآن في سورية باسم الدين وباسم المجاهدين كأن الله جعلهم وحدهم على كل هذا قيمين واليه داعين . قال حقاً ان فلسطين لتصطلي اليوم ناراً حامية سعرها الغدر الدولي واججها الفجور الصهيوني وان رئيس الجمهورية السورية ليصطلي هذه النار بما فيه من محبة للوطن ككل عربي صحيح العروبة وككل مسلم صادق الاسلام ، اما الاخوان المسلمون فانهم لم يفعلوا شيئاً لاجل فلسطين غير جمع نفر من جماعتهم وسوقهم الى دمشق لعرضهم على الناس في الشوارع ارضاء لشهوات النفوس ثم يقعدون جميعاً في معسكرات التدريب وقد تحل قضية فلسطين ولا ينتهي تدريب الاخوان المسلمين لانهم مشغولون عن الجهاد بدعوة الشعب الى الحداد ولانهم منهمكون بالحياة الدنيا عن خوض غمرات الحرب الضروس في الارض المقدسة .

فلو ان الاخوان المسلمين كانوا صادقين في دعواهم لما قام منهم خطيب يدعو الى نفسه ويطلق على ذاته الالقاب والنعوت التي ينفر منها الله ويبرأ منها الدين ولذهبوا الى فلسطين يطلبون الشهادة والاجر والمغفرة ولما كانوا يغرقون الى الاذقان في حب الدنيا الغرور ويتهالكون على ما فيها من منافع ومصالح يحاولون اقتناصها بقوة الدين وباسم فلسطين .

ان العرب اليوم لينظرون الى مأساة فلسطين فلا يرون فيها شيئاً يختلف عن مأساة الاندلس وان عليهم واجباً قومياً دينياً يتقاضاهم العمل لتفادي تمثيل تلك المأساة ، وحقيق بالاخوان المسلمين ان يعفروا وجوههم بالتراب ويبللوا لحاهم بالدموع ويخلصوا العمل لله ويسيروا الى فلسطين آمنين مطمئنين ويدعوا العالمين اجمعين الى الجهاد .

عيد المعري الالفي

قال لي امين سر المجمع العلمي العربي صديقي الاستاذ خليل مردم بك ان المعري ولد سنة ٣٦٣ فيكون مضى على ولادته الف سنة فخليق بالامة العربية ان تحتفل بعيده الألفي . وكنت في احدى العشايا على مائدة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مع ثلة من رجال الحكومة فذكرت له ما عرفناه عن مولد المعري فسر كثيراً بهذا النبأ وقال سنحتفل بهذا العيد احتفالاً عظيماً ، والمعري مفخرة العرب عامة ومفخرة الشام خاصة ، وسندعو الى مشاركتنا بالعيد اعظم علماء مصر والعراق وجزيرة العرب وشمالي افريقية وهذه فرصة سانحة لنطلعهم على ما في ديارنا من بدائع الكنوز الطبيعية والآثار التاريخية . وذكرت لمن بيدهم الأمر من الوزراء الذين كانوا معنا على المائدة يستمعون الى كلام الرئيس الاول ما يجب من فتح اعتماد مالي للعيد ، ومن الغد كتبت الى وزارة المعارف بالأمر فاحالت مقترحي على مجلس الوزراء فرده بدعوى قلة المال ولم يفتح وزير المعارف فاه بالدفاع عنه مع ان الكلام مع الرئيس كان بمسمع منه يوم تلك الضيافة . وبلغ رئيس الجمهورية ما تم في هذا الامر الذي أهمه وكاد يهم باتهامي بالاهمال فأثبت له أن الذنب ذنب حكومته فوعد بايجاد المال وبلغني انه اقترضه من وزارة الاعاشة ريثما يجتمع مجلس النواب ويقره . ولم يشأ المجمع أن يشرع باعداد المعدات للعيد قبل أخذ كتاب وزارة المعارف بالموافقة على الاعتماد الذي طلبه وهو اربعون الف ليرة سورية وبعد أن وصل المال الى يدنا برمته . وكانت نية الرئيس أن يحتفل بهذا المهرجان في شهر نيسان من هذه السنة ١٣٦٣ ليرى الوافدون ربوعنا في حلتها الخضراء البديعة فضاع وقت غير قليل حتى حصلنا على موافقة الحكومة وتمت المعاملات القرطاسية فتقرر أن يجري

العيد في أواخر ايلول ليتيسر لمن يشاركونا بالاحتفال أن يعدوا خطبهم ومحاضراتهم وأبحاثهم وقصائدهم وينجزوا طبع كتب المعري وما له علاقة بالمعري.

وقبل موعد الاحتفال استدعاني رئيس الجمهورية وكان عنده وزير المعارف السيد نصوحي البخاري فقال لي ان الوزير يقول ان المجمع العلمي العربي يعمل مستقلاً استقلالاً تاماً ولم يشرك وزارة المعارف في شيء من أمر المهرجان فأجبته ان المجمع يفاوض في كل ما يجب أن يفاوض فيه ، وأعرف ويعرف امين سره وكان أيضاً وزيراً للمعارف أن المجمع مرتبط بهذه الوزارة وأنه كتب اليه في مسائل العيد وأخذ أجوبة وقلت الغالب ان لدى وزارة المعارف موظفاً كبيراً مستبداً بالامور حاول مرة أن ينضم الى المجمع عضواً فلم يجب الى بغيته لانه لايحسن العربية ، فأخذ يقاوم المجمع ، فبشرني الرئيس أن هذا الموظف نقل إلى عمل آخر واستراحت المعارف . ثم اجتمعنا في غرفة الوزير فاخرج اضبارة المهرجان ليثبت لنا قصورنا في مفاوضته على نحو ماادعى أمام الرئيس الأول فتبين بالقاء النظر على الاوراق أن الوزير موافق على الامور المهمة وأنه خانته ذاكرته ونسي ما رقمه بقلمه من المعاملات ثم قال لي ولامين السر العام كيف يجوز ألا يقول مثلي وأنا وزير المعارف شيئاً في عيد المعري ؟ فقلت له لك ذلك ومن حظر عليك ما تريد ، فكان أن ألقى في اليوم الاول من العيد في مدرّج الجامعة السورية بحضور رئيس الجمهورية ورجالها وعلماء العرب وغيرهم من العلية خطاباً ماظننته إلا ابن عدة أشخاص وشبهته بالثوب المرقع رقعة جوخ ورقعة صوف ورقعة جلد ورقعة شفوف حرير ورقعة خيش بالية أي أن كلامه كان دون ما يجب لمن كان في مثل مقامه أمام أعيان البيان في هذا الزمان . واحتفل بالعيد ثلاثة أيام في دمشق وثلاثة أخرى في حلب وحمص وحماة والمعرة واللاذقية فاقيمت فيه المآدب الفاخرة باسم رئيس الجمهورية واسم امهات المدن السورية وباسم وزارة المعارف واسم المجمع العلمي العربي وباسم عين المعرة حكمت بك الحرا كي دعا الوفد الى داره وتليت فيه الخطب والابحاث الممتعة والقصائد الرنانة مما

كان نموذج أدب هذا العصر ، ودل على مكانة أبي العلاء المعري في قلوب رجال العربية كافة . وما أحب وزير المعارف الا أن يفيض على الوفد من أدبه فرافقه في رحلته وكنا نود لو لم يتعب نفسه وينصرف الى القيام باعمال وزارتيه الدفاع والمعارف أي وزارتي السيف والقلم لان رئيس الجمهورية قال لنا ونحن نعرض عليه طلب اشتراك الحكومة في الامر أن نراجع رئيس الوزراء فقط فيما يعن لنا في الامور التي لها علاقة في العيد لأن وزير المعارف مشغول كثيراً وهو يتقلد وزارتين وكل معاملة تبقى في دائرته اثني عشر يوماً . فلما جاء الوزير يشكوني لم يسع الرئيس إلا مشايعة وزيره على شكواه التي لا معنى لها .

والمجمع على كل حال قام أحسن قيام بواجبه في اعداد العيد وذلك بفضل العاملين من أعضائه ولا سيما الاستاذ أمين سره العام ولطالما قلت له (والمتلف الشيء غارمه) أما وأنت الذي اهتديت الى ولادة المعري فالمفروض عليك أن تقوم بالعبء الثقيل من اتمام الرغبة في الاحتفال بذكراه .

ولم ينقص العيد إلا اشتراك حكومات جزيرة العرب به ، ولعلها لا تقول بجامع الازهر بأدب المعري وتخشى ان اشتركت في تكريمه أن تعد شريكته فيما رمي به من الالحاد والتعطيل ! واعتذر الفرنسيون رسمياً بان قلة المواصلات مع شمالي افريقية دعت الى تخلف أعضائنا وغيرهم من رجالات تلك الاقطار عن الحضور . ومن المعروف أن فرنسا في كل زمن حاولت أن تقطع الصلات بين أهل شمالي افريقية وبين سكان هذا الشرق القريب ، وأن توهم أهل الأقطار التي تحتلها أنهم ليسوا عرباً بل هم بربر لا شأن لهم بالعربية ولا بالعرب .

الوضع الحاضر

(الوضع الحاضر) (الوعي القومي) (التربية المثالية) (المجال الحيوي) (المثل العليا) (الشخصيات البارزة) (السوق السوداء) تراكيب جديدة يكثر اليوم ترددها في الصحف وعلى الألسن . ويعنينا من هذه التعابير الآن تركيب (الوضع الحاضر) فانه أصبح من الكلام الذي يردده من تولى الحكم ومن وراءه من النفعيين والوصوليين ، وكل من انتقد الوضع بكلمة أو عابه ولو بالاشارة مرق من الوطنية مروق السهم من الرمية . ومن لا يوافق على كل ما تواضع عليه الحزب المتغلب يعد خارجاً عن الجماعة ، مريضاً في عقيدته السياسية ، حرياً بالاعتقال والنفي أو بالقتل والتعذيب .

بالأمس كان الناس في مصر يصفقون للوفديين الذين تولوا شؤون الحكم خلال الثلاث سنين الأخيرة واليوم وقد أقال ملك مصر وزارتهم يريد لمصر وزارة ديموقراطية تطبق أحكام الدستور أخذ الناس يصفقون للوزارة الائتلافية الجديدة ويقيمون الأفراح متهللين . وكل من يتولى الحكم في مصر وغيرها لا يلبث أن يستتبع جملة ممن كانوا البارحة مع الفريق الذي تمت أيامه ، والناس مذ قامت الحكومات في الأرض عبيد منافعهم .

حمل المخالفون على سياسة الوفد وعابوه بالالتجاء إلى من طالما حاربوهم كي يصلوا إلى الحكم ولاموه على إسرافه بأموال الدولة واستكثاره من خلق الوظائف الجديدة التي لا لزوم لها يرضي بها جماعته ، واتهموه بأنه فشت في أيام حكمه الرشوة والخلل في الادارة ، وأنه عمل على اعتقال مئات الأبرياء خالفوه في مراميه . فهل تقوى الوزارة الحاضرة يا ترى وفيهم الوزراء الأكفياء على تصفية حساب الوزارة السالفة وتطهير أداة الحكم مما عراها من الصدأ والخبَث ، أما أنا فيخامرني الشك بقيام وزارة تني

بوعودها ، وكل وزارة توفق إلى تحقيق بعض الاصلاحات أعدها حكومة عمر .

زعمت الوزارة المصرية الجديدة أنها ستطلق الحرية للصحافة فهل لتعدل الصحف غداً في آرائها ولصدق في حملاتها ، ولا يستحل حزب أن يختلق على حزب ما لا أصل له في غير رأس كاتبه وقائله وينهون من المهاترات إلى السفاهات . فقد رأينا ما أصاب القطر من الحول بحجز حرية الكلام في الخمس السنين الأخيرة للحرب الحاضرة وكانت مصر منذ نحو خمسين سنة تنعم بنعمة الحرية على اختلاف مظاهرها ، وامة ألفت الانطلاق يشق عليها الرضا بالتضييق ، وشعور الأمم كشعور الأفراد على قدر فهمها وسعة مداركها .

هذا في مصر أما في الشام فالحرية ضعيفة بالقياس لحرية مصر لأن ولاة الأمر فيها يلجأون حالاً إلى إقفال الجريدة التي لا ترضيهم واضيق صدورهم عن سماع ما يخالفهم ، ولذلك ترى الصحف متشابهة في معظم ما تقول ولا تقول إلا ما يرضي . وما أشوق النفوس اليوم إلى استماع أقوال الجرائد الحرة . وقد صدرت منذ سنتين مجلة الدعاية الأمركية في مصر وما عرف قراء العربية أنها تنشر بعض مقالات تكتب بحرية حتى اقبلوا عليها إقبالاً لم يكتب لمجلة ولا لجريدة طبعت بالعربية . هذا ما كان من أمر الصحافة والحرية ومثل ذلك يقال في سائر أنواع الحريات التي يعمد إليها الناس لاظهار أفكارهم وعواطفهم . وكان من العبث بالحرية في ديارنا أن انتشرت الرشوة وضاعت الحقوق فسرح الفاسدون ومرحوا في غفلة الزمن وعهد الحجر على الاقلام . هذا وإذا انتقد منتقد ما يجري قالوا له صه إنك تعكر بكلامك الوضع الحاضر ، والوطنية تقضي بالسكوت عن الهفوات كأن الابقاء على سلامة الوضع الحاضر لا تكون بغير الاغضاء عن المساوئ والكف عن نقد الخلل . من أدب الوضع الحاضر أن يقول كل إنسان بالثورة ولو أورثتنا الضرر الظاهر ومن لا يصف السرّاق والقتلة

بالمجاهدين غضب الله عليه وعُدّ العدو الأكبر لوطنه ومن لا يلمن المتدبين بالحق والباطل فهو انتدابي يحب الاستبداد ويأنف من الحرية ، وكل كبير لا ينزل على إرادة الصغير هو جامد متحجر العقل لأن الفتيان الناشئين أوتوا من الحكمة ما لم يكتب مثله للشيوخ المحنكين . وبالجملة فان أنصار الوضع الحاضر لا يتحرجون عن فرض أعظم العقوبات على كل من لا يتابعهم على أهوائهم ، والطعن بمروءة المخالف وشرفه ودينه ووطنيته أيسر ما يوجهه أدعياء الوطنية إلى العارفين .

الوجه الكالح لفرنسا الاستعمارية

تدمير فرنسا بلادنا

مثلت فرنسا في ضربها مؤخراً دمشق وحلب وحماة وحمص واللاذقية وغيرها من القصبات الشامية صورة من صور الوحشية تظهر بها أمة مسلحة إذا حاولت أن تنال من شعب ضعيف غرضاً ترمي إلى الحصول عليه. ضربت فرنسا أمة عزلاء ضرباً قصدت به فرض معاهدة على ديارنا بالارهاب والقوة. وادعت أن العامة في دمشق استفزوها باحراقهم سيارة لها من سيارات النقل أمام البرلمان فما وسعها إلا تدمير دار الندوة على رأس من فيه من النواب والحامية، وحاولت أن يكون عدوانها ساعة اجتماع المجلس تحت قبته، ولكن الحكومة كانت اطلعت على ما كان يُبيَّت لها من الشر، واتفق أنه لم تحصل أكثرية في المجلس يومئذ فتحول الحاضرون من أعضائه إلى دار زميلهم الاستاذ خالد العظم في سوق ساروجة، فبادرت الحامية إلى قذف قصره العظيم بحممها فلم تصبه وأصابت قذائفها داراً من دور جيرانه فأفنت أهلها.

يراد من دعوى المنتدبين استفزاز العامة لهم أن فرنسا كانت على حق في تدميرها المدن وإهلاكها السكان، وقد أثبتت التحقيقات إثباتاً لا مجال للشك فيه أن فرنسا ضربت ما ضربت ظلماً وعدواناً، فكان ما ارتكبته سبباً في إخراجها من ديارنا. وكانوا ارتكبوا مثل هذا العمل الأخرق في الجزائر فقتلوا ألوفاً من الآمنين، ولطالما أتوا هذه الأفاعيل المنكرة في الأقطار التي استعمروها، ومع هذا ما زالت تحكم تلك الاصقاع. والجزائر في العرف الدولي مستعمرة حكمها حكم الارض الفرنسية، وللمستعمر أن يهلك من استعمرهم! كما كان الحق لمن استرق انساناً قبل الاسلام أن يميته أو يستبقيه.

هذا ما أتاه الفرنسيون في القرن العشرين وهم الذين منوا على العالم بأنهم وضعوا حقوق الانسان وحرروا العالم من ظلم الملوك . وما تاريخهم منذ ثلاثمائة سنة أكثر من اعتداء قوي على ضعيف . أما استعمارهم فهو من نوع الاستعمار الذي لا يغبطون عليه . ولقد أتى زمن عليّ كنت فيه أدعو إلى الأخذ من مدنية فرنسا واجاهر بحب فرنسا المدنية واكره إلى النفوس فرنسا المستعمرة ، ولكن العمل الأخير كاد يزهدني في مدنية أحببتها ودعوت إليها .

كنت إلى يوم ضرب دمشق أعتقد أن الراهبات والرهبان قوم استهواهم دينهم فتطوعوا في بث دعوته ، وأخذوا على أنفسهم خدمة الانسانية وتخفيف آلامها ، فأثبتت الكارثة الأخيرة أنهم شر أدوات الاستعمار ، وأن دعوى بعضهم خدمة دينهم نفاق وزور وكيف لعمري زينت لهم تعاليم السيد المسيح القائمة على الرحمة والشفقة ازهاق أرواح الأبرياء من مخالفيهم في الدين ؟ ظهرت أديار الرهبان والراهبات هذه المرة أنها ثكنات عسكرية وحصون تدمير ، وأن بعض من أووا إليها لا يختلفون عن القتلة واللصوص . روى لي ثقة أن راهبة فرنسيسكانية أشارت الى جندي سنغالي يوم ضرب دمشق في وضح النهار أن يطلق عياراً نارياً على أحد الشخصيات المعروفة وهو يجتاز الشارع وشوهد أحد رهبان الاخوة المريميين يطلق من مدفع رشاش ناراً حامية على حي قريب من قرية المزة وهو متشح بلباسه الاسود ، ثم دخل بيتاً ينهب لما تراءى له أنه خال من أهله . ولو لم يرو هاتين القصتين ثقات من أصحابي ما صدقت صدور مثل هذه الفظائع من اناس يدينون بدين المحبة . واخبرت أيضاً أن المستشفى الفرنسي بوم الوقعة الكبرى لم يقبل أحداً ممن جرحوا يوم العدوان . وقد ثبت أن قائد التدمير أمر بضرب المستشفى الوطني فارتاع المرضى وخرجوا هائمين على وجوههم الى الشوارع وأن بعض جنده اعتدوا على بعض الممرضات . وكان بعض المستشارين من الفرنسيين في مقدمة الجيش يطلقون نيرانهم على الأهالي وهم يعدون أرقى

فئة من المدنيين الذين أتونا بهم لتعليمنا اصول الحكم ، ولم يروا من كل حكومة وطنية ومن كل وطني إلا الحرمة والاعتراف بجميلهم .

هذا ما جوز لأنفسهم فعله أبناء ثورة سنة ١٧٨٩ المتشبعون بروح روسو وفولتير في عاصمة من أعظم عواصم الاسلام ، انهزموا أمام عدوهم في ارضهم أقبح هزيمة ، وانقلبوا يعتدون على الآمنين في أرضنا . كانوا امام الألمان كالنعامة يوم دحروهم ، واستأسدوا في عقر دارنا . وما كان أكثرهم في الواقع الا قتلة ومتشردين . حدثني صديقي الاستاذ فخري البارودي وكان وكل اليه أمر رد المنهوبات الى أربابها في عاصمة سورية ، أن أكثر بيوت ضباط الفرنسيين وقوادهم كانت ملأى بالأمتعة التي سرقوها من بيوت السكان وأن دار القائد العام (الجنرال اوليفاروجه) كانت مثالاً مخجلاً في هذا الباب : سرق كل ما طالت يده اليه من دور الأهلين ، ومن دار المجلس النيابي ، وسرق في جملة ما سرق صندوقه الحديدي وحمله الى منزله وحاول فتحه بمطرقة عظيمة فما استطاع نزع قفله ، وكان فيه ستون الف ليرة سورية ، وقد سرق مقداراً كبيراً من الكتب النادرة من خزانة المجلس الى غير ذلك من النفائس التي استحل أخذها ، وما حال عظم رتبته دون أن يحشر نفسه في عداد اللصوص . وقلّ أن نجا ضابط من ضباطهم من تلويث يده بالدم الحرام والمال الحرام ، ولا عجب أن تجري حكومة فرنسا على هذه الخطة العوجاء في ديارنا وكل ديار نزلت فيها من الشرق والغرب ، وأن يستحل أفراد جيشها أموال الضعفاء فان حكوماتها ما زالت تتآمر على أموال رعاياها أنفسهم . وفي اختلاساتهم في شركة باناما وستافسكي مثال مصغر من أخلاق رجال السياسة والمال في فرنسا ، اشترك النواب والوزراء في هذه السرقات العظيمة فأتوا ببرهان آخر على انحلال أمرهم .

كنت أظن وأنا على أميال قليلة من القلاع التي كانت تطلق حممها على السكان خلال هذه الغارة ان القائد الذي يأمر بالضرب على البيوت والمصانع ما كان الا سكراناً او محششاً فأكدوا لي انه كان يعاقر الخمرة منذ شرع

بضرب دمشق ويصدر أمره الى زبانيته وهو في تلك الحالة المضطربة ، وأنا اؤكد للتاريخ أن قائده الأعظم الجنرال دي غول كان أيضاً مضيعاً عقله عندما أمر بضرب سورية لتصل فرنسا الى مأربها بهذا الضغط الجائر .

مسكينة فرنسا يحاول أبناؤها المخلصون حمل النفع اليها بعقولهم وعلمهم فيأتي الجهلة الجانين من بنيها فيفسدون في ساعة ما قضى العقل في اقامته سنين وفي تاريخها الأخير امور كثيرة ليس فيها ما يرفع الرأس . الخفة وباللاسف ابداً متغلبة على الرزانة ، ولذلك تأخرت عن امم اوربا وكانت في القرن السادس عشر أعظم دولة في الغرب ولكثرة ما أفنت من الناس وما افنوا منها أضحت دولة من دول الدرجات الثالثة أو الرابعة .

كانت فرنسا كما قال هريو في كتابه الايجاد G . Herriot : Créer ذاهبة بالأولية بين الدول في القرن السادس عشر من حيث عدد سكانها فكانت نفوسها نحو نصف سكان اوربا وأصبحت في عهد لويز الرابع عشر نحو ثلث أوربا وفي سنة ١٧٨٩ نزلت الى الربع وبعد حروب الثورة والامبراطورية تدنت الى الخمس وأطرد هبوط ساكنها في القرن التاسع عشر على حين كان جميع شعوب العالم يزيد زيادة مستمرة .

ثم ان عقلية فرنسا قضت أن تتفوق الامم عليها بكثرة نفوسها ووفرة ثروتها ، وبلغ من ضعف سياستها أن كانت حيث ذهبت لتستعمر تتصدى لها انكلترا فتخرجها من البلد الذي احتلته : أخرجتها من الهند ، واقصتها من اميركا ، وأبعدتها من كندا ، وطردتها من مصر ، وقضت هذه المرة على سلطانها في الشام . فرنسا ترى من حسن السياسة أضطهاد كل امـــة تستعمرها ، وتحاول صبغتها بالصبغة التي ترتئيها ، وتتولى كل شيء برجالها ولا تترك لمن تستعمرهم ثروة تحفظ عليهم كيانهم ، ولا تمثل للفرق بين استعمار واستعمار بأكثر مما فعلت انكلترا في الهند وأتته فرنسا في تونس . الهند أعظم مستعمرة سكانها خمس العالم وتديرها انكلترا بثلاثة آلاف موظف انكليزي وستين ألف جندي ، وتونس لا يتجاوز سكانها المليونين والنصف

مليون تحكمها فرنسا بثمانية آلاف افرنسي والفي تونسي ما عدا حاميتها .

ولقد حاولت فرنسا أن تعامل سورية كما عاملت أهل مستعمراتها الافريقية والآسياوية أي السودان الغربي والهند الصينية مثلاً فأخفقت ، وما أدرك رجالها أنهم منتدبون في سورية ، وشتان بين الانتداب والاستعمار أو الحماية ، وكانت منذ حلت أرضنا تعاملها بعقلية مستعمرة ، وعلى هذه الفكرة بنت حصونها وقلاعها على حين تسامحت في أرضها في هذا الشأن حتى استولى عليها الالمان في أيام قليلة . وفي الذي ظهر من فساد رجالها وقلة أمانتهم لامتهم وانحلال مجتمعها وجامعتها صورة تخجل منها كل أمة ، والعلة في تقهقرها رجال جنديتها وأرباب الاموال فيها : عشق الضباط الاوسمة والرتب وتلمظوا بحلواء الغنائم فاستهانوا بارواح من نزلوا عليهم ، واستحل الماليون كل محرم لزيادة رؤوس أموالهم .

اطرد التدني في فرنسا منذ القرن المظلم قرن لويز الرابع عشر إلى يوم الناس هذا ، ويرد تدنيها في الاكثر إلى الغرام باهراق الدماء لصنع بها أكاليل الظفر الموهوم . وأي سخف أعظم من أن يدعي معظم رجالهم أن نابليون بحروبه الطائشة التي أفقدت فرنسا مليوني جندي قد أورثها مجداً ، وأي مجد يأتي من حربها (سنة ١٩١٤ — ١٩١٨) وقد فقدت أكثر من مليون ونصف من جندها وثمانمائة الف مشوه وجريح ، وعاونتها نحو ٢٨ دولة حتى ظفرت بالمانيا . وغاية ما ربحت من حربها هذه استرجاع ولايتي الالزاس واللورين والانتداب على سورية ولبنان . وقد كلفها هذا الانتداب مليارات من الفرنكات سرق عمالها القسم الاعظم منها وفقدت ألوفاً من جندها ومئات من ضباطها في قمع الثورات لتغنم من ذلك محطة حربية تصل منها إلى أملاكها في الشرق وتنشر ثقافتها وتجارتها . وكيف لعمري يعد اهراق دماء الخلق مجداً ، وبخاصة إذا كان الدم المهراق هو بعض دم الاخ والمواطن .

الفرنسيس يدربون على القتال والصيال ليَقتلوا وليُقتلوا ، والحكم على الرجال أن يُقتلوا هو ما يجب أن تخجل منه الامبراطوريات والجمهوريات

لانه جريمة الجرائم كما قال أناطول فرانس . قال انهم يوجبون على الفلاح المسكين الخدمة في الجندية ينفونه من بيته ، ويقصونه عن حقله وغابته التي غرسها آباؤه ، ويدربونه على الفتك بالناس في باحة ثكنة كئيبة ويهددونه ويسجنونه ويقولون له هذا شرف . ومن لم يشأ أن يتشرف على هذه الصورة يقتلونه رمياً بالرصاص . قال نحن في فرنسا جنود ووطنيون، ومن عدّ وطنياً كان تلقيبه بذلك من دواعي فخره وزهوه . وآية كل ذلك أن ينهض الفقراء بمعاضدة الأغنياء ، ليبقوا عليهم عظمتهم ويمتعوهم بالفراغ ويعملون هم بدلاً عنهم ، وما كانت الثورة إلا من صنع مجانين وسخفاء قصد بها فائدة من وضعوا أيديهم على أموال الامة ، وأسفر ذلك عن اغتناء المحتالين من الفلاحين ، وأهل الطبقة الوسطى من المرابين ، وباسم المساواة قبض رجال المال على عنق فرنسا فأنشأوا منذ مئة سنة يمزقونها شر ممزق وهم فيها السادة والمربوبون ، وتتألف جمهرة الشعب من بائسين تستوجب حالتهم الشفقة ، وهم مغلولون قذرون تقلون مصرّفون في خدمة رجال المال . ومنذ مئة سنة كان كل من أحب الفقراء في هذه الديار (فرنسا) يعد خائناً للمجتمع ، ومن قال إن فينا أهل بؤس وشقاء عدّ من الافراد المضرين ، وسنوا قوانين تقضي على من يغضب للظلم ويعرف بالشفقة .

هذا قول اناطول فرانس ، أما عيوب فرنسا في معاملتها رعاياها ومعاملتها من تنزل عليهم فيعرفها عقلاء أبنائها أكثر منا وقد كتبوا فيها الكتب العظيمة . ونحن نقول على حسابنا ان فرنسا بغطرسة بعض رجالها في الشام وضيق نظرهم وفساد آرائهم أصلوا العداوة والبغضاء حتى في صدور أصحابهم القدماء ، وخسروا بذلك ثقة أمة كانت تعاملهم بأمانة فاضطروها الى نزع يدها منهم ومصادقة دول أخرى .

الحرب الاخيرة

انتهت الحرب الأخيرة بظفر الحلفاء (انكلترا والولايات المتحدة وروسيا والصين) ومن حالفهن ووالاهن من الدول الصغرى ، وانهزمت ايطاليا والمانيا واليابان ومن عاونهن من الدول وذلك بعد اثخان الالمان واليابان في الحلفاء ست سنين واستيلائهن على معظم أوربا وجزء من آسيا وبعض جزر المحيطات العظمى ، وكان الفضل في هذه الغلبة لانكلترا وثباتها في الميدان وحدها بادئ بدء . تلقت ضربات جيوش الاتحاد الثلاثي أو دول المحور في أرضها ومستعمراتها بصبر عجيب حتى تيسر للولايات المتحدة الأميركية اعداد عددها لخوض هذه الحرب الزبون الى جانب بريطانيا العظمى وحليفاتها .

وكان بعض سكان الاقطار العربية في غضون الحرب يعجبون بأعمال المانيا الحربية ويقدرون علمها وبطولة رجالها ويعطفون على الالمان وعلى دولتهم مع علمهم بأن من مصلحة العرب انتصار الحلفاء وانكلترا من بينهن خاصة ، وذلك لأن انكلترا في أشد أدوار استعمارها لم ترهق الاقطار التي استعمرتها كما أرهقت فرنسا والمانيا وهولاندة وبلجيكا وروسيا واليابان وايطاليا الممالك التي افتتحتها باسم التمدين وما هو إلا شر استعمار .

انتهت الحرب وما ربحت منها دولة في الحقيقة ، وقد صرف كل من الغالب والمغلوب جهوداً عظيمـة ، وفادوا بأجمعهم بالمال والرجال على ما لم يسبق للبشر مثله ، وكانت خاتمة هذه المأساة العالمية نسف الأميركان لليابان مدينتين بمن فيهما بالقنبلة الذرية التي اخترعتها فعد عملها أفظع عمل تجرد من الانسانية ، استخدمت فيه آخر ما عرف البشر من أدوات التدمير . لم يقتل في هذه الحرب أقل من سبعة عشر مليوناً من الخلائق وهو عـدد

ما سجلت مثله أعظم الحروب . وكان ربح انكلترا من هذه الصفقة القضاء على تجارة المانيا وصناعتها واقامة التوازن بين الدول الاوربية ثم نشأ من هذا اضعاف فرنسا وايطاليا وهو ربح قد يدوم عشرين أو ثلاثين سنة ثم تجبر بعدها عثرة العاثر فيجد يجمع شمله في ظل السلام والسكينة .

أما الشرق فقد خادنته العناية وربح بتفكير رجاله وتؤدتهم أرباحاً سياسية واقتصادية لا يستهان بها ومن أرباحه استقلال أندونوسيا (جزائر جاوة وسومطرا وما اليها) ونجت طرابلس وبرقة والاريترة والصومال والحبشة من الاستعمار الايطالي ، وخلصت سورية ولبنان من الانتداب الفرنسي مستقلتين استقلالاً كاملاً في ظل الحكم الجمهوري ، وراجت صناعتها وتجارتها ، وفشت الثروة وامتد العمران في المدن على انقطاع الصلة زمن الحرب بالبلدان التي كانت تتقايض واياها حاصلاتها ومصنوعاتها .

نكتب هذا والمفاوضات لا تزال دائرة بين انكلترا ومصر للبت في المعاهدة بين البلدين ومغادرة الجيش الانكليزي الاراضي المصرية . وعسى أن تحصل مصر على جميع مطالبها من حليفتها ولتستقل بأرضها استقلالاً تاماً مع سودانها .

وما برحت مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين معلقة في سماء الاقدار ، والارهابيون من الصهيونيين يرتكبون أنواع الفظائع لمحاربة انكلترا بكل ما لديهم من قوة ، والاميركان يعاضدون اليهود سراً .

وقد اتخذت انكلترا من شرق الاردن مخفراً في وجه البادية منذ اسست هذه الامارة بعد الحرب العالمية الماضية ، وجعلت منها محطة حربية للاشراف على جزيرة العرب وما تاخمها من البلدان ولا سيما ترعة السويس واقتضت مصلحتها ان ينادى بأمير ذاك الاقليم ملكاً .

وخرج العرب من هذه الحرب بهذه الجامعة العربية ويرجى أن تسفر أعمالها عن نتائج سياسية ومدنية مهمة وان يطرد سيرها على أقوم سبيل ويزيد احتكاك الشعوب العربية بعضهم ببعض وأن ينضم عرب شمالي افريقية وامارات جزيرة العرب الى مجموعة الدول العربية التي تتألف منها الجامعة الجديدة.

لانعاش مصر

كان برنامج حكومة اسماعيل صدقي باشا التي تولت هذه السنة الحكم في مصر مكافحة المرض والفقر والجهل وقررت عقد قرض بخمسين مليون جنيه لصرف في الاصلاح النافع وفي الوصول الى تحقيق هذا البرنامج حتى يصح ما روى عن لسانه ان حكومته اشتراكية لانها تقصد مداواة هذه العلل . وما كانت حكومة مصر أكثر من حكومة ارستقراطية ينعم بها واحد من عشرين من سكانها فقط .

ولو كان لي من الأمر شيء لأهبت بالحكومة المصرية أن تقسم في الفلاحين جميع أراضي الدولة الصالحة للاستثمار ، وأن تبيع الأرض القابلة للاصلاح من فقراء الفلاحين يصلحونها في مدة تمنيها لهم ، ولاستصدرت قانوناً يقضي بألا يملك المالك أقل من فدانين ولا أكثر من مئة فدان ، ولقضيت بحل الأوقاف الاهليـة أوقاف الذرية ، ولأكثرت من تأسيس ملاجيء لابناء الفقراء أعلمهم فيها الصناعات الضرورية ، ولانفقت جزءاً عظيماً من الموازنة على التعليم والصحة ولاخذت خمسة بالمئة من كل مال مجموع في المصارف وعند الشركات أقيم به أعمال الاصلاح على أمتن الدعائم ، وبعد ذلك أحظر التسول والكدية ، والزم أهل كل قرية وحارة ومنزلة باطعام العاجزين عن الكسب . ثم تفتح الحكومة ملاجيء للعجزة والارامل يأكلون فيها وينامون ويتعلمون ما يقدرون على ممارسته من الصناعات .

قد يسارع بعض من يقرأ هذا الى انكار ما ارتأيت ، ويزعم أن هذا من الخيالات ويقول أن هذا الرأي ما خرج عن مبادىء الشيوعية وما هو بها في الواقع ، ويستحيل أن تقضي على الشيوعية الا بالاقتراب منها لنعمل بالنافع من تعاليمها ، نقتبس الجيد ونبتعد عما لا يلائمنا ، والا كان الأرباء

ورجال المال عرضة لسهام الشيوعية قبل غيرهم من الطبقات . ولو كنت في النواب أو الشيوخ لرفعت صوتي لاقرار قانون تحديد الملكية وبذلك اخفف البؤس ما أمكن ، واتقي ضربات الشيوعية التي تقع على رؤوس أرباب السعة نتائجها المؤلمة .

يكثر في مصر والشام من يملك بضعة آلاف من الأفدنة أو بضع قرى ومزارع وهو عاجز عن اصلاحها أو اصلاح بعضها ، وكان القليل منها يجزئه ويعيش به سعيداً . واني لأخشى اذا كتب الظهور للشيوعية في الشرق ان تنزع من أرباب الاملاك الواسعة أملاكهم ، فليس من العدل أن يظل مئات الالوف من الخلق لا يملكون أكثر من قوت يومهم وتتضخم ثروات الأفراد على ما نرى .

هذه خواطر عنت لي وقد أكون في بعضها مخطئاً ولكنني أعتقد أني على صواب في أكثرها .

الاشادة بمصر

قال لي شامي قح إنك تكثر من ذكر مصر ، ومعظم أمثلتك التي تستشهد بها أمثلة مصرية كأن الأقطار الأخرى ليس فيها ما يستحق النقل والتمثيل . يريد أن يغمزني من طرف خفي بأن وطنيتي يجب ألا تنسى الشام . والواقع أني لا أتعمد في ذكر مصر وأحبها كما أحب الشام ، واعتقد أنهما قطران يتمم أحدهما الآخر . وما شأني إلا شأن رجل له ولدان إذا دعا للاول وتمنى نجاحه ، فلا يأوّل دعاؤه بانه يدعو على الثاني ولا يهتم بامره . ولقد كنت منذ القديم لا أتصور عندما أكتب إلا فائدة كل عربي ولا أحصر كلامي في مصر والشام ، ومنهاجي يتناول الاقطار العربية جمعة ، ولكن المعلومات عن مصر كثيرة وإذا سارت حكوماتنا على أثرها ، وجعلتها قدوتها نفلح كلنا فهي أوفر سكاناً ونظاماً وحضارة وكلما زادت صلاحاً سرى الصلاح الى جيرانها .

رأيت الشامي أبرع في الصناعة والتجارة من المصري ورأيت المصري أقعد في السياسة والتفنن في العلوم الحديثة والقديمة .وإذا شاعت المسكرات والمخدرات في مصر أكثر من الشام أنادي بالاقلاع عنها كما أنادي أهل بلدي في الابتعاد عن تعاطيها . والبلدان في نظري سواء في هذا الشأن يهمني مجموع الامة ولا أخص القول حين أقول بقطر دون آخر . وأنا إذا لم يطب لي هواء مصر كما يطيب هواء الشام فلا أدعو الناس إلى الزهد في سكنى وادي النيل ، ولطالما وددت لو هاجر المصري إلى الشام بمعدل ما يهاجر الشامي إلى مصر ، وتمنيت لو يقلل الشاميون من الهجرة القطعية من الاميركتين حتى لاتفقد أرضنا الرجال الأقوياء . نعم أحب أن تأخذ الشام حظها من السكان ويتسع صدرها للتجدد ولا أحب للمصري أن يكون لبداً لا يفارق الارض التي ولد فيها ، وهذا ما أطلبه لكل بلد عربي حتى يكون من مجموع العرب دولة عظمى فيها كل ما كان في الدولة الاموية مثلاً من المقومات والمشخصات . ومن سعى إلى نزع الفوارق من بين الشعوب العربية غير آبه للمذاهب أعواماً طويلة لا يفرق بين قطر وقطر وأهل نحلة ونحلة

الحكم على الجواسيس

قويت الجاسوسية في أصقاعنا في العشرين السنة الأخيرة وغزتها الدول بالأموال ترسل كل دولة زبانيتها على الارجاء التي تحاول الوقوف على أسرارها ولا تعدم في كل بلد من يهون عليه الانحلال في وطنيته مقابل ما يقبضه من مشاهرات ومعاونات .

كنت مع الجواسيس في بلية منذ عُرفت بأني افكر في الامور العامة وظللت ممتحناً بهم مدة عهد الترك وإلى أواخر ايام الفرنسيين ، وقيض لي بطول الممارسة ان مهرت في معرفتهم حتى كدت أتلمس كشف ما تكنه قلوبهم ، وأتحسس ما يرمون اليه بأسئلتهم . ومن التوفيق أنهم قلما ظفروا مني بخبر يتقربون به الى من انتدبهم ، وربما كان مرسلهم هو الذي أعد لهم السؤال ودلهم على اساليب كشف الاسرار ، وكنت اغالطهم وأضحك منهم واعاملهم في الاكثر بالسخرية وقد اتجهم لبعضهم وأحرجهم بالأسئلة لأصدهم عن سؤالي ، فينقطعون عن غشيان مجالسي . وما كنت أطلب منهم اكثر من ذلك . وكنت في الأيام الحرجة اغلق بابي في وجوه من أشك في اخلاصهم ، ومنهم من أوهمه اني عرفته لأقطع رجله عني ، وأذكر له كراهتي لكل متجسس من باب (اقول لك يا كنة حتى تسمعي ياجارة)

ولطالما أشرت إلى اصدقائي ألا يتوسعوا في الحديث مع غريب لا تعرف تربيته ، وحذرتهم عاقبة التبسط مع المجهولين وبذلك نجوت من أحابيل المتجسسة وكذلك شأن من عملوا بطريقتي . وبلغ من قحة الجواسيس مدة الحرب الأخيرة أن كانوا يسألون أولادي واصحابي عن رأيي في الدولة الفلانية أو الشعب الفلاني او في نتيجة الحرب . وكان التنبيه على خاصتي يسبق محاولة ارباب التجسس كشف اسرارنا . وقد الجأ اتقاء للشر الى التواري

عن الانظار ، والامتناع عن الاجتماع ببعض رجال السياسة اياً كانوا وكانت جنسيتهم . ومع هذا ما كان الحريصون على تسقط الأخبار يعتقدون على ما اظن الا أن ما آتيه تقية وما اقتنعوا أن رجلاً اشتغل منذ الصبا بالسياسة يعود فيتركها وفيه قوة .

وكثيراً ما كانت فراستي تصح في الجواسيس ، وتثبت الأيام أني لم أكن مخطئاً في حكمي على بعضهم ، وأني جدّ مصيب في بغضي لهم واحتقاري لحركاتهم . وقد أخطأ بعض اصحابي في تغليب حسن الظن بهؤلاء المتهمين في شرفهم ، وفيهم من وشوا بخاصة احبابهم حتى اوردوهم حتفهم ، او ساقوهم إلى الاعتقال اشهراً واعواماً . وتجلى ذلك كل التجلي لما وقعت حكومة سورية على سجل دواوين الأخبار وفضح امر الجواسيس الذين اعتمدت عليهم حكومة الانتداب من ابناء هذه الديار ، ومنهم الموظفون في اداراتها ، ومنهم من يدينون بغير المذاهب الاسلامية ، ومنهم المسلمون ومن بيوت معروفة ويا للاسف .

واطالما قلت ان القوّاد اشرف من الجاسوس واقل شراً منه . والجاسوسية التي امقت اربابها هي التجسس للغريب على القريب بما ينفع الاول ويضر الثاني . وأما اخذ الاخبار لمصلحة الأمة او الدولة فهو عمل إذا التزم فيه تحري الصدق وخلو الغرض ينفع ولا يضر ، وهو ما كانوا يسمون من يعانيه في الحكومات الاسلامية (صاحب الخبر) وعليه يعول في الحكم . ولا بد للجاسوس من ان يكون على صفات فطرية تؤهله لاستراق الاسماع وسرقة الافكار .

تخلف المصري في التجارة

من كتاب العمل لمصر للاستاذ محمود كامل : ثبت من تحليل احصاء عام ١٩٢٧ أن نسبة الملمين بالقراءة بالكتابة في مصر لاتتعدى ١٢٦ في الالف بينما هذه النسبة تصل بين الاجانب المقيمين في مصر الى ٧٩٩ في الالف من مجموع هؤلاء الاجانب ، ووصف الاجنبي ينصرف الى كل من ليس مصريا . فنسبة الملمين بالقراءة والكتابة مثلا بين السوريين والفلسطينيين تبلغ ٧٠١ في الالف من مجموع أفراد هذه الجالية الشقيقة أي نحو ستة اضعاف النسبة الخاصة بالمصريين . وبسبب هذا الوضع الذي جرد المصريين من السلاح العلمي الذي يمكنهم من الكفاح في سبيل الحياة الحرة الكريمة ارتضت غالبية الشبان المصريين من حملة الشهادات قبول الحياة داخل مكاتب الوزارات والمصالح الحكوميـة في مقابل مرتب ثابت تافه . وهي حياة ذابلة راكده تقتل روح الابتكار ، والاغلبية الساحقة من حملة الشهادات تطرق باب الوظائف الحكومية وتغلق بمجرد دخولها عقولها عن كل تفكير في كفاح أشرف ، وحيـاة أرفع ، ورزق أرغد ، وتجد نسبة المشتغلين بالتجارة بين المصريين لاتعدو ٣٦ في الالف لمجموع المصريين بينما هي بين الاجانب تصل إلى ١٥٥ في الالف لمجموع الاجانب أي أكثر من أربعة أضعاف العرب

هـذا حكم مصري عارف على قومـه وعلى عجزهم في التجارة وكنت منذ مدة أقرأ شيئاً على صاحب لي من علمـاء مصر وهو ممن تولى الوزارة بعد حين ، فكان مما تلوته عليه لآخذ رأيه قولي أن الشامي والايطالي واليوناني واليهودي أقدر على معاناة التجارة من المصري. فانكر عليّ رأيي وأظهر الدهشة من صراحتي . ثم اطلعت على احصـاء عملته احدى الصحف المصرية الكبرى في سكان شارع واحد من شوارع

القاهرة وهو شارع سليمان باشا عددت فيه حوانيته ودوره ووكالاته ومن يملكها ومن يسكنها ونوع التجارة التي تتعاطى فيها فكان حظ الوطني من كل ذلك ضئيلاً جداً لا يزيد على سبعة في المئة .

ليست الوطنية باخفاء العيوب الماثلة في الوطن ، ومن علائم الوطنية الا تكتم الحقائق التي تحمل عبرة وقد قلت في فصل آخر أن من يحب بلداً يمحض اهله النصح ولا يخفى على أبنائه ما اذا غضوا الطرف عنه يؤذيهم ويورثهم ادواء يعسر فيما بعد علاجها .

ولطالما اعترضت على القانون المصري الذي يغض عن التاجر المفلس فيمكنه من فتح محل تجاري باسم مستعار غداة تقرير المحكمة افلاسه . وقد رأيت أشخاصاً من المصريين والجالية الاجنبية اعتدوا بتكرار اعلان افلاسهم الصوري فكانوا كل مرة يأكلون أموال دائنيهم هنيئاً مريئاً تحت رعاية القانون ويعودون بالصفقة الرابحة بهذا الاحتيال .

ولذلك كان معظم التجار الكبار في مصر من غير المصريين ، والاجنبي بما تقلده من سلاح المعرفة يغزو كل سوق ويفوز بالربح الوافر وينازع الوطني في التجارة منازعته له في الصناعات ، وفي باب الزراعة يملك جزءاً عظيماً من أطيان القطر ويديرها أحسن إدارة .

كتب أرباب الافكار من المصريين في هذه الموضوعات كثيراً ، وتفننوا ماشاءت قرائحهم في تحذير مواطنيهم عاقبة الاسترسال فيما لايجدي عليهم ، وأنا ألقي دلوى في الدلاء ، ومن الذوق ألا أنسب إلى الفضول والى التدخل في مسائل لاتعلق لي بها مباشرة . وأرجو على كل حال ألا يشق انتقادي على الوطنيين من المصريين ، فقول الحق لايؤذي والمؤذي تضليل العقول والسكوت عن اصلاح العيوب .

عجز وكسل

قال لي صديق مصري نقاد أنه شاهد في عشية باردة من ليالي كانون حول حديقة الازبكية بالقاهرة سرباً من الأطفال يناموت وليس عليهم ما يقيهم أذى البرد والشرطي يضربهم بحذائه بدون شفقة ، يطاردهم كما تطارد الكواسر والجوارح . ومن الغد قرأت في بعض الصحف الافرنجية التي تصدر في العاصمة أن شرطة مصر قبضت خلال السنة الأخيرة على ٨٦٠٠ متشرد ثم امتنعت من قبول من كان على شاكلتهم لقلة ما لديها من الأماكن لايوائهم . وقد وصفت صحيفة افرنجية اخرى أكواخ الفقراء القذرة العارية من كل ما يحفظ على نازليها صحتهم ، وقالت انها على قيد غلوة من تلك الجادات العظمى والقصور المنيفة والمصانع الفخمة في القاهرة والاسكندرية وبعض مدن الأقاليم ، وتمنت لو أن الحكومة ابتاعت تلك العشش وبنت للفقراء أحياء جديدة في الضواحي . وذكرت هذه الصحيفة بعد يوم ما صادف التذرع باصلاح حال الفلاح من الخيبة وقالت : اختلفت الطرق في معالجة أمره فمن قائل ان الامراض أكبر عامل في تأخره ، ومن مؤكد أن المياه الملوثة والبيوت القذرة والغبار هي من مهلكاته ، ورأى أحدهم أن تبنى له قرى نموذجية يضطر بعد حين إلى بناء مثلها بنفسه ، ومن قائل إن الحشيش هو علة العلل في ضعفه ، وقال قليل من المصلحين إن الواجب أن يبدأ بتعليم الفلاح وأن تشاد له مدارس ريفية وان يجعل التعليم الابتدائي اجبارياً إلى غير ذلك من الآراء التي أدلى بها أرباب المدارك . وقد ذهب ما كتبوه ونشروه في الهواء كما ذهب مشروع الحفاء والكساء .

ومن يعرف مبلغ مصر من الغنى وما لديها من الرجال والأدوات اللازمة

للتغلب على هذه النواقص لا يرى ما يبدو من التقصير إلا أثراً من آثار العجز والكسل . وموازنة كادت تبلغ مئة مليون جنيه لا يضيرها اقتصاد بضعة ملايين تؤخذ مما ينفق في البذخ والترف وتصرف في الضروري الحاجي . ويسرني ما ترامى إليّ من أخبار القاهرة أن وزارة الشؤون الاجتماعية اعتمدت مليون جنيه لانشاء مآوي للأطفال وإذا أطلقت الهمة بتنفيذ هذه الفكرة لا تأتي أعوام قليلة حتى لا يُرى متشرد في القطر ، وينقلب كيانه من فقر ومرض وجهل إلى شيء من السعة والصحة والمعرفة ، ويتم إصلاح الكساء والحفاء من ذاته بدون عمل كثير ، وإني لأخشى ، والفقير لا يُنظر إليه بعين العناية اللازمة ، ان يأتي يوم يطالب فيه بمستوى من العيش أرقى من مستواه ويهجم على الغنيّ يسلبه ماله وقراره ، ومتى زال الوهم عن البائس يجرأ على خرق القوانين ، وفي ذلك البلاء العظيم . نسمع كل حين في مصر نغمات جديدة تولدها غيرة المفكرين ، ثم لا تلبث أن تخفت نغمتها فجأة ولا يعاود أحد ذكرها وهذه مسألة الفلاح هل تمّ فيها على يد الحكومة والأهلين حتى الآن ما يوازي بعض تلك الضجة ؟

في مصر تشهد إسرافاً دونه كل إسراف وإمساكاً تقلّ له الأمثال في الأمور النافعة ، أنا لا أفهم المغالاة في إقامة الزينات تصرف فيها عشرات الألوف من الدنانير وألوف من الأطفال يعرَون ويجوعون ويمرضون ويموتون . ولا كيف ينعم مئات ويشقى مئات الألوف . معظم أبواب الصرف في الحكومة المصرية معقول والالزم منها توفير الماء النقي للفلاح والعناية بصحته وتعليمه وتوجيهه .

أعود فأقول إني أخشى على مصر من الدعايات السياسية الهدامة ، ولا أجد الحالة الحاضرة تدوم كثيراً . إن مصر تحارب هذه الدعايات منذ ظهرت في العالم ، واليوم تزيد في كفاحها من غير هوادة ، ولكن من يعصمها من تسرب ما يضر بكيانها إلى مدى بعيد ، ومن يضمن لنا ألا ينفجر المرجل

ذات يوم فيأتي لهيبه على الأخضر واليابس ؟ من الأمور ما يتعذر تلافيه ساعة الخطر ، فحري بأهل البصيرة أن يتداركوا الأمر قبل استفحاله . فقد خرجت حالة مصر في توزيع الثروة بين السكان عن حدود العقل ، ثم هي تبذر المال في امور قد يستغنى عنها ، وتشح في أشياء فيها كل الخير . في مصر من الرفاهية ما لا يكاد يوجد له مثيل في العالم ، وفيها من الفقر ما يتعذر تصور أكثر منه .

الفضول

ذكّرت رصفائي أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية في خطاب خطبته في المؤتمر الاخير (١٩٤٦) بما كان من أمر تعريب ألفاظ الجيش المصري وكان المجمع شرع في هذا الامر المهم ثم سكت عنه ، وقلت إن مصر قصرت عن العراق والشام في هذا المعنى . وقد عرب هذان القطران أكثر ألفاظ الجيش تركيّها وافرنجيها ، فقال رصيفي الدكتور فارس نمر باشا . لقد صرف النظر عن تعريب هذه الالفاظ لأن جهة عالية لاتريده . وسألته من الغد ومن يكون هذا الكبير الذي حال دون انقاذ اللغة العربية من مئات من الكلمات الاعجمية ، بعد أن تم كل شيء للخلاص منها فسمى رجلاً ذا مقام سام فاستغربت صدور ذلك منه ، وسألته عن حجته في العدول عن هذا التعريب فقال إنه يزعم أن هذه الالفاظ التركية المتأصلة في الجيش المصري هي من تراث أسرتهم فلا يجب أن يعبث بارث أهله ولا أن يجيء المتأخر بنقض مابناه المتقدم .

وعندي ان الغيرة على الجيد من أعمال الاجداد تكون باحياء سيرتهم ولا معنى للتعصب للغة ذهب من عشرات السنين سلطان أهلها من القطر وصارت فيه الكلمة الفاصلة لاصحاب البيت ، ولغتهم غير تلك اللغة . وقد رأينا جلالة فاروق الاول ملك مصر لما قبض على زمام ملكه يمنع التكلم بالتركية في قصره ، وكانت قبله شائعة ، لان مصر عربية والجالس على عرشها عربي فلا يليق ببيئته أن يتكلم لغة طوت الايام من فرضوها على غيرهم يوم كانوا هم أصحاب السلطان ، ونحن الآن لاتربطنا بهم صلة سياسية ولا ثقافية ولا لغوية ، وما نسينا احتقارهم للحروف العربية ولكل ماهو عربي ، وزهدهم في لغتنا وفتحهم الأبواب لدخول كل لفظ اعجمي في لغتهم .

انحطاط المسلمين

أحزنني ماقرأت في جريدة (أخبار اليوم) لمراسلها الانكليزي في لندن من أن بين الاثني عشر مليوناً من سكان ايران عشرة ملايين يحسبون من الجياع الاميين وثمانية مصابون بالزهري وربع الاطفال يموت قبل مرور العام الاول من ولادتهم . ومساحة ايران أكبر من مساحة اسبانيا وفرنسا والمانيا وان الفي عائلة ثرية هي التي تملك الاراضي ومنهم الوزراء والبرلمان وقادة الجيش ومعظم رجال الحزب الشيوعي . كلام فيه مبالغة وفيه حقيقة ، واذا أضفنا إلى ذلك مانعرفه من كثرة تفشي الافيون فيهم ندرك ماصارت اليه هذه الامة من الانحلال . وكانت قبل الاسلام وبعده آية في نظامها وأحكامها وصناعاتها ومدنيتها .

هذا ولا يزال التعصب الديني ينهك قوى فارس وما أتى رجال الدين فيها لعهدنا شيئاً يعتد به في اصلاح الاخلاق ، ولا انتصبوا للحد من ظلم الملوك عندهم . وما نسينا الشاه البهلوي كيف وضع يده على أملاك الناس وسكتوا عنه ، وفي مقدمة الساكتين مشايخهم وزعماؤهم . وفارس في الرسميات أمة دستورية تتضاءل فيها سلطة الفرد المستبد أمام سلطة الجماعة وما نخال هذه الصورة المغربة في ايران الا نموذجاً ساروا فيه على طريقة الكماليين من الترك في التهريج والدعاية . ولو قد ظهرت الحقائق في المملكتين بصورتها الناصعة لكان من ذلك مايدعو إلى خيبة الآمال من اصلاح يتولاه شرقي مسلم . وليس من ينكر أن الاتراك والفرس نهضوا في العهد الحديث وأنهم ارتقوا في سلم المدنية بعض الرقي ولا يسعنا أن ننكر أيضاً أنهم ظلوا متخلفين عن الامم الراقية في أشياء جوهرية .

وقال لي من اثق باخبارهم من العرب والافرنج ممن سكنوا سنين في

ايران ان حكومتها لاتهتم إلا بالظواهر وكثيراً ما تصرف وقتها ومالها في التافهات . تفتح مثلاً شارعاً في قرية بعرض خمسين متراً ولا تفكر في ان تصلح طريقاً يجيء منه السيل كل سنة فيأتي على عشرات من القرى يحطم أشجارها ويفسد زروعها ويغرق من سكانها وحيوانها . ومن ذلك ان حكومتها تنفق كثيراً في الكماليات وتعجز عن اسالة ماء طاهر في انابيب تسقي عاصمتها طهران . وما برحت المياه الملوثة تحمل الامراض لسكانها والطبقة العالية يحمل اليها الماء في صفائح ترسلها شركة أجنبية من مكان سحيق . قالوا ومعظم رجال الحكم والسياسة يقامرون ويشربون ويصرفون أوقاتهم في اللهو والمجون، على نحو ما هي اخلاق بعض حكام اهل الاقطار التي تمدنت في هذا الشرق القريب وإذا كانت أخلاق الأئمة على هذا المثال في التفسخ فماذا تكون أخلاق المؤتمين ؟ ومن بلغ من الضعف الى هذا الحد لا يرجى منه خير لمصلحته ولا لمصلحة قومه .

أكتب هذا وان قلت صلته بحسب الظاهر بالمذكرات وهو بتعليقات الصحف اليومية على الحوادث أشبه . وما زالت منذ الطفولة إذا قرأت كتاباً لرجل نشأ في فارس يذهب بي الفكر حالاً إلى حالة دولة العجم اليوم وما هي عليه من الانحطاط المشهود بعد ذاك الارتقاء المحمود . وهذا يكفي ان يشفع لي في ان اعرض لهذا الموضوع مادام جزء كبير من حضارة الاسلام والعرب قام في أرض تلك المملكة العظيمة ، وفارس امس وفارس اليوم عضو متمم لهذا الجسم الكبير .

مشيخة الازهر

لما خلت مشيخة الازهر بوفاة شيخه العلامة المراغي تطلع بعض جماعة كبار العلماء لهذه الرياسة وحدثت مشادة بينهم وبين الحكومة ، هذه تحب توسيد المنصب لرجل رأت فيه الصفات المطلوبة لسياستها والعلماء يدعون أن قانون الازهر يحظر انتخاب مرشح من غير جماعتهم وقانونهم يشترط في الشيخ أن يكون أزهرياً درّس في الازهر خمسة عشر عاماً ، وصرحوا أن مرشح الحكومة وان كان أزهرياً وعلم سنين طويلة فان تدريسه كان في الجامعة المصرية لا في الأزهر الى غير ذلك من الاعتراضات فلم تر الوزارة الا ان تعمد الى تعديل نظام الأزهر حتى لا يبقى للطامعين في رياسته قول يقولونه ، وعينت بذلك مرشحها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للاسلام . وهذا اللقب يطلق على صاحب هذا المنصب الخطير من القديم . ولما حظى الشيخ الجديد بالمثول بين يدي جلالة ملك مصر التمس منه أن يعفيه من لقب الباشا الذي كان أنعم به عليه حين كان وزيراً للأوقاف واكتفى بلقب شيخ لقبه القديم منذ تخرج من الأزهر . وهو اللقب الذي ما كان قدماء أصحابه يألفون غيره في نداءاتهم له وخطابهم اياه . وهكذا أصبح يلقب بصاحب الفضيلة وكان بالامس يلقب بصاحب المعالي ، كل هذا قشور في الحقيقة ، والمهم في الأمر أن يوفق الشيخ الجديد الى اصلاح الازهر اصلاحاً فعلياً والا فيكون كأكثر شيوخه ينعمون زمناً بهذه المظاهر ويمتعون بالرواتب الضخمة ويتركون مناصبهم بعد ذلك بدون أن تعرف لهم مأثرة تذكر في خدمة الاسلام والمسلمين .

حديث ذو شعب

نشرت الاهرام لمراسلها في باريز (٩ فبراير ١٩٤٦) تصريحات زعمت انه أفضى بها شيخ الجامع الازهر الاستاذ مصطفى عبد الرازق (لمكاتب جريدة (الموند) الباريزية قال فيها ان فرنسا اكتسبت لنفسها مكانة ممتازة بما بذلته من الجهود الكريمة في الحقل الثقافي خلال العالم الاسلامي وانه يرجو ألا تتخلى عن تقاليدها لكي تحتفظ بما يكنه لها العالم الاسلامي من حب .

هذا الحديث ذو شقين أحدهما صحيح في الجملة والآخر ليس كذلك في التفصيل . أما أن فرنسا بذلت جهوداً في ثقافة العالم الاسلامي فهـذا صحيح من بعض الوجوه وان كانت الاغراض التي ترمي اليها من وراء ذلك ظاهرة معروفة وقد أتت في هذه السبيل ماتأتيه كل دولة استعمارية فكان من مدارسها خير وشر . أما الشق الثاني فهو الذي ترد على عدم صحته براهين كثيرة . فنظرة في حال مسلمي شمالي افريقية وأهلها الذين اختلطوا بالفرنسيين كثيراً ندرك بها هل يحب أهل مراكش والجزائر وتونس فرنسا أم يكرهونها كراهة ليس بعدها كراهة . وكيف يحبونها وقد اغتصبت أراضيهم من أيديهم يوم دمرت على ديارهم وأعطتها المستعمرين من ابنائها . وسعت منذ وطئت أرض الجزائر في سنة ١٨٣٠ أن تحل جامعتهم وتقضي على لغتهم ثم حاولت أن تجنسهم بجنسيتها وتلقنهم تربية لاتبقى على مشخصاتهم . وليس في مسلمي تلك الاقطار ولا سيما في الجزائر الطويلة العهد بحكمهم من يعد من عظماء الرجال في العلم والسياسة والفنون على نحو مانرى في مصر والشام مثلا وليس لهم من الثروة مايعد شيئاً بالقياس الى ثروة أبناء هذين القطرين بل أن مستوى المعيشة فيهم أقل من مستوى المعيشة في أحط الاقطار العربية . فالقول بان

العالم الاسلامي يكنه لفرنسا الحب بعيد كل البعد عن الواقع فان مااجترحته فرنسا في سورية من التدمير والقتل في السنة الماضية مازال ماثلاً للعيان وكلما ذكر ترتجف منه الاعصاب .

ولقد أكد لي أحد العارفين أن مكاتب الجريدة حرف كلام الاستاذ الاكبر وبادرت فرنسا باهدائه وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير وما ادرى ان كان المهدى اليه قبل هذه الهدية . وقد احدثت هذه التصرفات ضجة في الصحف المصرية والشامية وسكت صديقنا الشيخ مكرهاً على مايظهر .

طمس الحق

قال لي صديق عزيز عليّ أنه قرأ كتابي الاخير (دمشق مدينة السحر والشعر) وكان يود لو أغفلت ذكر ماقامت به فرنسا من الاصلاحات في سورية في عهد الانتداب فان تسجيل ماسجلت وان كان حقاً هو مما يضر بنا ، وما كل حقيقة تقال هذا رأي اشبه بآراء رجال السياسة والناقد الحبيب منهم . أما المؤرخون فقلما يجوزون السكوت عما يعتقدون انه الصواب ، وقول الحق من أهم شروط المؤرخ والتاريخ يسجل الخير والشر ثم إن من غمط حق عدوه كان حرياً أن يتهم بالعصبية لصديقه ومقترف ذلك يزيل بصنعه مسحة الصدق من كلامه ويفقد ثقة الناس ويكسب سبّة الدهر .

الفرنسيون في آخر أيامهم في الشام أساءوا اساءة ليس بعدها اساءة قذفوا مدننا بحممهم فقتلوا الابرياء وهدموا البيوت وأتوا على المصانع فانكر العالم وانكر عقلاؤهم هذا العمل المشين ، ولتضاف هذه الاساءة على جريدة جنون اهل الغرب في هذه الحرب . وكل هذا لايستلزم أن ننكر ما تم على أيديهم من الاصلاحات في الشام ايام انتدابهم عليه .

وقد ارتكب الفرنسيون سبة أعظم في الاثر من القتل والتدمير ، ارتكبوا العار بافساد الاخلاق بنشر الجاسوسية بمقياس واسع وجعلوا من بعض التلامذة والمعلمين جواسيس نمامين . واغرقت فرنسا في جاسوسيتها فكانت لاتقر تعيين آذن أو فراش الا إذا شهدت دوائر الاستخبارات بحسن حاله ، والويل لمن كان في جزازته الخاصة شيء لايرضيهم من سيرته ، فانه يحارب في رزقه ويبقى من المغضوب عليهم حتى الممات والفرنسيون أجرموا في العهد الاخير مع انفسهم فلا يتوقع منهم إلا أن

يجنوا على غيرهم ، ومع كل ما أتوا ليس هناك مايحول دون قول الحق فيهم فيما احسنوا .

وبهذه المناسبة شهدت بعض من يشتغلون بسياسة سورية لم ترضهم بعض المواضع من كتاب دمشق فانا أقول لهم ان هذا ماعرفته ورأيت النفع في تدوينه ، فاذا كان غيري يعرف غيره فليبادر الى نشره . ولا يلزم المؤلف أن يرضي بتأليفه كل الطبقات فللسياسيين منازع لا أقول بها ولا أحب لنفسي أن أكون لهم بوقاً ولا أجوز ان اخدم أفكارهم واغضب الحق . أؤلف لنفسي مااعتقد نفعه ، فاذا كان في أرباب المناصب السياسية من يعتقدون أنهم أهل لعمل شيء من هذا القبيل فليبرزوا الميدان فيحكم العقلاء لهم أو عليهم . أما لتسخير أقلام الاحرار لاغراضهم فامر متعذر عليهم وعلى غيرهم .

الدين النصيحة

دفع إلي صديقي الاستاذ عبد الملك الخطيب باشا صورة مذكراته السياسية وفيها كلام عن صلاته بالبيت الهاشمي ، وما شهده من احداث الحركة العربية خلال الحرب العامة وبعدها ، وما دار بينه وبين الملك حسين بن علي وابنه الملك فيصل من الرسائل . وقد حمله جميل وفائه ، وفرط أدبه على أن يعرض لذكري بالخير ، ويشير إلى ما كان من نصحي له أيامَ كان الشريف حسين ابن علي أميراً على مكة المكرمة أواخر أيام العثمانيين . وكان أعداء الأمير من الاتحاديين الاتراك يتعمدون تسويد صحيفته ويصغرون من شأنه ويلقنون العرب بغضته للترويج لسياستهم ، فسرت اختلاقاتهم إلى بعض أبنائنا من حيث يدرون ولا يدرون . وذكر السيد الخطيب ما كنت أعمد اليه ، وأنا في رياسة تحرير جريدة المقتبس في دمشق وهو في مكة يرسل مقالاته عن الحجاز ، من ادخال بعض التعديل في عباراته حتى لا يكون منها ما يتأذى به إذا نشرت كما كتبت أول مرة . ذلك لأن النقد المعتدل أقرب الى سلامة كاتبه ، وأدعى إلى تأثير كلامه في الافكار .

ولما جاء السيد عبد الملك دمشق ، واطلعته على ما كان يتعذر اطلاعه عليه بالمكاتبة ، ووقف على مرامي الاتحاديين اصحاب الحكومة ، وعلى ما كانوا يقصدونه من حملتهم وتحاملهم على الامير ، وهو الرجل المرجى يومئذ للنهوض بالعرب ، انتبه صاحبي لما يحاك لقومه من الدسائس ، وعاد الى الحجاز مزوداً بوصايا للامير مني ومن بعض أصحابي وأصحابه ، طلبنا فيها رضاه عن ابن الخطيب فتفضل واستجاب لملتمسنا ، وما زال يعطف عليه حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ونودي بامير مكة ملكاً على الحجاز أو على العرب كما كانوا قالوا أولاً ، وأرسل ابن الخطيب إلى مصر معتمداً سياسياً له ، فتيسر له

الاختلاط برجال السياسة من البريطانيين والمصريين وغيرهم وأفاد من هذه العشرة . ولو لم يستمع ابن الخطيب للنصح يسديه الصديق مخلصاً لظل في ارض الحجاز مغموراً ولطمس ذكاؤه وعفت مواهبه ، ولما قام بما يندر في الحجازيين إذ ذاك من يحسن الاضطلاع به من العمل لخدمة القضية العربية ، وثمرة التعقل في الحكم على الامور جنية شهية .

رأيت المستنصحين على ثلاثة ضروب ضرب يقبل نصح الناصح بدون مناقشة ويشكره عليه ، وآخر يقبل بعضه ويغفل الآخر ، وثالث لا يقبل من النصح ما يخالف هواه ، وربما هزأ بالناصح وعاداه . وفي الناس من لا يرتاحون الكلام إلا إذا وافق ما في نفوسهم ، ولا يسرهم الا كلام من يغشهم ويرائيهم . وقد وقع لي أن نصحت لبعض من استنصحوني فنجوا من سقطات كان فيها لو لم يعملوا بالنصيحة افلاسهم أو حتفهم ، وعهدي ببعضهم يعضون أصابعهم ندماً على تضييعهم الحزم وعصيانهم على النصح . ومن يزدرون بآراء أرباب التجارب هم في العادة من الخاسرين .

غلط غير مقصود

« وان قارءه ليتبينن أنه يعنى بتخير الالفاظ وبجزالة الاسلوب عناية تجاوز المألوف حتى بين الادباء . وكان يسعفه في ذلك سعة علمه باللغة ومفرداتها ، وربما دعاه تبحره فيها الى إيثار الغريب حين يجده أحسن اداء أو اصح وضعاً . وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها ، وقد يرميه البعض بالتشدد » ، هذا ما قاله رجل من أكبر رجال القانون في مصر الاستاذ عبد الحميد بدوي باشا في رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية الاستاذ محمد توفيق رفعت باشا يوم استقبله المجمع بصورة رسمية عضواً فيه خلفاً للرئيس الراحل . وهي شهادة لا تصدق على ما كان عليه الرئيس الماضي من المعرفة . فقد عرفته منذ انشاء المجمع فما تجلى لي بعض ما قاله العضو الجديد فيه ، وعجبت من رجل اشتهر بنزاهة أحكامه كيف يُجمّل صاحبه على هذه الصورة ، وما اوقعه في هذا الغلط إلا أن القاضي الكبير خدع على ما يظن بما قرأه لصاحبه معزواً اليه من الخطب الرسمية في أخريات أيامه . وما كانت هذه الخطب في الحقيقة إلا من انشاء الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري كاتب المجمع ، وهذا الوصف في اختيار جزل الالفاظ والتوسع في اللغة يصدق عليه لا على الرئيس . وكان كاتب المجمع أو المراقب الاداري كما يسمونه يكد قريحته ويكتب لرئيسه وهذا يوقع .

إذاً لقد اشتط القاضي في حكمه على سلفه ، وأنت سقطته من اغتراره بما قرأه له مرقوماً باسمه ، والظاهر ان رجال القضاء يعتمدون على النصوص فيما يعرض عليهم فيعملون بموجبها ، والفتوى عندهم على قدر النص . وقال بعضهم ان صدور مثل هذا الحكم من قبيل المجاملة ، وأي مجاملة تصح في العلم ؟ أما المترجمون للرجال فلا يصدرون أحكامهم قبل أن يقدروا

ملابسات أخرى فينظرون في جملة ما ينظرون فيه الى بيئة الرجل واوليته وحليته وتآليفه ومقالاته . وكل ذلك لم ينظر فيه القانوني الكبير على مايظهر ومرءٌ مسرعاً فيما وقع عليه من خطب معزوّة الى الرئيس في مجلة مجمع اللغة العربية . ومثل هذه الغلطة التي ساق اليها الاغترار بالظواهر يرتكبها اعظم المتحرين للحق ، والدرهم الزغل يجوز على الصيرفي الحاذق .

وقد وقع من هذا القبيل على الأيام تلفيقات نال بها من الصقت بهم شهرة مزيفة كانوا بها مدينين لمن هيأها لهم ، وكان فيها الكاتبون غير الموقعين والموقعون يجهلون أحياناً حتى ما يصدر باسمهم . وحدثني من أثق بهم من أدباء المصريين أن رجلاً من أبناء اعيانها لا يزال يستكتب بمقالات وأقاصيص ينشرها في الصحف والمجلات وهو لايحسن الكتابة ، يكتب له باجرة ، حتى اشتهر عند القراء بأنه كاتب ظريف ، وما هو من الكتابة في العير ولا النفير . قال واصيب هذا الوجيه مرة بعارض جنون وشفي بعد حين ولم يشف من داء الشهرة يصيبها من كتابات يعزوها اليه من يطمع في ماله فيخدمه ويخدع الناس به .

مقالة أخلاق

اعجبت بثلاثة من رصفائي أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة الحاخام حايم ناحوم افندي والدكتور فارس نمر باشا والاستاذ عبد العزيز فهمي باشا . اعجبت بثباتهم على الحضور . كف بصر الأول وما كف على شيخوخته وهو في عشر الثمانين عن أن يحمل نفسه على حضور الجلسات . وابتلي الثاني بمرض في المثانة مع الصمم الشديد ولا يزال وهو في عشر المئة يشهد الجلسات ويرأسها إذا تغيب الرئيس بوصفه اكبر الاعضاء سناً أما الثالث فهو أكثرهم عناية بعمل المجمع يدرس المسائل المعروضة درس تدبر قبل ميعاد المناقشة فيها ويبحث فيها بحث البصير وان لم تكن داخلة في اختصاصه يعمل هذا حباً بالعلم وتفانياً في داء الواجب . وما أضعف مرضه تفكيره ولا حط من قواه . وعلى شيخوخته وهو في عشر الثمانين لا يتخلف عن شهود جلسات المجمع وجلسات المؤتمر السنوية . وهناك أعضاء لا يحضرون الا نادراً ومنهم من لا يحضر أبداً ومن الاعضاء من هم في مناصب كبيرة لا تسمح نفوسهم بالتخلي عن عضوية المجمع ولا تسمح أوقاتهم لاعطائه حقه من دوام وعمل . وفي اعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق مثال من أعضاء مجمع القاهرة ، ومن أعضائه من يطرد دوامه ويعمل بذمة ونشاط ومنهم اعضاء لا يحضرون ولا مرة في السنة ومنهم من لم ينفعوه بادنى نفع لا يؤازرون في مجلته ولا يحاضرون في ردهته ولا يشهدون جلساته واكتفوا باللقب الذي أفادهم في معنوياتهم ومادياتهم ومثل ذلك يقال في الأعضاء المراسلين في الشام ومصر . وكان أعضاء العراق من المبرزين فانهم قاموا بواجبهم نحو المجمع العلمي العربي بل بواجبهم نحو لغتهم وامتهم .

عيدنا الوطني

احتفلت دمشق عاصمة جمهورية سورية يوم ١٦ جمادى الاولى ١٣٦٥ (١٧ نيسان ١٩٤٦) بعيد جلاء الجيش الفرنسي عن اصقاعنا واشتركت في هذا المهرجان مصر والعراق والمملكة السعودية (الحجاز ونجد) واليمن ولبنان وشرقي الأردن . شاركتنا في عيد استقلالنا الذي فقدناه في اليوم الذي فيه قتل الملك الظاهر بيبرس البندقداري آخر رجل من سلالة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقبض على زمام الملك ، وأسس دولة المماليك ، وظللنا في ايام هذه الدولة وفي أيام الترك العثمانيين ثم في عهد الانتداب الفرنسي امة محكومة يتولى أمرنا ولاة من غير جنسنا وأحياناً من غير أهل نحلتنا ، ويسن قوانيننا غيرنا وقد يسنون ما لا يلائمنا ، وضعفت فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة الحكم وملكة العلم ، وانحططنا في أخلاقنا وبياننا وتفكيرنا وصناعاتنا ، وانفرجت مسافة الخلف بين الطبقات ، وابتعدت كل طبقة عن اختها لا تشاركها في غير الهواء والماء ، وكان من الطبيعي في هذا المجتمع المنحط أن يأكل القوي الضعيف ويغدو رجال الدين ورجال الدنيا أشبه بالعامة في أفكارهم وان تغرق البلدان في تيهور الجهل المركب ، وكانت اذا هبت تتلمس سبل النجاة لا تهتدي الى سلوكها . فحق للامة ان تبالغ بالاحتفال لهذا العيد ، عيد الاعياد ومبدأ سعادة الابناء والاحفاد .

ولقد أتى رئيس جمهوريتنا فخامة السيد شكري القوتلي في خطابه ذاك اليوم السعيد على مجمل ما عانته الامة من الآلام حتى بلغت امنيتها وذكر بالخير من شاركوا في هذا الجهاد ، ونسي فئة صالحة كانت من العاملين الممتازين . ونحن لا نومئ هنا الى من لم يكونوا مع الثائرين في وقت من الاوقات ، بل الى من كانوا مع الثائرين من البداية الى النهاية . وكانت

عين الرضا متجلية على كل من حمل السلاح ، أما من شقيت حياتهم في اعداد الأفكار للثورة الحقيقية ، ومهدوا السبل لانارة الافكار ، وجاهدوا سنين حتى لقنوا الامة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية فهؤلاء لا حظّ لهم من التنويه لانهم ما حملوا السلاح .

ومما قال الرئيس الأول اننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيانته وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به . وهذا كلام يجب الا ينساه كل وطني فالجهاد الذي ندخل فيه اليوم اصعب من الجهاد الذي كنا فيه ، وإذا قام كل واحد منا بواجبه ننهض في سنين قليلة نهضة لا يصل اليها شعب في أجيال ، ذلك لان أسباب النجاح متوفرة لدينا ، تربتنا خصبة وتربيتنا تحتاج الى الجهد فقط .

ومن أول ما يتحتم على رجال الجمهورية ان يحسنوا اختيار العمال ويتشددوا في مراقبتهم يختارون الأطايب من دون نظر الى حزبيتهم ونحلتهم ، لا يقربون ذوي القربى ، ولا يصانعون في توسيد زمام الحكم الى من يرضون عنهم ، وبذلك ننجو مما كنا نشكو منه وننسبه للدخيل ، وعلينا يقع جزء عظيم من التبعة في الماضي كما تقع علينا كل التبعات اليوم .

نحن لا ينقصنا شيء من أدوات النهوض الا بعض الاخصائيين في الفنون والصناعات نجلبهم من الامم التي سبقتنا الى التمدن ريثما يتخرج في ذلك أبناؤنا . وقد رأينا طلائع هذا في بعض ما نظرنا فيه من المصالح العامة . فواجبنا على اي حال أن نسير بتعقل في اصلاحنا وننبذ الاسراف ونتوخى صرف أموال الدولة الا في طرقها المنتجة .

حس الواجب

لو أحس كل فرد بالواجب عليه لعد بلده سعيداً وأهله من اهنأ الخلق ، ولو انصف الناس انفسهم بانفسهم لقلت حاجتهم إلى الوازع ، ولما احتاجوا كل ساعة إلى من يهيمن عليهم ، ولو انعدمت صفاقة الوجوه ما ادعى كسول بعد الهمة ، ولا مهمل فرط العناية ، ولا جاهل فضل العلم ، ولا طاع مقامات الزهد ، ولا أخرق مواقف السداد . رأيت بعض من يرجى منهم الخير أكثر العالم شكوى من بيئتهم ، وحالهم أيام القوة لا تختلف عن حالهم أيام الضعف . رأيت من كتب عليه التقصير بفطرته لا ينفك عرضة له في جماع حالاته ، ويلقي معاذيره عن أعماله ويصطنع الجد ويتصنع في أقواله وأفعاله .

عمال الدولة اقرب الطبقات الى النظام ، ومن اوسعهم علماً ومعرفة في هذا الشرق القريب ، فهل يحسون يا ترى بالواجب الى الحد الذي ينبغي لهم ويتوقع منهم ؟ وهل ينشطون للعمل بالقدر المطلوب منهم ؟ ونحن نرى اكثرهم يتشكون من كونهم في درجة لا تمكنهم من الانتفاع بمواهبهم ، فاذا ما وصلوا إلى ارقى ما قدر لهم من الدرجات استبان أنهم لا يمتازون عن غيرهم إلا بكثرة الشعوذة وعظيم الدعوى . والمرء إذا لم يأت في شبابه ببرهان على كفاءته لا خير منه في كهولته وشيخوخته .

إذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار

الفرق كبير بين عامل وعامل ، ويكاد الذكي والغبي أن يكون انتاجهما في مستوى واحد ، والنافع عندهم هو الذي يتولى عملا ولا يغير فيه ولا يبدل ، يرى الخلل ولا يصلحه والعلة فلا يبحث عن اصلها ، يكثر الوعود ويبشر بما ليس له وجود ، وإذا فاز لا يحقق بعض الرجاء فيه . ولطالما ألمت من بعض الموظفين فى أعمال الدولة ممن لا يهمهم من وظائفهم إلا قبض الرواتب والترقي في الدرجات ، ولا تحدثهم ذممهم ان يعطوا من انفسهم بعض ما قبضوا من أجر

على عملهم . ويؤلمني كل الالم من يحاول أن يغتني منهم في أقصر زمن ، ولو عومل بعض المهملين بالصرامة ، ومـا سكت الرؤساء عن الاهمال الصغير المؤدي الى الاختلال الكبير لما فشت الرشوة في مصر والشام في دواوين كان الواجب أن تكون مثال الاستقامة والشرف ومن الغريب أن يتسامح المسؤولون بالرشوة إذا قام المرتشي بما يعتقد الكبير فيه انه نافع للوطن على أي حال ، أما أنا فما برحت منذ وعيت اغتبط كلما رأيت النكبة تحل بالعامل الساقط ، وعلى نسبة ذلك آسف يوم ارى عاملاً مستوفي التجربة يصرف بانقضاء مدة خدمته او لغرض آخر من اغراض الصرف .

تكون التبعات التي تلحق الكبراء على نسبـة عظم مناصبهم ، وانك لترى بعض الوزارات على الحالة التي كانت عليها يوم تأسيسها يجيئها النابهون النابغون والمتوسطون المغمورون ، ويروح الذكي كما راح الغبي ، وحال من قضى أشهراً في عمله كحال من قضى أعواماً لا يفكر في اصلاح ما تمثل لعينيه من عيوب ، ولا يعالج ما يبدو من معوج الطرائق ، همه أن تدوم مهمته طويلاً ، وان ينجز ما يعرض عليه من المسائل اليومية ، ومنصبه العظيم الذي أهله لان يقوم فيه بكل ما يعن له من الاصلاح يتسلمه القادم كما يتسلمه الراحل .

ومن أهم ما تتجه اليه همم هذه الطائفة يوم تولي الحكم حماية الأهل والولد ، ومن اتصل منهم بسبب ، يحلو لهم ايجاد المخارج لنفاذ ما قام في أذهانهم . والويل للمصلحة العامة ممن كثر ذوو قرباه وانصاره ، فانهم يتربحون باسمه ويتغنمون فرصة انبساط جاهه ليملأوا جيوبهم وعيابهم . والملك لا يسعد فيه الكبير والصغير الا اذا نفذت القوانين فيه على العدو والولي وبذلك تتجلى الفروق بين مملكة منحطة واخرى راقية ، مملكة ينخر جسمها سوس الاستبداد وأخرى لعيش آمنة مطمئنة في ظل دستور نافذ الحكم على كل ساكن .

الكتابة الباردة

وأعني بها الكتابة التي تجردت من الحرارة بحيث لاتفعل في نفس قارئها ولا تبقي فيها اقل أثر نافع . فالكلام البارد قليل الفائدة وحرام العاب القاريء يفك حروفه . وهذا النوع من البيان شبيه بمن يأكل في منامه حتى إذا أفاق لايرى أمامه شيئاً ، ثم أي فائدة من كلام فاتر لايهيج له عصب ، ولا يلقى في روع تاليه مايخرج معه بشيء ينفعه ، ولا يعيضه عن فكر سقيم بفكر سليم .

قد تقرأ كتباً ورسائل ومقالات إذا انتهيت من تلاوتها تصدر بلا محصل ، لان واضعيها ظنوا التأليف يقوم بتنميق الجمل والمعاني المطروقة والاستطرادات المبتذلة ، وأمور ليس منها فائدة إلا تكبير جرم الرسالة أو المقالة .

ومن التآليف الباردة مايبدو بادني نظر أن كاتبها يكتم بعض مايعرف من الحق ويخدع قارئه ، وبعضهم لايتطال إلى أكثر من تزجية وقت المطالع وتسليته ، لايحاول أن يهدم أصلا من الاصول المعوجة مخافة أن ينشأ عن تصريحه ازعاج أحد ، وماكان في شرع المؤلفين ان يسلوا كل الناس ويأتوهم بما يرضيهم كل حين ، وأي صحيفة هذه التي تحاول أن تحرز موافقة عامة المنازع والاهواء . الحياة كلها جدال ، والتآليف لاتخرج عن حدّه ، فقول الحق هو الذي خلدت به كتب الجاحظ ، ومن مشى على أثره من العلماء . ومن نافقوا القراء صدروا وما كتبوا لايساوي قيمة ما كتب عليه من الورق ولا يبقى إلا بمقدار ماتبقى اوراق الشجر

المتساقطة على أديم الارض في الخريف . ومن جسروا وكتبوا ماعن لهم بحرية لقيت كتاباتهم القبول ، والتأليف الطريف هو الذي استهدف للاخذ والرد . وما أكثر من كان العجز مانعاً لهم إلا من سرقة أقوال غيرهم . وأي نفع يرجى من كلام لايصور حقيقـة صادرة عن نفس ملتهبة مقتنعة عما تقول ، مأخوذة بحب الحق وما الفائدة من تأليف لاينم عن الزمن الذي وضع فيه ولا يصف أهله ولا يعرض لما يسوؤهم وما يسرهم ، وأضر الناشرين من يتوخون ابقاء الناس في عمـاية ، ويحاولون اقرارهم على ما هم فيه ، ولو كان ظاهر الضرر ملموس التفاهة . ومن الكتب مايسوغ لك أن تضمه في أي قرن من قرون الانحطاط لانها خلو من صفة من هـــذه الصفات التي تتطلب من التأليف ، كتبها كاتبها بفتور واكتفى بها من الجولان في دائرة يبدي فيها ويعيد على غير هدى وليت شعري ما الفائدة المتوقعة من اغفال الحق في موقف يتحتم فيه الجد ، اللهم ان كان مقصود المؤلف من تأليفه ان يقال فقط انه ألف وربح من تأليفه كذا من النقود كأن المقصد الاول من التأليف كسب المـال . والعجب ان يسألني بعض معارفي عما أجدت عليَّ كتبي من فائدة مادية وقلّ أن سألني سائل ماذا كان من اثرها في أفكار من كتبت لهم .

واذ عودت نفسي أن أطرح من ذهني الارتفاق بالتأليف ، والتجـارة بالآداب ، لعزيت بما كتبته لأنه كان أكثره من الكتابات الحارة أي أني لم أكتم شيئاً من الحق الذي عرفته ، وهززت شعور القارئ حتى يتلقى ما قرأ بحرارة أيضاً ، ولو قدر لي أن اصانع في التأليف لفقدت الصفتين المادية والمعنوية ، ولو انصرفت همتي الى تأليف قصص مؤلفة ومترجمة لجنيت مالاً جماً ، ولكن كان هواي في بث فكرة جديدة أو احياء فكرة قديمة

بهذا الاسلوب الذي اصطنعه علماؤنا الأقدمون والمحدثون ، وما عدا ذلك لا يتعلق عليه كبير أمر عندي .

أنا من أنصار الكتابة الحارة لا الباردة ولا الفاترة لاعتقادي بأنها تأتي بالفوائد ، اريد من الكتابة أن تبقى أثراً في النفوس ، وتنزع قديماً بالياً وتستعيض عنه بجديد مفيد ، ولو كان في ذلك غضب خمسة وتسعين بالمئة من القراء ، ولا قيمة لغضب بعضهم ورضاهم اذا صدروا عن سخف وغرض .

الكتلة الوطنية

بعد مغادرة الملك فيصل هذه الديار اجتمع بعض فلول حزب الاستقلال وحزب الفتاة وتألفوا جماعة الدخول في الانتخابات للمجلس النيابي فكانوا الكتلة الوطنية ، ولما تألف حزب الشعب قبيل الثورة السورية خاف السيد صبحي بركات رئيس الاتحاد السوري على منصبه فأ كبر أمره أمام المحتلين ، فنفي بعض زعمائهم إلى حسجة من الجزيرة ، ثم الى بعض قرى لبنان مدة . وزعم بعض من لهم صلة بالفرنسيين بأن الكتلة ذات علاقة بالانكليز .

وعطف الناس على هذه الكتلة يناصرونها بكل مافي وسعهم ، يغلقون حوانيتهم في المدن اياماً ، للاحتجاج على بعض اعمال السلطة ، ويضربون عن اعمالهم ويشغبون . ودام آخر اضراب خمسين يوماً ظهرت فيه دمشق وحلب وسائر المدن والقصبات بمظهر من التكاتف لا نظير له ، وأبان الاهالي عن اخلاق حسنة ومعرفة بالواجب الوطني . ولما شلت الحركة الاقتصادية في سورية باجمعها دعت حكومة الانتداب بعض الزعماء من الكتلة وغيرها وجرى الاتفاق على انهاء الاضراب ، وارسال وفد إلى باريز للمفاوضة ، وعهد بهذه المهمة الى بعض المقدمين من رجال الكتلة ، وانقلب المفوض السامي المسيو دي مارتيل من جبار يضطهد الكتله ويحتقر رجالها ، الى رجل عدل وذوق يحترم مقدميهم ويصانعهم . وما أكثر تبدل السياسيين بتبدل سياسات دولهم ، فهم كالممثلين على المسرح كل ساعة في صورة ، وقضى الموفدون في باريز مدة لم يسألهم أحد عن سبب مجيئهم ، ثم فاوضهم بعض رجال حكومتها ووقع الاتفاق على مواد المحالفة الجديدة .

وعاد رجال الوفد ممتعين وكتلتهم بثقة الامة ، تسير معهم راضية لاتخالف

لهم رأيا ، وجرت الانتخابات النيابية ، فكان النواب في المجلس من كل من احبت الكتلة وضع ثقتها بهم ، ومن حرصت الحكومة المنتدبة على انتخابهم ، واختاروا رئيساً للجمهورية احد البارزين من جماعتهم السيد هاشم الأتاسي ولرياسة المجلس السيد فارس الخوري ولرياسة الحكومة السيد جميل مردم بك يعاونه ثلاثة وزراء فقط ، كل واحد منهم يتولى وزارتين . ونزل الرئيس السابق السيد محمد علي العابد عن رياسة الجمهورية قبل اتمام مدته بستة أشهر ،

بدأ أصحاب الكتلة يطبقون منهاجهم فأتوا الى بعض الوظائف بجماعتهم ، وبعض من اعتمدوا عليه لم يعرف بانه من اصحاب الجد ولا اشتهر بمعرفة ، وأخرجوا من الوظائف الكبرى بعض من ليسوا على سيرة حسنة ، او ممن ثبت تلاعبهم في كل دور ، وظن بعض جماعة الكتلة أننا اصبحنا امة حرة مستقلة ، واحبوا ان يتحرروا من القيود القديمة ، وتركوا المستشارين جانباً لا يستشيرونهم ولا يلتفتون اليهم . فكان من اثر هذا أن اشتعلت ثورات خفيفة في بعض الانحاء ، وأهين عمال الجمهورية وروعوا وعيالهم ، وكان على ما قيل السبب في ايقاد جذوتها بعض الموتورين ، وقيل ان حكومة الانتداب رأت من بعض رجال الكتلة عطفاً على بعض الدول الكبرى .

ولقد نصحت لبعض أصدقائي من رجال الكتلة ومنهم صديقي فخري بك البارودي ألا يدخلوا في الحكم ويختاروا للوزارة جماعة من الحياديين ، ينقون الحكومة من ادرانها ، ويجعلون كل شيء في نصابه ، وهم يبقون في المجلس يراقبون عمل الحكومة سنتين أو ثلاثاً ، فاذا تقلدوا الحكم بعدها أخذوه نظيفاً لا شوب فيه ولا شائبة ، وبذلك يتحللون ايضاً من الوعود التي قطعوها لبعض من خدموهم ، وبتحقيقها عبث بمصلحة الوطن ، فكان جوابهم إن كل طائفة تحدث انقلاباً تتولى الحكم لتنفذ برنامجها .

بدت عيوب الكتلة للاعين بعد أشهر من توليها الحكم ، وربما وجد الناقمون عليها معاضدة من بعض السلطات ، فساروا وأوغلوا في نقدها ، وكنت

كثيراً ما أطالب إلى أصحابي ألا يعجلوا بانتقادها او لظهر غلطاتها ، ولم تجر الكتلة على مثال الحكومات التي كانت المفوضية العليا لعينها لعيناً ، فتنشىء الجسور والمعابر وتفتح الطرق ولعبدها ، وتقيم القصور والمدارس ودور الحكومة ، ولعمل ما يخفف الضائقة .

جاهر الحزب الذي تولى الحكم في فرنسا بألا يقر معاهدة وافقت عليها الحكومة الاشتراكية مبدئياً ، وفرنسا في صدد خوض غمرة حرب ، ومن مصلحتها أن يكون حكمها مباشراً في سورية ، فاضطرت حكومة الكتلة الى التنحي ، وعرض رئيس جمهوريتها تأليف وزارة على الاستاذ مصطفى برمدا فأبى تأليفها ، وكان جرب طالعه مع السلطة لما عهدت اليه رئاسة دولة حلب ، فما استطاع العمل معها غير بضعة اشهر . ثم عرضت الرياسة على السيد نصوحي البخاري فاستقال بعد ثلاثة أشهر من تأليف وزارته ولم يعمل عملاً وأضاع الوقت في التريث على غير جدوى . عند ذلك اضطر رئيس الجمهورية الى التنحي .

قال رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي لاحد المتصلين به قبل تخليه عن الرياسة بايام ، وكان ضيق الصدر من اضطراره الى الاعتزال : ما كنت أظن أن جماعتي وصوليون الى هذا الحد ، لايهمهم غير مراكز في الحكومة يشغلونها ، يقولون أن جميل بك يبذر الاموال ، وتبذيره قليل إلى جانب اسراف سعد الله بك ، فقد كان هذا يتطلب أن نعطيه كل يوم ألف ليرة فلما أشرنا اليه أن يأخذ بالاقتصاد ، غضب وقاطعنا ولم يدخل قصر الجمهورية ثمانية أشهر . ونحن لم نهدىء أعصاب بعض جماعتنا عن تولي الحكم ، ومعظمهم كانوا يحاولون أن يتقلدوا الوزارات ، إلا باعطاء كل فرد منهم مشاهرة تعادل راتب الوزير العامل .

هذا معنى ما روي عن لسانه وقلت لصاحبي لما قص علي كلامه : لو قال هذا القول قبل سنة لكان قوله مقبولاً ، أما وهو لم يرشدهم إلى الصواب في نطاق حقوقه الدستورية فعلى عاتقه تقع تبعة بعض غلطاتهم .

قلت لاحد رجال الانتداب وأنا في الوزارة ، والصراع بين الكتلة والدولة المنتدبة على ساق وقدم : أرى أن تمهدوا بالحكم للكتلة الوطنية على سبيل التجربة مدة ، لعل عند رجالها قرائح لم نرزقها ، ومعارف لم نتعلمها . فان احسنوا فيها ونعمت ، وإلا فنستريح وتستريحون ، فاجابني لولا أن الهزل في مصالح الدولة لايجوز لعملت بهذا الرأي السديد ، وأنا على يقين أن الجماعة لايصلحون للحكم . كذا قال وفيه شيء من التحامل عليهم .

على أن الكتلة ماخلت من أعضاء كانوا غُيراً على المصلحة العامة ، وكان الصالح يذوب في الكثرة الغامرة . تنحى وزير ماليتهم الاستاذ شكري القوتلي عن وزارته لانه لم يرض على ماشاع باقرار الاتفاق مع المصرف السوري لما رأى فيه من الاجحاف بحقوق سورية فاستقال وكتم أسباب استقالته ، ولما سقطوا باتهام بعض أعضاء منهم بانهم يعملون فيما قيل للمباديء الفاشستية كان من السيد فائز الخوري أن خرج منهم في جملة من الاعضاء ونشروا ذلك في الصحف إلا أن هؤلاء متى رأوا الحظوة أعيدت إلى اخوانهم بالامس يرجعون حالاً اليهم للاشتراك في المغانم لا لشيء آخر .
وتولى أحد أعضائهم السيد لطفي الحفار رياسة الوزارة نحو عشرين يوماً في آخر عهدهم ، فسارع إلى إرضاء أقاربه ، ومنهم ابن عمه رقاه بضع درجات وأعطاه فرق رواتبه بضع سنين .

الجزازات

هي في هذا العصر كل شيء في الاعمال العلمية والسياسية والمالية يحتاجها التاجر والحاسب والسياسي والباحث والأديب كما يسير عليها الملك والرئيس. كنت منذ أيام ابحث في الجزازات مع صديقي الدكتور حسني سبح وقلت له اني باغفالي أمر الجزازات بل بعدم انتباهي لها ولصورة عملها اضعت سنين من حياتي في البحث على غير جدوى، فكنت على طريقة من عاصرتهم من المشتغلين بالعلم والآداب نقيد ما نحب حفظه من المنشورات في دفاتر تمزج فيها النكتة الدينية بالنادرة الأدبية بالقصة التاريخية بالبيت أو القصيدة من شعر بالفائدة العلمية بترجمة أحد المشاهير بمصدر من المصادر نريد أن نرجع اليه ذات يوم. وهذا مما يضيع الوقت ويصعب ايجاد المادة الضائعة بسرعة عند اللزوم.

كان الناس في مصر يدهشون من العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله وبديهته في حل عويصات المسائل فان سؤالاً يطرح عليه في الصحف أو غلطة يراها هو فيها يحمل الجواب عليه من الغد وما كانت الا الجزازات التي اتقن الباشا وضعها هي التي تعينه على ذلك يرجع اليها في الحال فتلبيه وتحل اشكالاته واشكالات الناس.

وكنت ادهش قبل التوسع في معرفة الجزازات وأنا اتلو المقالات الافتتاحية في جريدة الطان ايام كان يكتبها السياسي تارديو ولعجبي الاحاطة بكل موضوع يخوض فيه وما كان السبب في ذلك الا الجزازات التي اتقنت تحضيرها ادارة تلك الجريدة كما احضرت الجرائد عامة مثل هذه الجزازات لستفتيها في كل مصبح وممسى وفي كل شارقة وبارقة.

وعمل الجزازات في الجامعات والكليات في العالم سهل على الطلبة

والاساتذة أعمالهم اذا أرادوا أن يؤلفوا أطروحاتهم ويضعوا تآليف لهم .
وقد سهلوا في المانيا طرق التأليف فاخترع المؤلفون طريقة جديدة فيها كثير من الاقتصاد في الوقت والمال على ما حدثني بذلك صديقي الاستاذ جورج انطونيوس رحمه الله قال ان المؤلف هناك اذا عنّ له أن يكتب في موضوع يدعو ثلة من الشبان المتخرجين في الجامعات ويعرض عليهم موضوعه ويدعوهم الى مطالعة كتب يعينها لهم ، يريدهم أن يقدموا له عن كل واحد منها تقريراً ، ويلاحظوا ما يتطلبه المؤلف لأجل موضوعه فما هي الا أن تنهال عليه المعلومات ويكتب المؤلف كتابه في اسابيع قليلة .

فقلت للراوي ان هذه الطريقة عملية ولكنها لا لذة بها للمؤلف وأظنها تحتاج الى نفقة طائلة مكافأة للعاملين فيها من الشبان ، قال ان السعر الذي وضع للنظر في كل كتاب دينار الماني واحد أما الكتب فهي مسبلة على كل مطالع في الخزائن العامة ويستعيرها الباحثون ولا يدفعون شيئاً مقابل ذلك . هذه هي الجزازات وفوائدها في الجملة ولما تشرفت بلقاء الملك فؤاد الأول ايام ذهابي الى مصر لتكريم أحمد شوقي بك الشاعر قلت لشوقي ان معلومات الملك عظيمة جداً قال نعم هو يتكلم من الجزازات ومن تكلم آخذاً مما لديه منها أمن العثار وعظم في الانظار .

أماثة الوزراء

حدّثت أن الدكتور عبد الرحمن الكيالي ايام كان يجمع بين وزارتين من أهم الوزارات وزارة العدل ووزارة المعارف حاول أن يجود على أحد الأرمن المتجنسين بالجنسية الاميركية وكان معروفاً بتهريب العاديات بتمثالين لأسدين عظيمين (ارسلان طاش) ما زالا رابطين الى اليوم في أرض الجزيرة من أملاك سورية ، وزنة كل واحد منهما خمسة عشر طناً على الأقل مدعياً ان هذا الاميركي يرجى أن ينفعنا في امور لها مساس باستقلالنا !

وصدر المرسوم بهذه المنحة ونشر في الجريدة الرسمية فأصدرت المفوضية العليا الفرنسية أمرها الى دولة سورية بالرجوع عن قرارها لان أمر الآثار يرجع الى الدول عامة وليس لسورية وحدها أن تبت فيه . وحاول الكيالي أن يقنع القائمين على حفظ الآثار من الوطنيين لاقناع المفوضية بالرجوع عن رأيها واقرار ما قررته الوزارة فلم يفلح قائلاً انه يتذرع بذلك للاحتفاظ بالكرامة ومراعاة سلطان الحكومة المحلية . وما عرف الذي حداه على هذا الاصرار في أمر يدرك مضرته الطفل الصغير ، ذلك ان التمثالين يساويان يومئذ مليوني ليرة على اقل تقدير أما قيمتها المعنوية فلا تقدر بثمن . والتمثالان كما يقول العارفون بالعاديات من أهم ما نبش عليه من آثار ديارنا .

وجاءنا حلبي آخر اسمه فؤاد العادلي من أرباب الأوقاف العظيمة يشغل وزارة في عهد الشيخ تاج الدين البيباني أنسيت اسمها وربما لم يحفظه أيضاً من وسدت اليه شؤونها فكان منه انه لم يعمل فيها شراً ولا خيراً لانه لم يحضر لادارة شؤونها الا اياماً معدودة من أشهر طويلة وكان شغله الوحيد الدعاوي التي يقيمها وتقام عليه ، وخلص من الوزارة باحراز لقب « صاحب المعالي » .

ومما يسر ان ما أتاه الكيالي والعادلي من الاهمال لم يفصل منه شيئاً

معالي الوزراء الذين أتوا من الشمال امثال السيد ميخائيل ليان (الحلبي) والسيد حكمت الحكيم (الادلبي) والسيد حكمت الحراكي (المعرى) وامثالهم ممن تقلدوا الوزارات بكفاءتهم . ومن أهم ما يتحلى به الوزير قبل كل شيء تجرده عن الهوى وبعده عن المآرب الذاتية وسعة نظره وسداد رأيه والامانة على ما آتمن عليه وابتعاده عن الحزبيـة والعصبية الجنسية والدينية . والامـــة من ورائه تراقب حركاته وسكناته ومن اسر سريرة ألبسه الله رداءها .

حب المديح والظهور

احتفل بالقاهرة بعض السنين اصحاب الاستاذ احمد أمين بك بتكريمه وحرص هو على أن اقول كلمة فيه مع أني كنت في حالة لاتسمح لي بالقول مطلقاً ومما قلت ان ماخص به صديقي من عمق في البحث وجمال في الاسلوب جعل منه مؤلفاً من أكبر مؤلفي العصر ثم رأس لجنةالتأليف والترجمة والنشر فبرز في الادارة والتجارة تبريزه في فنه واثبت واخوانه اعضاء اللجنة ان المصري اذا ثبت لايصعب عليه أن يأتي باعمال عظيمة كان بالامس يرى بانه عاجز عن تجويد مثلها ، لان الثبات كان مما ينقصه والخضوع للقانون مما لايأبه له كثيراً . وعزوت توفيق هذه اللجنة الى كونها موءلفة من اعضاء متماثلين في التربية وان غرضهم بث العلم والآداب .

وحاول شيخ الازهر الاستاذ المراغي في تلك الحفلة ان يجعل الفضل للازهر في نبوغ أحمد أمين مع أن هذا قال لي انه لم يدرس فيه أكثر من سبعة أشهر ، ولكن أباه كان من شيوخه ، والازهرية على كل حال بقيت غالبة على أحمد امين غذى بها لحمه ودمه وروحه وادبه . واذكر اني كتبت اليه بصفته مدير لجنة التأليف والترجمة والنشر ارجوه ان يتوسط مع من يلزم المباشرة بطبع الجزء الثاني من كتابي (الاسلام والحضارة العربية) اذ ليس من مصلحة اللجنة أن تكون الفاصلة بين الجزئين اعواماً فكتب اليّ والغالب انه كان في حالة عصبية نسي فيها كل الاعتبارات يقول انه ليس هو خادمي ولا عبدي حتى أعهد اليه بمثل هذه المهمة الى غير ذلك من العبارات الغريبة التي تدل على رعونة كنت أحب أن يتجرد منها مؤلف فجر الاسلام وضحى اسلام وظهر الاسلام (وغروب الاسلام وليل الاسلام) .

حاول أحمد أمين أن يؤلف في الفلسفة ويظهر في ثوب فيلسوف وكان رفاقه وزملاؤه يسخرون من دعواه هذه ويجعلون منها موضوع دعابة وحديث ضحك واضحاك . ثم حاول ان ينتسب لفيلسوفهم الاعظم احمد لطفي السيد ولكن المشيخة بقيت متجلية في أقواله وافعاله وكان ظاهره وباطنه مع السنهوري وطه حسين ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمي وتلك الطبقة يجمع أكثرهم الغرام وبقاعدة خالف تعرف وهم في الغاية علماً وأدباً شهادة الله .

باشاوان في مجمع مصر

لا أقول ان عبد الرزاق السنهوري باشا ومحمد حسين هيكل باشا اساءآ الاستعمال بتعيينهما نفسيهما عضوين في مجمع فؤاد الأول للغة العربية فان كلمة اساء الاستعمال حرام أن تطلق على من يضعون القوانين ويشرعون لمصر ، ولكن هـذا التعيين ما خلا من مغمزمهما أحسنا الظن ، وكان عليهما أن ينضما الى المخلدين المصريين في عهد وزارة غير وزارتهم أو أن يصرفا النظر عن هذه النسبة على نحو ما فعل رصفاؤهما وزراء المعارف امثال نجيب الهلالي باشا وحلمي عيسى باشا وبهي الدين بركات باشا ومحمد علي علوبة باشا ومحمد العشماوي باشا وغيرهم . والمصريون مغرمون بالالقاب في العادة ولو كانوا من عيار السنهوري في القوانين وهيكل في السياسة ، وكيف يجوّز لنفسه رجل أن ينضم الى جماعة وهولا يفرغ ساعة واحدة في السنة لان يشاركهم في اعمالهم . ولو هدى الله صاحبي هذين لاستقالا من هـذا المجمع وتركا مكانهما لمن يحسن لعهده وتنتفع به اللغة . جلّ من لا عيب فيه .

خلق غريب

عرفت الشيخ بدر الدين النعساني طالب علم في الازهر وعاد الى حلب بلده في اول عهد الدستور العثماني وكنت كثيراً ما أحثه على القيام بما ينهض بمدينته لعلمي بكفاءته لذلك أكثر من جميع أهل بلده ، ولما وليت وزارة المعارف كان استاذاً في تجهيز حلب فكان مولعاً بمدح الاتراك وذم العرب ، ويتلو في الدرس على تلامذته اشعاره ويخرج عن المنهاج المقرر ، فيبلغ ذلك مستشار المعارف فادافع عنه وادفع ما اتهم به . وبقدر ما كنت أحميه كان يهزأ بي في دروسه ويطعن علي جزاء احساني اليه . وكان خفيف الروح ظريف الحديث يأتي لزيارتي كلما جاء دمشق مستصحباً بعض المعلمين الحلبيين ممن اشتهروا بجاسوسيتهم فكنت انبهه إلى هـذا وأذكر له كراهتي لـكل من يتجسس .

وما لقيته مرة الا حثثته على وضع تآليف في نطاق اخصائه ينتفع به الاسلام والعرب وكان تأليفه الذي ختم به حياته سلسلة مقالات كان ينشرها في جريدة الشعباني تنم عن أغراض ظاهرها الغيرة على مصلحة الوطن ، وما كان يقصد بما يكتب إلا مصلحته الخاصة وهكذا انتهت أيام النعساني على ما لا ينطبق مـع أماني الوطن وأماني العلم ويتنافى مع ما عرف به من الذكاء والدهاء .

انتخب المجمع العلمي العربي الشيخ النعساني عضواً مراسلاً فلم يتنزل أن يشكره ولا بكلمة مع شدة الحاحي عليه بان يقوم بهذا الواجب وظل على ابائه ، وأرادني المجمع على حذف اسمه فلم أوافقه . ولما أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية في مصر رجاني ألا انساه وأجعله عضواً فيه أيضاً كأنه خدم مجمع بلاده حتى يخدم مجمع مصر ولكن هو حب الظهور بدون اتخاذ الاسباب المشروعة له ومظهر من مظاهر الاثرة الممقوتة ، دل على ان العلم شيء والاخلاق شيء آخر ومن لا تتربى اخلاقه في بيته لا تربى في مضمار الحياة .

وباء الهمم

مما لا يبشر بخير ان يتخرج بعض الشبان في ارقى مدارس الغرب ويعودوا الى بلادهم وقد امتلأوا حماسة علمية وغيرة وطنية فما هو إلا أن توظف لهم وظيفة حتى تبرد هممهم وينسوا ما أملوا لا يطمعون أن يزيدوا فيه . رأيت هذه الحال في عشرات من الشبان فساءني ما رأيت وخيبوا ظني فيما كنت فيهم أملت . وما العلم عند هذه النابتة إلا أداة من أدوات الكسب متى بدأ ربح المرء منه فليس من الصواب أن يتعب نفسه باتقانه والاستفادة من نتائجه ! وأكثر من يؤلفون يؤلفون كتباً مدرسية يتربحون منها ، وقل ان يبتدع احدهم موضوعاً طريفاً او يلو على فكرة نافعة ، ولطالما حدثت من يأتوننا بشهادات أطول من ليالي الشتاء على اتمام علمهم على ما هو المرجو منهم ، فيعدون كلامي هذا من الفضول والتدخل في حريتهم الشخصية . واقسم بالله أني رأيت بعض الشبان الذين درسوا ارقى دراسة بعد بضع سنين من مغادرة المدرسة أشبه بالاميين في حديثهم وحركاتهم ورأيت منهم طبقة تستجيز السرقة والتجسس للحصول على المال وترتكب كل ما فيه العار للترقي في درجتها . وبعد ذلك صرت أقول في نفسي ترى هل نفعنا العلم أم أضرَّ بنا .

كتاب الى حبيب

صديقي صاحب المعالي الاستاذ محمد حلمي عيسى باشا المحترم

طلبت إليك منذ أيام جريدة باسماء من يرجى أن يشتركوا بكتابي (المذكرات) من المصريين ولعلك استغربت هذه الحركة مني وما عهدتني تاجراً ولا طابعاً ولا ناشراً بل مؤلفاً بسيطاً يعتمد على الطابعين في نشر كتبه. وما حداني على الظهور بهذا المظهر الجديد إلا اني احب ألا أنكسر أمام أي قوة واحارب ما اتسعت قوتي للحرب، وإن كنت في الشيخوخة (ونصف الخبر عندك) فقد طرقت عدة أبواب لطبع ما لديّ من التآليف وتجديد طبع ما نفد مما طبع في مصر والشام، فكنت أصد من دون سبب معقول.

راجعت لجنة التأليف والترجمة والنشر وهي مؤلفة من خيرة رجال المعارف، وبعض الكهول منهم من أصدقائي الأعزة، وقد طبعت لي ثلاثة كتب في مطبعتهم نفدت بعد قليل من طبعها واعيد طبعها ثانية وثالثة، وراجعت دار احياء الكتب العربية فوعدت ثم أخلفت، واحببت الاعتماد على دار المعارف منذ سنتين فاعتذرت بقلة الورق وفاوضت إسماعيل تيمور باشا ابن صديقي العلامة أحمد تيمور باشا فقال إن كنت تريد معونة للكتاب من الخاصة الملكية فالأمر سهل فقلت له إن خطط الشام هو كتاب أبيك وإليه مهدى فلا معنى لأخذ معاونة سامية. فأجاب أنا لا أفهم هذه المسائل وسأكلم شقيقي محمود فكان من الاستاذ محمود بك أن راجع من رجعت إليهم فأخذ ما أخذت من جواب، ورجع المؤلف الذي لا يهمه من الدنيا إلا نشر كتبه بخفي حنين.

فلما سدت الطرق في وجهي ورأيت اللجنة التي يعدّونني من أعضائها

قد عاملتني بالاهمال ، ولم تكتب شيئاً في مجلتهم عن تآليفي التي طبعتها على نفقتها ، طلبت إلى صديقي أحمد أمين رئيس تلك العصابة أن يكون الكلام عنها نقداً فقط لأني ما أحببت قط المديح ولا التقريظ ، يشهد لذلك ما نشرته من مصنفات ومجلات ، وجرائد فكان منه أن أوعز إلى أحد شبابهم فكتب في الجزء الأول عن كتاب لي في مجلة الثقافة تقريظاً أوسعني فيه ثناءً خلافاً لما كنت أرجو .

وصديقي أحمد أمين كأكثر المشتغلين بالعلم في مصر وغير مصر أشغل من ذات النحيين ما سمعت منه كلمة طيبة لا باللسان ولا بالقلم منذ عرفته ، وأنا شهد الله ما تركت باباً من أبواب الدعاية له منذ ظهوره في التأليف . سأله في الجامعة أحد تلاميذه من الحلبيين عن رأيه فيّ فقال لسألني رأيي في بلديك إنه أعرف المعاصرين بالمصادر . وهذا رأي الشيخ رشيد رضا في استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، يعني أني وشيخي في نظر الاستاذين العظيمين من عيار مصطفى محمد الكتبي المصري بمعرفة أسماء الكتب .

هذه هي صداقة أحمد أمين لي وهناك في مجمع فؤاد الأول من هم عجيبة الزملاء هناك رئيسه أحمد لطفي السيد باشا الفيلسوف . وكثيراً ما نوّهت به وأردت إخواني في المجمع العلمي العربي منذ أول تأسيسه أن يختاروه عضواً مراسلاً فانتخبوه وما تنازل أن يجيبهم بكلمة شكر فيما أذكر ولم يغلط خلال خمسين سنة أن يقابل جميلي بمثله كأنه يعتقد أن ما أقوم به نحوه هو واجبي وانه من عالم غير هذا العالم ، وشتان بين ثقله وخفتي ، وفرق بين جنسيتي وجنسيته هو مصري وأنا شامي ! فلسفة ركيكة لا أفهمها مع أني فهمت فلسفة الشباب أمثال زميلي وحبيبي الدكتور إبراهيم بيومي مدكور .

أين أدب من أدب انتخب المجمع العلمي العربي الامير عمر طوسون والأمير يوسف كمال عضوين مراسلين معه فكتبا يشكران ويفاخران بهذه العضوية وأظن لطفي السيد أمام هذين العظيمين لا يعدو أن يكون أمامها شخصاً عادياً ولو تقلد الوزارة مرات . اتقن لغة السياسية ومصطلحات التشريفات

وكان رجل رسم وصاحب تقاليد . دعاني مع من دعا من رصفائي الدعوة الرسمية السنوية الى نادي محمد علي فلما لحظ ان بين الأعضاء الأجانب رجلاً له لقب وزير طار عقله ودعاه علناً من دون رصفائه الى الجلوس في مقام التكرمة فكأنه يقول بلسان حاله لسائر الرصفاء ان من كان وزيراً يفضلكم كلكم . فلما شاهدت هذا ضحكت وانتحيت ناحية اخرى وقعدت في آخر المائدة وجاورني زميلي الدكتور علي توفيق شوشة باشا وأقسمت بعدها الا أحضر دعوة طعام للداعي الكريم صاحب الذوق السليم .

أنا لا أطلب من الناس أن يمدحوني ويرفعوا من شأني فحياتي ما كانت في وقت من الأوقات موقوفة على هذا النوع من المصانعات ولكن المجاملات مأمور بها ومعقولة ، والمصريون من أبرع الناس فيها على كل حال . من ذلك أن رصيفي المازني وهيكل ما أضاعا قط كلمة في التعرض لعملي وعمل اخواني في الشام انتخبها مجمعنا عضوين مراسلين فلم يتنزلا أن يكتبا له سطراً . وكيف يرتكبان هذا الاثم والمازني دأب حياته يكتب المقالات للصحف والمجلات ودأب يستوفي المكافآت عليها ، وهيكل أصبح بقلمه وحزبه ممن يدير دفة السياسة المصرية . وأي نفع يأتي من « كرد علي » وصحبه ؟ إذا احتجنا اليهم يوماً فهم تحت الطلب .

وفي المجمع المصري عناصر جديدة انضمت اليه منها ما كان من الطراز الأول أمثال علي عبد الرازق بك ومصطفى نظيف بك والشيخ عبد الوهاب خلاف واضرابهم ومنها ما كان مثل الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء وهذا كان لي صديقاً قديماً عرفته في دار آل عبد الرازق الاكارم ولما اضطهده الشيخ الظواهري في الازهر كنت من أول الحانقين عليه ، ولما نفس خناقه واعيد الى منصبه فرحت له فرحاً كثيراً . أتدري ماذا كان مقامي عند عضو جماعة كبار العلماء ؟ كان منه أن اهداني كتاباً له وكتب على ظهره (آية الاخلاص لصاحب العزة فلان) فراجعته فيما كتبه

مازحاً وقلت له : وأين كلمة استاذ يا استاذ ، كأن هذه اللفظة (آية الاخلاص) تقوم مقامها وما حفظه شلتوت قد نسيه « كرد علي » منذ زمان ، والطوائل أو المباينات بين أرباب العمائم وأرباب الطرابيش قديمة لا تحتاج الى بيان .

وماذا اقول في مجلاتكم وصحفكم ، واحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بعد ان كان يكتب لي انه كان تقي فرفعته تنكر لي بأخرة من دون سبب وأعمته التجارة وجمع الارباح ونسي أصحابه ومن عاونوه على اكتساب الشهرة . انتخبه مجمع دمشق عضواً فبلغ من مكارم أخلاقه انه لا يبادل اليوم مجلته مع الالحاح في طلبها . حقيقة الاخلاق تورّث ، واخلاق المدنيين غير اخلاق الفلاحين ، والعلم والادب صناعة يتعلمها من يسهر على حفظ الدساتير اعواماً قليلة .

هذه المعاملة لقيتها من هذه الطبقات في مصر لا أدري وجهاً لتعليلها ، والحمدلله على اني ما جئت مصر يوماً أكاثر رجالها وعففت حياتي عن الاخذ من خبز مصر حتى لا أشهد كراهية المصريين وتجهمهم ، ولا أفقد صداقة عشرات من اخواني امثالك، وهم رأس مالي الذي اغتبط به ، فمجلة الثقافة لم تتنازل منذ نشأتها ان تكتب لي كلمة في كتبي اما احمد امين فيزعم ان اشغاله كثيرة وقد رأيته يسارع فيكتب للمصريين ما يشاءون .

هذه يا صاحب المعالي مسائل تافهة ولكنها تمس العاطفة وتؤذي عزة النفس وتعرف أكثر من غيرك أني لا اعبأ بها بيد ان ما حصل دل على مبلغ جماعتك من الوفاء ولو كنت اضع على رأسي قبعة لوقرت في نفوس المصريين وعدوني شيئاً فقد اعتاد المصريون مع الاسف ان يتلقوا الافرنج بضروب التجلة ، وللغربي في وادي النيل روعة وأي روعة وللخواجه ما ليس لغيره من اعظام نتيجة اربعين قرناً في العبودية . لا تغضب لهذا الحكم فهو حقيقة تاريخية لا مجال لانكارها .

تعلم أيدك الله كم جهدت لازالة الفوارق من بين المصريين والشاميين وأني كنت أنحى على قومي إنحاء شديداً لما عرف به بعضهم من مماكسة

مصر في استقلالهـا ، كتبت في ذلك المقالات الكثيرة منذ كنت محرراً في المؤيد حتى ملّ مني من ولدوا في أرضي وأعرضوا عني وحاربوني في مادياتي . ولعلم ان ليس في مصر من الشاميين من خدمها مثل ماخدمتها أنا بدون عوض ولا غرض فقـد جاءت عليّ أيام فيها ، وأنا أحمل ريع ملـكي في الشام وارتفق به في مصر مختاراً ، والانكليز يمرّضون بمـا عندهم من ذهب برّاق استهوى كثيراً من كبار رجالـكم ، أما أنا فما أخذت منـكم منذ دخلت مصر سنة ١٩٠١ وساماً ولا رتبة ولا اقباً ولا راتباً ولا عطية ولا هدية ولله الحمد والمنة ، وكنت أبداً مرتاحاً لعملي وأعـده واجباً عليّ .

أطلت عليك ولا بد للمصدور أن ينفث ، أطلت لأقول لك أن ما لاقيته من أصحاب المقامات أو العلية أو الطبقة المختارة دعاني أن اهزّ أريحية قومي لطبع كتبي واخرج عن الطور الذي سرت عليه حياتي حتى افيد العرب واخـــدم الاسلام .

جـرين (غوطة دمشق) في ٥ أيار سنة ١٩٤٨ .

حاشية ربمايظن من يقرأ هذا أن المسألة تجارية والشاميون من أعظم التجار لا والذي أخذ العهد على العلماء ألا يكذبوا ولا يصانعوا ليس الأمر كذلك ، وأرجو الا يتطرق الوهم في هذا الى بعض الأغبياء فأنا منذ كنت في ريعان الشباب أطبع كتباً ورسائل ومجلات وجرائد وأنشرها في البلاد العربية وقد أهديت من أعرف ومن لاأعرف ثلاثة أرباعها ولو كان مأربي مادياً لجمعت منها ثروة لابأس بها ولكن الغاية غير مايتخيل ضعاف العقول ، الغاية النهضة بالأمة واصلاح مااعوج من أوضاعها مهما كلفني الأمر لااريد من ذلك مظهراً ولا مالا ومرماي الآن تصفية حساباتنا مع هؤلاء الأفاضل والله أعلم بالسرائر .

(لاحقة) لابأس أن يتلى هذا الكتاب على مسامع اخواني الأعزة جماعة فندق الكونتيننتال ظهر كل يوم وسلامي عليهم جميعاً وعليك الف سلام .

الدين

رأيت في العقد الاخير نهضة دينية تهللت لهـــا قام بها بعض الغُيُر على الدين بعد أن رأوا ضعف مشخصاته في كل مظهر من مظاهره . ادركوا ان ليس لهم مخرج مما صارت اليه الامة الا بتعليمها أصول دينها فانشأوا مدارس ودروساً في حلب وحماة ودمشق وأرادوا ارجاع الناس الى الجوامع وقد هان عليهم الاختلاف الى الحانات والملاهي ، وممن قام بكبر هذا الامر المهم العلامة الشيخ سعيد النعسان في حماة والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار في دمشق وغيرهما في غيرها فتخرج بهذين العالمين عشرات من الطلبة تلقنوا الشريعة على أصولها وقام في دمشق عالم من طراز آخر علـّم العامة تعليماً لايخلو من جمود وحشو ولكنه ينفع من بعض الوجوه لان طلابه انبثوا في القرى الشامية وكان بعض أهلها على وشك الخروج من الاسلام بفعل الجهل كما حدث منذ سنين وقام العلامة الشيخ عبد القادر القصاب رحمه الله في دير عطية في جبل قلمون وعلم كثيراً من الطلبة انبثوا في انحاء الجبل فاعادوا الضالين الى حجر الاسلام .

وكما فعل صديقنا العلامة عارف النكدي ففتح مدارس وكتاتيب لابنـاء الدروز في عبية وما جاورها من القرى في لبنان وأخذ يدرس أبناءها القرآن الكريم يريد أن يعيدهم الى السنة كما كان من العلامة جمال الدين التنوخي من أهل القرن الثامن بما وقفه من الاوقاف العظيمة على هذه الغاية . وتعليم ابناء الدروز وبناتهم خطوة مباركة يخطوها ابناء هذه الطائفة نحو الاسلام الصحيح وذلك بفضل بعد نظر الاستاذ النكدي وذكائه النادر .

ثم اسست ادارة الاوقاف في عاصمة الشام مدرسة العلوم الدينية واخذت تخرج طلبة منورين من طوائف اسلامية مختلفة وانصرفت همم افراد من

ابناء فلسطين ولبنان والعلويين وبلاد الشمال والجنوب في سورية فدرسوا في الازهر وفي كليات الاختصاص فيه ومنهم من عاد الى وطنه بشهادات تدل عن دراساتهم النافعة مثل السيد انور سلطان والشيخ علي الطنطاوي ويزيد هذا الى علمه وفقهه انه كاتب من الطراز الاول وهو من الطبقة التي تحسن ادب العربية احساناً يساعدها على فهم الشريعة اكثر من الجاحدين ومن قلت عنايتهم بهذه الفروع .

كل هذا حسن ويشير الى خير عميم لكننا لم نجد من تعلموا قد وسدت اليهم الوظائف الدينية التي استعدوا لها وما زال بعض الجامدين الجاهلين الذين تلوثوا بالرشا واشتهروا باضاعة الحقوق قابضين على ازمة القضاء والافتاء ومن مصلحة الرؤساء منهم ألا يتركوا مجالا لظهور الشباب وهم ينبذونهم من كل وجه حتى تكون المنافع وقفاً عليهم ،على جماعتهم على ما كانت عليه الحال في القرن الماضي والقرون الثلاثة قبله . فعلى من يفرقون بين الصحيح والبهرج أن يتخلوا عن كل اعتبار ويطرحوا الجهلة الفاسدين جانباً ويستعيضوا عنهم بالنشئة الصالحة من مثل هؤلاء وبذلك فقط نخدم الشريعة ويدرك القوم في الديار الشامية الفرق بين الحكم الاستبدادي والحكم النيابي .

أحكام عادلة

ظهر في جبال العلويين على عهد الانتداب رجل اسمه سليمان المرشد ادعى أنه الرب وأخذ أموال الفلاحين واعتدى على أعراضهم وملك ثروة طائلة وكثر اتباعه . وقد اعتادت هذه الجبال ان يكون لها رب جديد في كل قرن ويكون مصيره القتل . ولما كثر تعديه وامتدت يداه لقتل الانفس ساقته حكومة الجمهورية الى القضاء فحكمت عليه بالقتل وارجعت جميع ما استصفاه من قرى الضعاف من الرعية الى أربابه فأحسنت بذلك للعدل والامة .

وقام في خلال تلك المدة في غوطة دمشق على عهد الانتداب رجل عامي من نمط آخر ادعى انه صاحب طريقة ، فكثر اتباعه واضل العقول وخرج في معظم حركاته على الاسلام ، فهو ان لم يدع كالأول مقام الربوبية فالظاهر من حاله أن دعواه قريبة منها . وزاد على ذلك أنه تعدى على الابكار وسلب أربعاً منهن عفافهن فحكمت عليه المحكمة بالسجن خمس عشرة سنة والتغريب مثلها وبعشرين ألف ليرة دية اعراض تلك الأوانس . فوقع هذا الحكم كالحكم السالف أحسن موقع من نفوس الناس . ولا شك ان في هذه الأحكام عبرة لمن يخرجون على قواعد الشرع والقانون ويشعبذون لاكتساب المال واستعباد الخلق . واظن النور اذا عم الأقطار لا يقوم بعد الآن سليمان المرشد ولا طه أبو الورد بمثل هذه الدعاوي الكاذبة ، قبحها الله وقبح في الأكثر من يوافقونهم على تخرقهم وضلالتهم .

القضاء أيضاً

عرضت في هـذا الكتاب للقضاء والقضاة أكثر من مرة . وسلامـة القضاء هي الدعامة الأولى في ارتقاء الامة . ولقد حرت وأنا ارقب سير القضاء في ارضنا منذ وعيت على نفسي فما اهتديت الى تقرير خطة ناجعة لتقويم هذا الخلل الظاهر فـكاد اليأس يقضي على آمالي في اصلاح القضاء .

وآخر ما بلغني من حوادث القضاء حـكم قاض في احـدى العواصم باقرار عقد بين زوجين ليس في قوانين الأرض والسماء ما يوافق عليـه . ذلك أنه قضى باجراء عقد فتاة في السابعة عشرة على رجل في الثالثة والستين ووالدة الفتاة لا تتجاوز الاربعين أي أن عريس الزوجة يصلح جداً لهـا . وأبوها ذو سعة من المال وابنته جميلة وطلابها غير قليلين فمـا نفع القانون الذي يحظر مثل هذه العقود ولا نفع نصح الناصحين لوالدي الفتاة ولا للزوج . وراح القاضي بالرشوة التي تناولها يقر ما لا يقره العقل ولا الشرع وارتكب هذا الاثم الذي كان أقل ما ينجم عنه امتهان الفضيلة ونسل فاسد يأتي من هذا الزواج العجيب .

أيها المهيمنون على القضاء ارحموا الخلق واطردوا هؤلاء الفاسدين الذين يحكمون هذه الأحـكام الجائرة باسم الدين فأقل ما يجب عليكم أن تسوقوا اولئك الطغاة من القضاة الى الامتحان وتنظروا نظراً بليغاً في سيرهم وسيرتهم ان سوء حال القضاء لم يعـد سراً من الأسرار فاضربوا رؤوس القائمين به بعصا التأديب الشديد ليكونوا عبرة العبر .

ـ ١

رأى سديد

ليت الامير فيصل بن الحسين (جلالة ملك العراق فيصل) في الاحياء اليوم ايرى تحقيق رأيه الذي ذكره لي في كتاب من باريز يوم ٤ مارس ١٩١٩ وهو ان الامة الاميركية والامة البريطانية معنا وسنصل الى ما نحن نتمناه ان شاء الله تعالى ، حقق الله هذه الامنية بعد مرور نحو ربع قرن واستقلت سورية وكانت صورة استقلالها من أجل صور الاستقلال وامتنها وأحسنها . وفي هذا الكتاب برنامج ما يجب الجري عليه في الشام من دعاية معتدلة لا تمس حكومة من الحكومات وكان كل ما قاله سديداً وأنا أقر هنـــا بأني كنت أشك في بعض اقواله ولكن الأيام أثبتت أنه كان يعرف ما لا نعرف وكان لا يرى أن يبوح بالحقيقة كلها ونحن كنا على احر من الجمر لنعرف مصيرنا . قيدت هذا هنا لاخلص منـه الى القول بان ما يعرفه الملوك قد لا يعرفه السوقة . رحم الله الملك فيصل عداد حسناته وأياديه البيض على العرب .

غش سياسي

قال العلامة محمد علي علوبة باشا : أعلن لورد كرومر ان التعليم في مصر يجب أن يكون وسيلة لتخريج الموظفين فقط وان البلاد ليست في حاجة الى العلم الواسع أو الى الاكثار من التعليم بوجه عام . وقال كرومر يوم افتتاح الجامعة المصرية القديمة ان التعلم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي في الجامعة .

وكل هذا يعد في باب الغش السياسي وقد شهدنا من الدولة التركية اموراً كثيرة من هذا القبيل كانت تجوز على العرب لضعفهم مثل قول وزارة معارفهم الى مديرها ان المعارف عند مسلمي الشام كثرت كثرة زائدة فأسرع الى أن تؤخرها لا ان تقدمها وكان الأميون يومئذ في أرضنا ثمانية وتسعين في المئة . امن الله السياسة كم تبدل الحقائق وتحيد عن العقول .

ذكر لي أحد رجال السودان أن الحكومة الانكليزية لا تخرج في كلية غوردون من الشبان الا من تجد لهم عملاً من الاطباء والحقوقيين والقضاة وغيرهم ويقولون انهم اذا أكثروا من المتعلمين يقعون فيما وقعوا به في مصر مع الشبان المتعلمين الذي يزيدون عن حاجة الحكومة فهم لا يبغون ان يخرجوا اهل شغب ودعاة ثورة وسخط .

الاسماعيليون وامامهم

أهدى الاسماعيليون في الشام زعيمهم آغا خان (وعددهم كما يزعمون يزيد في العالم على عشرة ملايين والذي عليه العقلاء انهم لا يتجاوزون المليونين) في عيده الماسي ماسة عظيمة زنتها توازي زنة جسمه وكان أهدى اليه في عيده الذهبي وزنه ذهباً (٢٥ الف جنيه ذهب) .

يهدي الاسماعيليون في ديارنا هذه الهدايا العظيمة لزعيم يعد من أغنى أغنياء العالم وهم في ذاتهم من أفقر فقراء العالم تفانوا في تمجيده حتى خرجوا على نظام العقل . وأذكر أن والدة هذا الزعيم زارت سلميه مرة وهي قاعدتهم وعشهم فكان الاسماعيليون يقبلون الارض التي وطأتها مركبتها أما من أسعده الحظ فقبل يدها أو رجلها فقد كتبت له سعادة الدارين . ربما انكر ما وقع ويقع بعض خواصهم ممن يخجلون من هذه السخافات والأمر صحيح لا سبيل الى إنكاره ولا يزول تكراره الا بالمدرسة والكتاب وأرجو ألا يمضي جيل واحد حتى يصبح أهل الاسلام بمعزل عن مثل هذه الخرافات .

محسنان مصريان

الاول أحمد تيمور باشا والثاني قليني فهمي باشا كان الاول يعطف كثيراً على من قعد بهم الدهر وأصابتهم الشيخوخة يرسل وكيله رأس كل شهر ومعه كيس من الجنيهات المصرية الذهبية ويدفع لكل واحد ما يكفيه وأسرته وقد حلفهم أن يكتموا ما يصلهم منه فما امكن الا انتشار فضله بعد سنين فساءه ذلك وقطع صلاته وادعى أن أطيانه خسرت وريعها ما عاد يوازي نفقاته . وبعد مدة صارت تأتيهم الحوالات المالية من احدى المصارف ولا يعرف المصرف ولا من صرفت بواسطته من عماله ولا المصروفة له . أما سائر صدقاته السرية فعجيبة من العجائب . وخزانة كتبه التي أعطاها للامة المصرية واشتغل بها طول حياته وحوت من لامهات النادرة والمخطوطات الفاخرة كل ثمين فقد قدرت بمئة الف جنيه .

أما المحسن الثاني قليني فهمي فانه يملك في مفاغة من بلاد الصعيد ستمائة فدان قسمها بين اسرته وبين أمته فاعطى الاولى نصفها ووقف القسم الثاني على مدرسة ثانوية ومدرسة ريفية وجامع وكنيسة وجعل سرايه في حلوان مستشفى . تيمور فيما قيل كان يملك اربعة آلاف فدان أعطى جزءاً منها للخيرات وقليني يعد رجلاً مستوراً فنزل عن نصفها وكلاهما في المكارم فرسا رهان . لو كان أغنياء المصريين يسيرون على هذه السيرة الحسنة مابقي في مصر فقير ولا جاهل ولا مريض فسبحان الملهم .

التاريخ الهجري

رأيت منذ خمسين سنة ان التاريخ الهجري كاد ينسى في ديارنا واعتمد العلماء والحكومات والتجار وغيرهم على التاريخ المسيحي فكان يشق عليَّ هذه الاهمال واغضب لعدم حرصنا على مقدساتنا وقد وفقت فيما دعوت اليه وعادت الحكومات وغيرها في مصر والشام الى التاريخ الهجري تكتبه مقروناً الى التاريخ المسيحي .

وممن ناقشني في ذلك صديقي واستاذي العلامة الدكتور صروف منشيء المقتطف كتب الي من مصر يوم ١٠ جمادى الاولى ١٣٣٢ ما يأتي : جاريتك في التاريخ الهجري ولكن يا اخا العرب لا يثبت في الارض الاما ينفع الناس والتاريخ الذي جرى عليه اصحاب الملايين والاساطيل والمدارس والمكاتب والمعامل ارباب العلوم والفنون وأهل الجد والاجتهاد والخمس مئة المليون سكان اوربا والمئة والخمسون مليوناً سكان أميركا ، هذا التاريخ لا فائدة من تركه ولايحتمل أن يزول وقد جعلت الصين واليابان تستعمله وكان العرب في اول عهدهم يستعملون تاريخ الاسكندر لانه كان شائعاً ولم يروا في ذلك ضعة اهـ .

ونحن نستعمل التاريخ المسيحي ولا يجب بحال أن نتخلى عن تاريخنا .

ادعاء الشرف

في الحديث الشريف : « ملعون بن ملعون من انتمى الى غير ابيه أو ادعى الى غير مواليه » :وفيه : « خيار الناس في الاسلام خيارهم في الجاهلية اذا فقهوا » « وفيه الناس كالابل ترى المئة لاتجد فيها راحلة . » وبعد فقد كثرت دعوى شرف في دولة العجم ودولة الترك في القرنين الاخيرين حتى بلغت مبلغاً من السخف عجيبة ، وغالى الناس في النسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام مغالاة خرجوا بها عن المنطق . وانشأ من صحت انسابهم يستنكفون من ادعاء الشرف ويتحامون الظهور به في الملإ

مما حاضرت به في المجمع العلمي العربي في موضوع انحطاطنا ان قلت فيه : ولعله كان من فرض الخليفة الثاني العطاء للمسلمين أول خطوة خطتها الامة نحو الكسل . وبالعطاء خرجت التجارة من ايدي العرب على ما كان تنبأ بذلك أحد كبار الصحابة واغنيائهم حكيم بن حزام . اتكلت الطبقة الذكية على بيت المال يرزق منه كل من كان ذا شرف وسابقة ، ومعنى الرزق من بيت المال الانقطاع عن العمل الشخصي المثمر وانتظار آخر الشهر على الغالب لقبض الراتب . وكان كل من يمتّ بصلة القرابة إلى آل علي أو آل العباس مثلا يجب على الدولة ان تحبوه وذريته كل مالطامح نفسه اليه . حتى إذا كان العهد العباسي الاول أصبح ابناء الدعوة وهم يستأثرون بجزء من الجباية والخراج يتناولونه عفواً صفواً ، ونما أولاد العباس نمواً هائلاً حتى بلغوا في مطلع القرن الثالث ثلاثة وثلاثين الف انسان يعيشون من بيت المال . ومن ضمن له عيشه على هذه الصورة ، لايحتاج لان يعمل بيده ولا بعقله ، ويجد من وقته فراغاً يصرفه في شهواته ولذاته ، والنساء من أجمل مايلهو به ويعبث .

وكان في مكنة الموسع عليه ان يقتني من الجواري مايطيب له ، وان يجمع بين أربع زوجات مهيرات ، ينسلون أولاداً يدفعون بهم الى الخادمات يربينهم والى مختلفات الدم والجنس يرضعنهم . وبديهي أن يكون من تلك البيوت المركبة تركيباً غير طبيعي بؤرة تحاسد وكيد ، لحرص كل زوجة على أن يكون لاولادها لا لاولاد ضرتها الشأن الاول في البيت . ثم عاشت الطبقة العالية المجمع على مكانتها هذا العيش الخضال ، لم يفتها شيء من مباهج الحياة الا متعت به سواء أحله الدين أم لم يحله ، هذا وهي ترزق من مال لم تتعب في جنيه ، وهو في ذاته مرصد لمصالح المسلمين فقط ، وربما اعتقد بعض أهل هذه الدولة في سره أن المملكة مزرعته واهلها عبيده ، وعلى المولى أن يستحصل ويجد ، وعلى سيده أن يستهلك وينعم . تأصل خلق الاستجداء في هذا الفريق من ورثة الحسب والنسب حتى وهم الواهمون ان هذا العطاء غير معيب وهم لايتعلمون ولا يتفقهون ولمَ يتعلمون وهم ورثوا الشرف في دمائهم وصفت فطرتهم فغدا العلم في متناولهم وطبيعي التنقل في بيوتهم! اه وكان في ردهة المحاضرات شخص من ادعياء النسب ، والناس مصدقون بانسابهم ، فاغتاظ وظن أننا نتحامل على الاشراف ونزيف الانساب وما فهم من كلامنا غير ذلك .

كان القوم على العهد العثماني يتفانون في اثبات شرفهم في سجلات وحجج ويشهدون من يشهدون على انهم من السلالة الطاهرة وزادهم استماتة في هذه السبيل كون هذا النسب ينجيهم من الخدمة العسكرية واذا قبل الخدمة العسكرية يومئذ فمعناها الموت ومن نجا منه فبالمصادفة وطول الاجل . فكثرت لذلك العمائم الخضر ، وكانت شعار الاشراف في بعض القرون والدول ، واصبح الامر على غاية الأخلوقة وكانا كثر من خمسة وتسعين فى المئة من ارباب هذه العمائم اميين جهلاء لايعرفون حراماً من حلال ولا يحترفون حرفة يعيشون بها ليس لهم من دعواهم او الدجل والشعوذة .

ولو جئت تسأل احد أصحاب الخضر اي صفة بقيت لكم من صفات الشرف بالله عليكم ، وهل هـــذا الذي انتم عليه هو شرع جدكم الذي جاء به الابيض والاسود والاحمر والاصفر ، وابلغه لآل بيتــه والامة اجمع ؟

وما اعجبتني قط دعوى عريضة   ولو قام في تصديقها الف شاهد

ولاة العثمانيين

جاء من الولاة العثمانيين في العهد الاخير من اخلصوا في خدمة الولاية التي وسدت اليهم وفي مقدمتهم مدحت باشا في سورية فانه كان مجدداً ، وحرص على ادخال ولايته في التمدن وعمل في اشهر ما لم يعمله غيره في السنين الطويلة ومنها ما كان ينكره بعض المتعصبين ومنها ما كان يصفق له بعض الاذكياء المنورين ولو كانت نية الدولة يومئذ ان تدخل في المدنية حقيقة لتركت امثال هذا الرجل سنين في عمالته يعالج اصلاحها ولكنها كانت تبيت له القتل وقد قتلته بالفعل في سجن الطائف وقيل انه قال ذات ليلة في مجلس شراب : أنا خالع الملكين وأبغي لهما ثالثاً » وأظن هذا الكلام مما تقوله عليه المنافقون ولو لم يكن لمدحت باشا في الديار الشامية إلا أنه وضع أساس التعليم الابتدائي فيها لكفاه منقبة . وجاء الصالحون من الولاة وما كانت اعمالهم توازي شهرتهم ومنهم حمدي باشا ورؤوف باشا وغيرهما . ومن اعظم ولاة العثمانيين في العراق داود باشا عمل في العلم والصناعة ماعمله محمد علي الكبير في مصر إلا أن عمل هذا استمر وعمل داود باشا انقطع بعده كما انقطع عمل مدحت باشا في الشام .

غش شعراء

القيت محاضرة في حلب (٢٣ شباط ١٩٢٣) كان موضوعها سيف الدولة قلت فيها انه كان الى جهاده في غزو الروم والدفاع عن بيضة الاسلام ظالماً مسرفاً في المال يستصفي أملاك الرعية ويصادر أموالهم ويبني الدور والقصور ويظهر من الابهة والبذخ ما يعجز عن مجاراته ملوك العباسيين والامويين والفاطميين فانه احتفل بعرس أولاده وأولاد أخيه فانفق فيه سبعمائة الف دينار توازي قيمتها بسكة زماننا سبعة ملايين دينار ، وان قاضيه أبو الحسن كان إذا مات أحد أخذ تركته لسيف الدولة وقال : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك . وكان يصادر التجار بألوف الالوف . ونقلنا ما قاله ابن حوقل من أن بني حمدان أكبوا على نصيبين ، وكانت تضمن بمائة الف دينار ، بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى أن حمل ذلك بني حبيب وهم بنو عم بني حمدان الى ان خرجوا بذراريهم ومواشيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس إلى بلد الروم فتنصروا بأجمعهم وعادوا الى بلاد الأسلام على بصيرة بمضاره وعلم باسباب فساده ، وقلوبهم تضطرم حقداً فلحق بهم كثير من المتخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلاد الاسلام وخربوا الضياع ودكوا أسوار المدن .

افضت في هذا كما افضت بافضال سيف الدولة على الآداب حتى صارت حضرته بمن ضموا اليها من عظماء الشعراء والادباء والعلماء كحضرة بني العباس . فاستعظم بعض أدباء الشهباء ما قلته واستبعدوا أن يكون سيف الدولة على ما وصفت من ظلم واسراف ، والسبب في انكارهم انهم تشيموا بما قاله ابو الطيب المتنبي في سيف الدولة فظنوا كل ما قاله فيه حقاً وصدقاً . وفاتهم اغراق الشعراء على الدهر في المديح والهجاء الى ما لا يقبله العقل . خلع المتنبي من الصفات على سيف الدولة اضعاف أضعاف ما يستحق فجازت

مبالغاته على من يأخذون الامور على ظواهرها بدون نقد الشعر . عاطفة وأدب لا تؤخذ منه حقيقة الرجال ولا تاريخ بلادهم الشعر كذب والتاريخ حقائق وشتان بين المذهبين . وسيف الدولة حوى شخصه النقيضين أيضاً وبحق ما قاله فيه مسكويه لمامات : « بكت الأمة منه وعليه » .

في خمسين عاماً تبدلت أساليب الشعر ومراميه وأخذت النفوس تشمئز من سماع شعر المديح ، وتتأفف من المداح ، حتى كاد هؤلاء أن لايجدوا من يستمع الى نفاقهم ، وبطل ذاك الزي البالي الذي كان قروناً لايعرف من الشعر غيره ولا يهتز الاغبياء والاذكياء من الامراء لسواه . واليوم ترى أكثر الأدباء يستظهرون من الشعر ما فيه وصف الطبيعة او ما ضم نكتة وغزلاً وقل أن يحفظوا شعراً فيه اكاذيب ، كان الشعراء يستجدون بها ويصفون العادل كما يصفون الظالم وينوهون بالجاهل ولا ينوهون بالعالم فالحمد لله على هذا التوفيق في تبدل الافكار ومعرفة الأدب الحق .

الجنرال سبيرس

هو رئيس البعثة البريطانية التي دعيت باسمه وانتدبت على سورية ولبنان بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٤ وهو أول وزير بريطاني في هذه الديار . عطف عطفاً عظيماً على السوريين واللبنانيين وكان أول من عاونهم على نيل استقلالهم فله المنة العظمى عليهم لنزعه ربقة الاستبداد الفرنسي عن أعناقهم ،وامتاعهم بحريتهم السياسية وسيادتهم القومية ، ناضل بشخصه وماله حتى تم مصير بلادنا كما أراد وأرادت دولته .

في رجال السياسة من يعملون سراً ومنهم من يعمل جهراً والجنرال سبيرس المحبوب عمل لتحريرنا في السر والعلن كل ما اقتضى الواجب لانصافنا من خصمنا . فهو من الطبقة المختارة من السياسيين الذين يحسون ألم المتألمين من الشعوب ، ويسخرون أنفسهم أو يسخرون حكوماتهم لامتاع المستعبدين باستقلالهم .

تفضل هذا الجنرال ودعاني الى قصره بدمشق مع من دعا من رجال سورية فتعرفت اليه والى سيدة قرينته الفاضلة واعجبت بأدبه وتواضعه وصحة احكامه وسلامة مقاصده ثم اقتضت عادتي الابتعاد عن مجلسه العالي حباً بالا أكون شاغلاً وقته الثمين الذي كان يصرفه في خيرنا .

لم يسعدني الحظ ان ادرس سيرة كثيرين من عظماء الانكليز مع شدة اعجابي بهم ، والقليل الذين امعنت النظر في حياتهم أنبأوني بان رجال بريطانيا العظمى نمط آخر من رجال الدول . ولا امثل لذلك الا برجلين كبيرين احدهما في الادارة وهو لورد كرومر عميد انكلترا في مصر ، والثاني في العلم وهو السير ويلكوكس المهندس الذي اسدى لمصر والعراق يداً لا تنسى لاغناء القطرين . لا جرم ان امة تنبغ مثل هذه العظيمين في قرن واحد حرية ان تعد امة عظيمة . وصاحبنا الجنرال العظيم هو أيضاً من افراد الدهر في السياسة الذين يلحقون بلورد كرومر والسير ويلكوكس . متعه الله بالصحة واجرى كل خير للانسانية على يده الكريمة .

الدم الطاهر

فرّ السيد عبد الرحمن الكواكبي من حلب الى القاهرة في العقد الاخير من سلطانة عبد الحميد الثاني العثماني خوفاً مما كان يتوقعه من جور الاتراك ، وجاء مصر ونشر في جريدة المؤيد مقالات في الاستبداد كان لها وقع حسن عند أعيان البيان في ذاك الزمان ، لما حوت من امتاع وابداع .

ثم رحل الى اليمن يحمل فكرة انشاء دولة عربية ، وقاسى أنواع العذاب ، وقطع صحراء الدهناء الصعب اجتيازها على الطيور فضلاً عن الآدميين ، فبلغ السلطان خبره وبث العيون والارصاد للقبض عليه ، فسلم السيد من أيدي زبانية الملك وعاد الى مصر ، وهنا نشأت لي معه صداقة وأخذت من تجاربه وحكمته .

وجاءني ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرني في أمر عظيم ، قال إن الخديوي عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ، وكان الخديوي يصطافـها، ليقدمه الى السلطان العثماني ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادّة ، ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب عليّ وعلى رفيق بك ابداء رأي في موضوع جدّ خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حائر في أمره بين القبول والرفض ، وأنه شعر بالامس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا .

وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول قم يا كرد علي فان صديقك أبي مات ، فاضطربت اضطراباً قلّ أن

اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل فسجيته بيدي ، ومن الغد دفناه بمشهد حافل وأبنته الصحف تأبيناً قدرته فيه قدره . شغل أصحابنا هول الفجيعة ، وذهبوا الى أن الكواكبي مات مسموماً واستبعد بعضهم ذلك . وكان الناس يتهمون عبد الحميد بأنواع من التهم ، وكان بعض من اقتربوا منه يبرؤونه مما يرمى به . والغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرة ، فارسل مدير معارف بيروت عبد القادر القباني يأخذ اوراقه ، وبرضي أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة ، أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته ، واسمه (العظمة لله) ، وكان سياسيا كسائر ما خطته يمينه .

فقدت الامة العربية بموت الكواكبي رجلاً قوي الشكيمة ، نادر الشكل في الرجال ، بعمله وبعد نظره ووطنيته . غادر هذه الفانية قبل أن يستمتع بجهاده (كان في الثالثة والخمسين من سنه) وكان يعرف من انحلال المملكة العثمانية ما لم يعرفه إلا أفراد ، ورزق من الشجاعة ما عز وجوده في الخلق ، وكان يعتقد أصدق اعتقاد في دعوته ، ويتجلى النبل في حديثه ، والاخلاص في حركته . ولا عجب فهو سليل بيت شريف أخرج للامة علماء أجلاء على الايام ، ومنهم السيد مسعود الكواكبي شقيق السيد عبد الرحمن ، وكان هذا يقول لي أن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لي الحظ الاوفى أن زاملته سنين في المجمع العلمي العربي ، رأيته فيها ورصفائي مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال تراجمهم العظيمة ، وكانوا ممن اعتز بهم العلم وارتقى الفكر الاسلامي .

حلت روح هذين الحبيبين الشقيقين والحبرين الكاملين فما سقطت فيها على عيب من عيوب الآدميين ، جل الصانع ! وسجلت أنهما تقدما جيلهما في كل معاني الفضل والنبل ، وما أسفًا إلى أن يعيشا كأكثر أبناء الفقهاء عيش التوكل والخنوع ، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل الى ايديهم . الدم الطاهر ينمّ عن صاحبه كيفما تقلبت به الاحوال ولا يحتاج الى من يدل عليه (ان غاب عنك أصله فدلائله فعله) .

الافراط في الكرم

قال لي الاخ فارس الخوري انا أعرف أن رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) صديقك ويستمع لنصائحك فهلا نصحت له بالكف عن هذا الاسراف الذي يسرفه بماله ، ولسان حاله انه المجد ، وأي مجد إذا جاع ابناؤه بعده ؟ فقد باع بالامس غيضة حور بألف ذهب عثماني ، واظنه انفق اكثر ثمنها حتى الآن . فقلت له انك لعرف أن رئيسنا عاش في بيت مارأى فيه غير المكارم والصدقات ، فقد كان أبوه كريماً ولكن بمقياس صغير ، أما جده فكان مضرب الامثال بكرمه ، فرجل نشأ هذه النشأة يستحيل ان يستمع لنصحي أو نصح غيري . ثم أني اعلم ويعلم العارفون عن يقين ان الرئيس انفق في سبيل القضية ارثه من أبيه وانه جاءته ايام كان فيها مضيقاً جداً ، وهو لايقطع صدقاته وادراراته عمن اعتادوا التبلغ بماله ، فكان يستدين وينفق على بيوتهم ، فالكلام في الاقتصاد لايجدي فتيلاً مع هذا الرجل ، وكل ميسر لما خلق له .

السيد خالد العظم

جاءني أحد كتاب الصحف الدمشقية يلتمس حديثاً ينشره في جريدته فاجبته الى طلبه ، وان كنت من أكره الناس لمثل هذه الاحاديث ، ولايضايقني أكثر من الصحافيين والمصورين . وجرنا الحديث الى ذكر رئيس الدولة السابق السيد خالد العظم فسألته ماذا تعرف عنه ؟ فسكت كأنه لا يعرفه إلا بالاسم فقلت له وانت تشتغل بالمصالح العامة ؟ اما بلغك ان السيد العظم عف عن راتب الرئاسة ولم يدنس بالنفقات المستورة ؟ وانه انفق من ماله عشرين الف ليرة سورية على الولائم والدعوات باسم سورية مدة سبعة أشهر ، وكان مثال الحاكم العادل في رياسته دفع غوائل كثيرة عن بلده ، ومنها لما نقل مدير مصرف سورية ولبنان أموال فرع دمشق الى زحلة ، وبالطبع كان موعزاً اليه بعمل ذلك من المحتلين فهدده ابن العظم أن يعيد الاموال في الحال والا يرسله الى السجن فاعيدت ، عمل هذا وقال الذين ادعوا ان الاموال تحفظ هناك ليس بصحيح فهذه اموال سورية إذا نهبت فلينهبها ابناؤها الذين جمعت منهم فهي مالهم لاينازعهم فيها منازع . والثانية أن الانكليز لما احتلوا سورية وطردوا الفرنسيين الفيشيين منها جاءه أحد رجالهم يحمل دفتراً فيه مئات من أسماء أهل دمشق وغيرها وطلب اليه نفيهم او تسليمهم للبريطانيين بدعوى انهم أعداء بريطانيا العظمى فتبسم السيد العظم وقال لمخاطبه ليس عندكم هنا أعداء بل أحباب ، ومارُمي به هؤلاء المتهمون لا اصل له الا في مخيلة اصحاب الاخبار وكتبة التقارير ، وتناول الدفتر منه وطواه ، ولم يظهر عليه احداً أسدل الستار عن تلك المأساة المنتظرة هذا الى غير ذلك من مآثره في

نهضة البلاد الصناعية والاقتصادية وكان كل مايأتيه في حياته يقصد به النفع العام . ينفق من ماله مغتبطاً ولا يقول ولا يتبجح . وهذه الامور بلغتني بعد حين من بعض الاصحاب وذكرتها له فسكت خجلا افرط ادبه وتهذيبه .

هذا الى صدقاته السرية والرواتب التي يدرها على ذوي الستر من المحاويج والمعوزين فلو كان على رأس ابن المظم قبعة لرفعتم من شأنه ولغنيتم بمآثره ولكنه مسلم وعلى رأسه طربوش وعجيب ان تنسوا أو تتناسوا مثل هذه الشخصية ، ولكن زامر الحيّ لاالطرب مزامره .

اختيار الوزراء

لم تظهر لي الحكمة في نصب وزراء ضعاف من الفريق الذي عرا من كل تجربة في الادارة والسياسة . والأحجى الا يعهد بوزارة الا لمن سبقت له خدمة في أعمال حكومية لا تقل عن عشر سنين ، أو من أسلم الى التمرين مدة طويلة فأثبت خلالها كفاءة عملية مضافة الى ما هو مجهز به من شهادات

بالجهل لا تدار وزارة بل لا يدار ديوان صغير ، وعجبنا أن رأينا في هذا العهد تساهلاً في اختيار الوزراء ، وغاية رجائنا أن يكون هذا الحكم سالماً من الشوائب ، تدير دفته فئة صالحة من المصطفين الأخيار . ونحن أحرار في اختيار الأصلح للخدمة لا تنازعنا هذا الحق دولة ولا جمعية ولا حزب ، وعلينا تبعة من تقرب وتقصي ، ومصلحة الامة فوق كل مصلحة . ومن يتحرى الأنسب يظفر به ، ومن حرص على الحسن يصل اليه .

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

المؤلف الشاب

الى ابني الروحي صلاح الدين المنجد : عجبت لما نزلت لك عن صورة مخطوطة من كتاب رسل الملوك لابن الفراء وكان عليك ان تعجب ان لم ادفعها اليك . كنت في كل زمن أرى الضنانة بالعلم ابشع انواع الضن ، والكتاب سواء نشرته أنا أو طبعه غيري فالمهم ان يصدر للناس وينتفعوا بموضوعه الطريف . وقد وفقت ونشرته في حلة انيقة ، وعلقت عليه ما زاده امتاعاً ، واتبعته بملحق اماط النقاب عن حقائق جمة جاء أكثر فائدة من الاصل . حليت الغامض وبسطت المجمل فجزاك الله خيراً عن العلم .

اني ما زلت اعجب بمن يعرف واجبه ، ولو كان في مؤلفينا الشباب كثيرون مثلك يقومون بواجبهم لكانت الشام اليوم ارقى من مصر . سر في سبيلك ولا تتاون لحظة عن متابعة ما أنت بصدده ، فقد استعددت لما تخوض عبابه وستستعيد مجد الاجداد وتثبت انك ابن عبد الله شيخ القراء في دمشق عليه الرحمة .

كبار الصحافيين

اقيمت في دار الاوبرا الملكية في القاهرة حفلة لتأبين صديقي الاستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الاهرام ، وتفنن الخطباء والشعراء في ذكر صفاته وذكروا فجيعة الامة به ، واثبتوا انه ممن وقع الاجماع على حسن بلائه في خدمة مصر نحو اربعين سنة ، اخلص لها في سره وجهره ونفعها بنبوغه وصفاء نفسه وحبه للخير .

وقد اقترحت في تلك الحفلة وضع كتاب يلم فيه بجهاد المؤبن ويذكر طرف من منازعه ونموذج من مقالاته ، وبعض آراء كبار رجال الفكر فيه ، فوعدني صاحب الاهرام يومئذ وكان حاضراً بانفاذ هذا المقترح . ومضت اعوام ومات صاحب الاهرام والكتاب لم يصدر ، ونسي داود بركات فلا يذكره اليوم الا بعض من عرفوه ، وهذه عاقبة التعب في الصحف اليومية يذكر الصحفي ما دام حياً والقوم محتاجون لقلمه ، فاذا مات ينسى في امته التي ينسى فيها كل شيء بعد حين .

قال لي داود بركات عليه الرحمة في سنة ١٩٠١ ونحن في المحجر الصحي في بيروت وقد بعدنا عن مصر وانقطعت اخبارها عنا ثلاثة أيام ، والقلق باد على وجهه : بالله عليك لم لا تمنيني انباؤها وكل ما فيها يطربني ، أطرب لعشرة اهلها واعد السعادة في سعادتهم واطرب لنغمتهم ولهجتهم ولسكونهم وحركتهم بل أطرب لحيوانهم وجمادهم .

هذا الرجل الذي يحمل مثل هذه العواطف الشريفة لمصر اصابه ما أصاب الصحافي ، ينوه به في حياته فاذا غاب عنهم يقلون من ذكره اليوم بعد اليوم ولو كان من عيار هـذا العظيم بعلمه وأدبه وأخلاقه وصدقه ، ومن أجل هذا كنت كثيراً ما أقول لمن صرفوا جهودهم في الصحف وكتبوا فيها

المقالات الممتعة وافادوا بما كتبوا أدب العصر وسياسة العصر امثال داود بركات وشكيب ارسلان وخليل مطران وامين الرافعي وامين الجميل وخليل زينية وابراهيم سليم النجار وجبران تويني ويوسف العيسى ونجيب الريس ومعروف الارناؤط وامين سعيد واضرابهم من الشاميين والمصريين — ان يدخروا اشياء من محصول اقلامهم لتكون لهم ذكرى ولمن بعدهم تعلة وسلوى .

دهاء الانكليز

يوم ضرب الفرنسيس مدينة دمشق في الثورة السورية كان احتجاج قناصل الدول شديداً جداً على فرنسا ، وكان العامل الأكبر فيهم صديقي المستر سمارت قنصل بريطانيا العظمى ، ولئن انتهى هذا الاحتجاج باستدعاء القناصل كلهم من عاصمة الشام فقد أورثهم احتجاجهم مكانة عظمى لتألمهم للظلم ، وانكارهم تخريب مدينة عظمى مثل دمشق لأسباب تافهة .

والانكليز لا تدانيهم بدهائهم امة ، وقد اشتهروا عندنا بانهم جد اوفياء لاصحابهم ليس من السهل لديهم تركهم وشأنهم بعد الصداقة ، ولا يسارعون الى وضع ايديهم في ايدي غيرهم ثم ينسونهم كما يفعل الفرنسيون . فهم يتريثون في صداقتهم ويتريثون في عداوتهم . وهذا من بعض ما خصوا به من الصفات .

كلمة حق

سألت الشيخ سليمان الاحمد عالم العلويين في عصره عن تاريخ العلويين فاجابني لايوجد (ويا للاسف) وثائق مبعثرة يصح الاعتماد عليها بمثل هذا الموقف الا مايؤخذ من أفواه الرواة واغلبهم اميون ، والتاريخ يتطلب الحقائق المرة والخاصة الموثوق بهم كانوا لايعبأون بالتاريخ عياً أو زهداً قد لايحمدهم عليه اللاحق ولله في خلقه شؤون . وقد استكتبت لكم منه ماقدرت عليه وعلى فضيلتكم الاستنتاج والتطبيق .

اما الكتب فليس هنا منها مايشير الى شيء من ذلك الا مايكتب في تاريخ الكتاب بان يقال وفي هذه السنة حرق الوالي او المتصرف (بدون ذكر اسمه) المقاطعة الفلانية وقتل المقدم الفلاني دون أن يتعرض لسبب ذلك الا مايتخيله بانه من فساد فلان المقدم او الآغا او نحوه . وهذه الكتب اما قصصية ضعيفة العبارة لايؤبه لها . أو مذهبية يضن اهلها حتى على الشمس برؤيتها ، سواء أكانوا على هدى من امرهم ام على ضلال . والكتب القديمة النفيسة ذهبت طعمة للنار والتراب من الاهوال والويلات التي مرت في القرون الاربعة المتأخرة التي يؤلم ذكرها ولا خير في نشرها .

وفي هذا القرن كان أهل الحاضرة يعدون مايفعله جهلة العلويين بفتيا علماء الدين فيعصبونه بهم لدى الحكام ويغرونهم بهم وبالرؤساء ويحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة . وكان الدين أعظم الوسائط التي توصل الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جرى ذلك المصاب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلولية من أشرف وأجل بيوت العلويين في حادث سنة ١٢٩٥ فاطلب تفصيله من صديقكم بدوي الجبل) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية بل على وجهاء البلد ورؤسائهم

السنيين وعلمائهم ثم على أهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا لما بين عشائرهم من الضغائن والاحقاد والغارات يسارعون الى الدخول بخاطر الاغوات ثم بخاطر الحكام عن ايديهم . ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم وبعشيرته على عدوه ، ولا تسل عما تفعل الهمجية ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل اشرافها وذللت عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك حسبما تقتضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا أدري الى أي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله ان يحسم أسبابها بايدي المصلحين العظام المخلصين امثالكم والتبسط بشرحها لايجدي اولا ينتج الا ان الشرقيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسمات الدين وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

والذي أراه أن قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلويين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية وكانت الحكومة اذا احرجت جردت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت فاذا رجعت العساكر عادت العشائر الى ما كانت عليه يضبط الحاكم الحازم جماحهم . ومتى بدل بحاكم ضعيف الادارة أو مرتش عم البلاء من الرؤساء الفسدة والاشقياء الجهلة .

لما حكم ابراهيم باشا المصري دوخ البلاد وقطع دابر أهل الفساد وضرب الامن اطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها سلاب ولا قاطع سبيل فرتع الانام في بحبوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف . فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال مالا يحصره مثال ومنه ماترى ضمن الرقعة المكتنبة فعذراً ايها الاستاذ العلامة فان التاريخ مظنة الاغفال والاخلال من كمل الرجال فكيف بالمعجزة ضعفاء العبارة مثلي .

مجمع فؤاد الاول

« يامعالي الرئيس ويااخواني الاعزة

اليوم يودع بعضنا بعضاً ويتفارق الزملاء الى العام المقبل . واني لمغتبط ان كان لي الحظ الأوفى بان رافقت المجمع منذ نشأته ، أيام كنا نجتمع اجتماعات خاصة في احدى قاعات مجلس النواب المفاوضة في قانونه ، وذلك قبل أن يوافي القطر زملائي الاجانب . ومن فضل الله ونحن في آخر دورة الانعقاد الرابع أني لم أتخلف طوال هذه المدة يوماً عن الاشتراك في الجلسات واللجان .

« يا سادتي ان سروري بما وفق المجمع اليه من الاعمال لا يحول دون أن أبوح لكم بما كان يجول في خاطري ، خصوصاً ونحن كأبناء بيت واحد يجب على كل فرد منا أن يعمره بالعمل الصالح . وهذا ما يقيم لي العذر على تصريح ربما كان من الاحجى الامساك عنه . ولكن هو الرأي قد ينفع إذا صدر من صميم القلب . ودخول المجمع في الدورة القادمة في طور جديد يستدعي اعترافنا بقصورنا ، ان كان يصح أن يسمى قصوراً .

« أريد ان اقول اننا في الاعوام الماضية قد أكثرنا على ما رأيت من القول في الاحايين ، واشتدت بعض مناقشاتنا الى حد كان يجزىء بعضها ، وربما استغرق الكلام على لفظ واحد ساعة أو بعض ساعة ، نخرج خلالها قليلاً عن الموضوع المطروح للنظر ، ويدخل في صلب المناقشة ما لا يتصل بها بسبب ، فضاع بذلك وقت كان الواجب صرفه في السير الى الهدف الاسمى الذي نرمي اليه ، واذا عرفنا أن مجموع ساعات اجتماعاتنا العامة في السنة لا يتجاوز السبعين ساعة وجب علينا أن نقتصد في كلامنا وحركتنا .

« أنا لا أوجه بهذا القول ملاماً الى احد ما دمنا كلنا نهتم لنجاح ما وسد الينا من عمل ، وما دام بلاء كل عضو معروف في الحاضر والغابر ، بيد أني

والحق رائدي فيما أقول ، كنت أرى الجلسات لا تضبط ضبطاً محكماً ، وان الاحاديث كانت تتعاور فيها في آن واحد فيختلط الكلام ولا يستقصى ما يقال برمته ، مما حال دون اشتراك بعض الاخوان في جميع المناقشات ، وهي تحتاج قبل كل شيء الى هدوء وروية .

« ثم إن من المسائل التي أحب المجمع خوضها ، ورسم بعض الخطوط فيها ولم يصل الى نتيجة منها مسألة تصحيح الاغلاط الجغرافية ، وقد كان لعهد أعضاء لجنة الفنون منذ السنة الاولى أن يصححوا الاغلاط الشائعة ، وفوض اليّ ارجاع الاعلام الاندلسية والصقلية الى مصطلح العرب ففعلت ، ورفعت التقرير الى ادارة المجمع والى الآن لم يصدر أمر الرياسة بالنظر فيه ، مع شدة الحاجة الى مثل هذه الاعلام ، والكلام يجري عليها كل يوم في الصحف .

« أغفلت الرياسة على ما يظهر هذا التقرير اغفالها تقريري الذي قدمته منذ أول الدورة الثانية وقد ضمنته خمسمائة كلمة في الشؤون العامة وشرحتها شرحاً خفيفاً ووضعت لها ما يقابلها باللغة الفرنسية ، وما عرفت لهذا الاغفال علة ودعاني الخوف من أن يأمر الرئيس بطرحها في سلة المهملات الى أن تزودت بنسخة منها . هذا مع ان اقرارها يزيد في محصول المجمع السنوي من الألفاظ ، وأنا لا أقصد بها ظهوراً ولا شهرة .

« ثم ان المعجم الذي هو ضالة المجمع المنشودة لم نسمع عنه سوى ما كتب في المحاضر اياماً وقضينا في الاخذ والرد ساعات لم تسفر عن أثر عملي . وما أدري ان كان بديء بالعمل به ، أو هو لا يزال في عالم الخيال . واذا لم يبدأ به الآن فمتى يبدأ . واذا استحال اليوم وضع المعجم التاريخي وكان من الصعب تأليف المعاجم السهلة للمبتدئين والمنتهين في اللغة فلا اقل من ان ننشر بضع كراريس على حروف المعجم في الالفاظ التي وضعها المجمع لتتداولها الايدي ويعرف المجمعيون مقدار وقعها من نفوس العارفين في الأقطار المختلفة .

« واشار الى بعض هذه الامور زميلي الاستاذ نالينو في جلسة الامس لان هذه المسائل هي من العمل الرئيسي الذي انشئ المجمع الملكي لاجله ، لا احياء الادب العربي الذي يسهل القول به ويتعذر اي تعذر عند التنفيذ . وكل من عانى نشر الكتب القديمة يعرف قدر الجهد الذي يبذله كل من يطمح الى نشر نص قديم . ومن أعرف العلماء بهذه الامور اخواننا علماء المشرقيات ، فقد يقضي الواحد منهم السنين ولا يخرج بضع كراسات رأيت احدهم نشر من كتب العرب بمفرده ما لعجز عن نشر مثله المجامع العلمية بمجموعها في السنين الطويلة ، وما ذلك الا لأن الرجل أخصى في هذا النوع من المعارف ، ومرن طويلاً على النظر في كتب الاقدمين .

« ثم ان مجلة المجمع لم تصل منذ انشئت الى كثير ممن يرجى انتفاعهم بها . وقد ملئت ، ولا عار في الحق ، بأشياء كان الاولى ان تتجرد منها ، واستنزفت صفحاتها على سبيل الاستئثار أو الاثرة ، وحرم بعض الرفاق من المؤازرة فيها . والمقالات والتآليف بامتاعها وفائدتها لا بطولها وكثرة حروفها ، والمجلات تسمو بكثرة الايدي العاملة العالمة فيها . ولكم كنت اتمنى لو اصدر المجمع مجلته في مئة صفحة منقحة موجزة وكف عن نشرها في أربعمائة صفحة وطبع منها عشرة آلاف ووزعها مجاناً .

« ساقني الى ماقلت الغيرة على سمعة المجمع والمعاونة على ايصال فوائده الى من يجب ايصالها اليهم . وكل منا ولله الحمد غني عن طلب التمجد بما له من اثر وسابقة . ولذلك ارجو ان يحل كلامي محله من الاخلاص وان يثبت في محضر هذه الجلسة الاخيرة ليكون لنا منه بعض الذكرى في السنين المقبلة ، فندخل الكمال على عملنا ونجوده اكثر مما جودناه ، ونقوم حق القيام بما يفرض علينا لخدمة العرب والعربية . »

هذه صورة التقرير الذي اردت تلاوته فمنعني رئيس المجمع توفيق رفعت باشا ، بما عرف فيه من ادب ، من اتمام قولي ، وامر كتاب الجلسة ألا يثبتوا في المحضر شيئاً مما قلت .

ومن الغريب ان ما شكوت منه في تلك السنة لم يقو الرئيس الجديد على ملافاته والى ساعة دفع هذه الاصول للمطبعة لم يصدر المعجم الوسيط ولا غيره ولم تصدر مجلة المجمع منذ تسع سنين . وجلالة ملك مصر كلما تشرفت بالسلام عليه يقول لي ولبعض زملائي الاجانب ان مجمع دمشق يعمل اكثر من مجمع مصر ، وكلما سمع ذلك أحمد لطفي السيد يتمعض ويغتاظ غيظ الاسير على القد .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً　　　كنقص القادرين على التمام

شهادة ملك بملك

قال الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الاردن في مذكراته : دعت الحكومة العثمانية امراء البيت العثماني لضيافة أقامتها كان الغرض منها الفتك بآل عثمان. وقد نمي الخبر على حقيقته الى السلطان عبد الحميد الثاني قبل جلوسه فاعتذر ولم تظفر الحكومة بمرادها .

وقال في السلطان عبد الحميد هذا : ولقد زعم الناس ان عبد الحميد الثاني كان ظالماً . لقد كذب الناس والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر والاحتياط . ولقد عرف بعد أن ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم الاعدام في محكوم الا مرة واحدة ، وكان المجرمون يتركون في السجون حتى يدركهم الموت وأما الذين ينفون من بلادهم الى اسطنبول أو من اسطنبول الى الخارج فهم اولئك الذين عرض عليه أنهم أهل خلاف عليه أو على سلطانه ، فيخرجهم الى مكان لا يعرفون فيه ، فيقي دولته الفتن بهذا التدبير . وقال في الشام : رفعت الرايات العربية بواسطة الأيوبي (شكري باشا) وموافقة أحمد جمال باشا (لعله جمال باشا المرسيني) القائد التركي المعروف ، وبارادة سلطانية اعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية (كذا) .

الخزانة التيمورية

اشتهرت خزانة العلامة أحمد تيمور باشا في الشرق والغرب لانها انتقاء عالم قضى حياته في جمعها والتعليق على امهاتها ووضع الفهارس التي تسهل الأخذ منها ، كانت أولاً في دار صاحبها في عين شمس من ضواحي القاهرة بجوار دار استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده فلما انتقل هذا الى جوار ربه شق على تلميذه تيمور أن يسكن تلك الناحية فنقل خزانته الى قويسنا من عمل المنوفية احدى مزارعه ، وقد دعاني واستاذي الشيخ طاهر الجزائري لنصرف أياماً في قويسنا فقضيناها في البحث في نوادر كتبها يقرأ صاحبها من فهرستها اسماء المخطوطات ، ويرجح الشيخ طاهر النادر والاندر منها ، وأنا أكتب ما يقر عليه القرار حتى تجمع لنا من ذلك مقالة ممتعة في وصف تلك الخزانة العظيمة ، وقد رأيت الخزانة قريبة من عشش الفلاحين في قويسنا وقدرت ان النار ربما تلتهم قصب بيوتهم فتسري الى البيت الذي فيه الخزانة ، فلفت نظر صاحبي الى هذا الخطر فما عتم أن يشرني بانه ابتاع أرضاً في الزمالك من أحياء القاهرة وهو على ان يبني فيها داراً لخزانته ، وما هي الا اشهر حتى تم البناء ونقلت الخزانة الى الدار الجديدة ، ووقف صاحبها أفدنة يصرف ريعها على خزانته . ولما توفي رأى ولداه اسماعيل باشا ومحمود بك ان ينزلا عن الخزانة لدار الكتب المصرية تجعل في زاوية منها فقل الانتفاع بها ، وسمعت هذه السنة ان وكيل دار الكتب المصرية اقترح أن تجعل في قلعة الجبل فنقلت الى هناك وبطلت الاستفادة منها ، وما نفع ذلك الوقف وما وقف الواقف .

الاعتراض والدعوى

كنت في شرخ الشباب آخذ العلم عن شيوخ عظام في بلدي على طريقة تخالف الطرق المتعارفة إلى ذلك العهد ، فكان لقائي لهم ، بعد تلقي ما لا بد من آخذه من المبادىء ، لقاء اخوان لهم مجلس يجمعهم ، ورابطة تؤلف بينهم ، والندي لايخلو من علم ودرس وتصحيح ، ونقد سياسة ، وايراد نكات وفكاهات ، فكنا تارة نقرأ اعجاز القرآن للباقلاني ونعارضه على نسخ مخطوطة ، وأخرى نتدارس الذريعة الى مكارم الشريعة الراغب الاصفهاني ونصححه على نسخ قديمة غير مطبوعة ، وآونة ندرس مقدمة ابن خلدون درس تدبر عميق وشرح وتطبيق .

وكان في البلد عالم جليل يغلب عليه التصوف ، يقرأ في داره لبعض تلاميذه الدروس المعتاد القاؤها عند مشايخ ذلك العصر ، وكان منهاجه واسعاً مغريا ، والكتب التي يدرسها من أطول الاسفار في فنها . فدخل الغرور بعض طلبته وغرتهم أسماء الكتب التي يحضرونها على شيخهم (المطول والاطول) فراحوا يزعمون أن من لم يقرأ هذه الكتب ليس بشيء ، وترامى الينا أنهم يهزأون بالكتب التي نقرؤها في مجالس شيوخنا ، وتكرر اعتراضهم علينا ، وعلى حسن أخلاقهم وتصوفهم ، كانوا يستخفون بما ندرس وبطريقتنا بالدرس ، فضاقت صدورنا ، وصدور الشباب ضيقة ، فاطلقنا عليهم اسم (جمعية الاعتراض) ولم ننبزهم باكثر من هذا ، لانهم كانوا من اصحابنا وجيراننا ثم اعرضنا عن اعتراضهم ، وشغلنا بدروسنا ومطالعاتنا .

وما فتىء جماعتنا يتابعون النظر والدرس حتى فرق الموت بين الاساتيذ والتلاميذ ، أما أصحاب الاعتراض فانفضوا من حول شيخهم بعد حين ، واشتغل كل واحد منهم بوظيفته وتجارته وزراعته ، ولم يعاودوا الدرس ولا عادوا يُعملون عقولهم بما تعلموا من الدساتير ، ولا حدثتهم انفسهم بان يتبعوها بشيء من العمل ، ولا بالرجوع الى ما صرفوا فيه أجمل أيام شبابهم من تصفح المطولات . ومضى لهم أربعون سنة أو تزيد لم يسمع لواحدهم خلالها صوت في جامع أو ناد أو حفل يخطبون فيه أو يحاضرون ، ولا عهد لهم أن أنشأوا رسالة أو وضعوا تأليفاً أو نظموا قصيدة يضمنونها أدبهم وعواطفهم لا ان يكتبوا مقالة يتطلبون من ورائها اصلاحاً أو يبثون فيها فكراً . وندموا فيما نظن ، وهم الاذكياء ، على اضاعة اوقاتهم في نقد غيرهم ، وخجلوا من انفسهم لاعجابهم بها أيام الطلب ، وما أجدى عليهم اعتراضهم الا أنه أخرهم عن اللحاق بالعاملين .

أما تلاميذ أولئك المشايخ الذين جعلوا العلم مجلس أدب ، ومعملاً فيه العمليات أكثر من النظريات ، فقد برزوا الى ساحة الحياة وألفوا ووعظوا وتخرج بهم طلبة واشتهروا بدون أن ينظروا في المطول والاطول ، وظلوا على دؤوبهم في طلب العلم الى آخر أيام حياتهم ، وبعضهم اليوم في عشر الثمانين وما برحوا متوفرين على الدرس والتأليف ، وربما كتبت لهم شهرة تفوق شهرة مؤلف المطول والاطول . درهم عمل خير من قنطار كلام ، والدعوى ما أفادت صاحبها قط .

المدنية ابنة الغنى

يقولون ان التجار اغتنموا فرصة الحرب الاخيرة فرفعوا الاسعار على هواهم واغتنوا غنى فاحشاً وظهرت عليهم امارات الرفاهية ، على مالم يكن آباؤهم ينعمون ببعضه ، وتجمعت لهم أموال عظيمة ما كانوا يحلمون بكسبها حتى أصبح بعضهم لايدري كيف يوظف مايملك ، وأ كثر مايقال صحيح ، ولكن اما كان في اغتناء فئة من القوم فائدة عظيمة عادت على المجموع ببعض الخير ؟ نعم كان ذلك والدليل عليه مايأتي .

فصد التجار دم المستهلك باغلاء الاسعار ، هذه قضية لاشك فيها ، والاسعار ترتفع وتنخفض بقانون طبيعي يزيده أرباب التجارة وينقصون منه إلى حد محدود ، إذا عرف هذا فالواجب لا ننسى ان من دواعي الغبطة ان هذه الاموال المتجمدة وهي جزء عظيم من الثروة القومية لم تتسرب الى الخارج ، وبقيت في ايدي كاسبيها ينفقونها في أرضهم .

قام تجار الحرب بمشاريع عمرانية يستثمرون فيها اموالهم فمنهم من بنى الدور وأقام القصور ، حتى كادت بعض مدن هذا الشرق القريب تعد من اعظم المدن الغربية بمظهرها وزينتها ، ومنهم من أنشأوا المعامل والمصانع أوجدوا بها خبزاً للعمال ، وكفوا طائفة من الفقراء مؤونة التكفف ، ومنهم من أنشأ ملاحة جوية أو ملاحة بحرية ، ومنهم من تصدق وافضل على الاعمال الخيرية فاقام دور المرضى والعجزة وعاون المتعلمين وبيوت العلم ومنهم من أسسوا الشركات يضمون القوى المبعثرة ، ويجمعون من القليل كثيراً ، علماً منهم بان الفرد محدود العمل ، محدود الربح ، عرضة للافلاس والمجاعة أقل منه تأذياً بذلك .

المدنية ابنة الغنى كانت تنبعث في الماضي من قصور الملوك ثم تنتقل

الى الامراء والعظماء فالاغنياء من التجار والزراع ، ولولا الغنى ماقام مابينهم عن مدنية الاجداد من معابد ومدارس ومصانع وقصور وقناطر وجداول، ولولا الغنى الذي تجمع في أجيال وقرون ما كان في العالم شيء اسمه راحة ورفاهية أو عظمة ومجد . كانت الثروات في الدهر الغابر وقفاً على الافراد فلائل يحتكرون مايشاءون من صنوف الغذاء والكساء وكان من تقسيم الثروة اليوم وتعدد الايدي في استثمارها ، وتفنن القرائح في اتقان اساليبها ماقامت به مشاريع في العمران على أساس ثابت ، ونظام محكم ، ومن ابن يكون هذا لولم يربح الرابحون في الحرب هذه الارباح وتنشأ ثروات جديدة ، جمعتها أيد جديدة ، وأحسنت التصرف بها عقول جديدة .

كان الناس اذا اغتنوا يخزنون نقودهم في الصناديق او يدفنونها في الارض ، أما اليوم فالغني لايخاف الاعتداء على ماله اذا هو أدى الواجب عليه للدولة والملة . وكان إذا ظهرت عليه آثار النعم واشتهر بأن في خزائنه ذهباً وفضة يصادر ويعذب ، فغدا لعهدنا مطلق التصرف بحريته ، يعمل ما أراد كيف أراد ، ويجد له من الحكومات من يظاهره على استكمال أسباب اغتنائه . وأدرك كثير من أرباب الثروة الا بقاء لثرواتهم إلا أن يداووها بشيء من أعمال البر ، ويعطوا المجتمع قسطه الذي يستحقه منها .

كنت أشكر مرة لأحدهم تبرعه لاحدى الجمعيات النسائية بمقدار من المال ، وعلى إعطائه مبلغاً عظيماً يصرف في رفاهية المتعلمين من أهل بلده فقال : هذا مايجب ، وصرف المال أو بعضه في مثل هذه الوجوه أحسن لنا لأنا لا نعرف كيف يكون مصير هذه الأموال . وهذا الموسر أعطى بعض المشاريع النافعة مئات الألوف واعتقد أنه يعمل واجباً .

وعلى العكس رأينا ثرياً كز اليدين يطلب إليه الخير فيهرب من مطالبه . وكثيراً ما يعد بأن يعطي مالاً عظيماً لبعض الأعمال المتفق على نفعها ، ويبقى على وعده مدة لا ينفذ قوله ، وإذا سئل عن سبب احجامه عن إمضاء ما وعد به تمحل اعذاراً لا تصدر إلا عن ناقص العقل زَمِن المروءة .

ومن لم يعمل الخير بدافع من نفسه لا تؤثر فيه الدعاية وتحميس المحمسين .

اثرى في الحرب من أرباب التجارات القديمة أفراد ، واغتنى آخرون بالمصادفة كانوا فقراء أو مستورين ، وما احرز رضا الخلق إلا من فكروا في معاونة المحتاجين ، وبذلوا في الخيرات جزءاً مما كسبوا ، يجودون بفضلها على مواطنيهم . والأغنياء عمد المجتمع يفيدون منه ويفيدونه .

ولقد رأيت شعور القوم يقوى حتى أصبحوا يزنون كل إنسان في أدق ميزان ، ويعرفون عيار الناس مهما تكتموا ، وأخفوا ما يملكون وما تصل إليه أيديهم من المشاركة في الخير العام .

مات في الأيام الأخيرة ثلاثة أغنياء ممن جمعوا أموالهم بطرق غير شريفة ، وكان الناس يلعنونهم وهم يُحملون إلى قبورهم لأنهم لم ينفعوا قومهم في حياتهم ولا بعد موتهم . وبئست الخاتمة .

ذيل على أقوالنا وأفعالنا

للغربيين طرق عجيبة في ايصال الخير إلى من يعتقدون أنه ينفعهم من الشرقيين في مادياتهم أو معنوياتهم . ذكر صديقي الاستاذ عبد المجيد نافع في كتابه « السلام الاجتماعي » أسماء الوزراء المصريين الذين أدخلتهم الشركات الأجنبية في مصر بصفة مستشارين أو مساهمين لتعطيهم مالاً ، وتنتفع بحسب الظاهر بآرائهم ، وإن كان بعضهم لا يعرف شيئاً من الأمور الاقتصادية والمالية . فحافظ عفيفي باشا يتولى رياسة وادارة (٣٢) شركة عدا رئاسة بنك مصر ، وحسين سري باشا (٢٧) شركة رياسة وادارة ، ومحمد أحمد فرغلي باشا يتولى (٣٢) شركة ، ومحمد محمود خليل بك يتولى (١٤) شركة وهكذا حال محمد شريف صبري باشا وعلي ماهر باشا واسماعيل صدقي باشا

وعبد المقصود أحمد باشا وعلي الشمسي باشا وعلي أمين يحيي باشا وأحمد عبود باشا ومحمود شكري باشا وسابا حبشي باشا وتوفيق دوس باشا وحسن مظلوم باشا وأحمد صديق باشا وحسن صادق باشا وحسن نشأت باشا من اصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالي والسعادة والعزة وكلهم يتولون بضع شركات تكون جملة رؤوس أموالها من المليون إلى العشرين مليوناً وأكثر . أنشر هذا وإن كنت لا أشك في أمانة بعض هؤلاء الرجال ، ولكن رضاهم بتقلد ما يتقلدون موضع نظر ، ذلك لأنه من الثابت أن المرء لا يجوّد عملين فكيف يجوّد ثلاثين .

وبعد سنة من كتابة هذا وبعد صدور قانون الشركات في مصر كتبت إحدى مجلاتها الشعبية في معرض الدعابة ما يأتي :

نزولاً على قانون الشركات احتفظ شريف صبري باشا واسماعيل صدقي باشا وحسين سري باشا وحافظ عفيفي باشا ومحمود شكري باشا ومحمد فرغلي باشا وعلي يحيي باشا ومحمد محمود خليل بك وعبد المقصود أحمد بك بالعضوية في عشر شركات لا غير ... وكان كل واحد من هؤلاء عضواً في أكثر من عشرين شركة .

سيدة القرى

هي قرية من عمل المنوفية بمصر اسمها كفر المصيلحة أو المسيلحة لم تحرز مكانة كبيرة بكثرة سكانها ولا باتساع رقعة أطيانها ، وأهلها لا يتجاوزون الأربعة آلاف ، ومساحتها لا تتعدى الخمسمائة والسبعين فداناً . حصرها أرباب السلطان في هذه البقعة الضيقة ، وجعلوا مما جاورها من الأرض وقفاً ميتاً لا أثر فيه للتجديد . عظم شأن هذه القرية المباركة لأنها القرية المصرية الوحيدة التي انتفت منها الأمية بفضل رجل من صالحي أهلها اسمه

« حجازي حجازي حسين عمر » أدرك ببعد نظره ما سيحل بأبناء قريته من مرض الجهل فعالجه بفتح كتاب ينفق عليه من ماله ، وأنشأ يمنح كل طفل يداوم على الكتاب دريهمات وحلويات ترغبه بالتعلم . ونشأ ابنه وهو العلامة عبد العزيز فهمي باشا على قدم أبيه ، ينشط أهل القرية على العلم فأنبغت قريته المحامي والقاضي والمهندس والاداري والسياسي والطبيب والاديب وكان من أهلها خمسة وزراء أجلاء منهم أحمد حشمت باشا عم عبد العزيز فهمي باشا وهما من الأفذاذ علماً واستقامة .

لو كتب لكل منزلة وقرية مثل حجازي حجازي لسدت مصر في رقيها كسويسرا وألمانيا ، ولو أحب كل نابه لقومه ما أحبه حجازي لأهل بلده لما أتى جيلان أو ثلاثة إلا وأهل تلك القرية صنف آخر من أجناس الناس ، ولكن أكثر الخلائق يقولون أبداً « أنا ومن بعدي الطوفان » لا يعنيهم شيء من أمور قومهم ، إذا هم حصلوا على رغائبهم ، وتمت لهم ولأولادهم أدوات التفوق .

ومن خصائص أهل كفر المصيلحة أن أبناءها جد أوفياء لقريتهم لا ينزلون لغيرهم عن قيراط يملكونه من أرضها ، او مخدع صغير ورثوه في بيت ، يزورونها كلما سنحت لهم الفرصة لينشقوا تربتها ، ولا يقطعوا صلاتهم بأرض ضمت رفات أجدادهم ، وكان أجدادهم على مايظهر على جانب عظيم من التدين وعلى عرق من الجهل عريق . حدث منذ نحو مئتي سنة أن اغتصب فتى من حي من أحياء القرية فتاة من أهل حي غير حيه ، فما كان من أهل الحي الذي كانت منهم الفتاة المنهوك سترها إلا أن هجموا على جامع أهل الحي الذي كان من أهله المعتدون على العرض وقتلوا منهم في صلاة الجمعة ثلاثة وثمانين رجلاً . عمل فظيع كهذا فيه معنى من معاني الحمية الاسلامية والحمية الجاهلية معاً . ثاروا دفاعاً عن الشرف وهو مما أمر الاسلام بالمحافظة عليه ، وقتلوا الأبرياء وهم في صلاتهم ، وهذا عمل جاهلي عار عن الانسانية والدين . ولكن حجازي حجازي رحمه الله عالج

جهل قريته بدرياق العلم فكان من تعلموا من أبنائها المثل الصالح بين البلدان ، وعدّ عمله وعمل ابنه العظيم مفخرة من مفاخر مصر جديرة بالحمد بكل لسان على وجه الدهر .

العمدة الصالح

ألست من رأيي ان الرأس الصالح يخلف الجسم الصالح ، حدثني أحد كبار قضاة مصر انه قضى في اقليم الشرقية ثماني سنين لم تعرض خلالها على محكمته قضية من بلدة العزيزية المرتبطة بعمله ، اللهم الا ما كان من قضية اقيمت في آخر مدته وجاء عمدة البلدة يقول ان المتخاصمين تصالحا ولم يبق وجه لاقامة الدعوى . وكان هذا العمدة تقياً سرياً وغنياً أريحياً يعرف ما ينفع وما يضر ، ولا يسوق أهل بلده الا الى طريق الخير .

واتفق ان خطر لرجل رومي ان يفتح له حانوتاً ببلدة العزيزية ، وكانت الى ذلك العهد خالية من ابناء جنسه الذين ملأوا ريف مصر بمقاهيهم وحاناتهم ، فابتاع لذلك في ضاحية القرية أرضاً وبنى عليها كوخاً اتخذ منه دكاناً ملأها بما تملأ به في العادة امثال هذه الحوانيت من المشروبات والمأكولات . وما هي الا ايام حتى جاء الرومي في الصباح يفتح حانوته ، وكان يسكن على دقائق قليلة من العزيزية ، فرأى ما هاله رأى دكانه كأنه تبخر أو خسف به ، والارض حرثت وزرعت ورويت في ليلة واحدة فشكا ما حل به الى الحكومة وعجز ان يثبت دعواه أمام القضاء ، وسئل العمدة في جملة من سئل عن دعوى الرومي فقال انه لم يبلغه شيء مما يدعيه ، ورجع الرومي بخسارة ماله وخيبة آماله حزيناً كئيباً .

ولهؤلاء الأروام في مصر قصص تضحك وتبكي وقلّ فيهم من يقيم

فيها مدة إلا ويجمع له مالاً يحمله إلى بلاده ، وهم والحق يقال عنوان التضامن والوطنية والنشاط . سمعت مدير فندق عظيم في القاهرة وهو رومي يأسف جد الاسف لما دفعه إلى صاحب الفندق الوطني من اجور أربت على مئة الف جنيه في نحو ثلاثين سنة . ولما انصرف سألت صاحبه الموظف عنده وكم تبلغ يا ترى ثروة هذا المدير فقال وهو يعرفه معرفة جيدة : انها نصف مليون جنيـه يا سيدي ، وما نسيت وأنا في سن الشباب أسمع في القاهرة مع صديقي حافظ ابراهيم شاعر النيل مطربة مشهورة في مقهى قوله وقـد ظهرت عليه امارات الغضب : ترى يا صاحبي هذه الجوقة وما هناك من خدمة أليسوا كلهم مصريين إلا الجالس إلى الصندوق الذي يقبض المـال فهو رومي .

وفي الرومي موعظـــة لقوم جـــدّ في اللعب

كما قال حافظ في قصيدته التي أحاطت بهذه المعاني وخصها بحث قومه على الاعتبار بأروام مصر .

هامش على سيرة المشايخ

وددت لو طاوعتني النفس فاعفيتك يارفيقي القاريء من التصدي للمشايخ مرة أخرى بعد أن افضيت اليك بامثلة ينقبض لها صدرك من سيرتهم في كتابي اقوالنا وأفعالنا ، وفي هذه المذكرات وصفت لك من كانت الحكومات في كل زمن توقرهم وهم لا يوقرون أنفسهم ، وترفع درجاتهم وبمطامعهم يخفضونها . الحكومات توسع عليهم والامة تجلهم وتستمع اليهم وهم ينظرون الى الدنيا غير نظر سائر المخلوقات لها . واني ان أسفت لشيء فمعظم أسفي لمـا شهدت من قـلة أمانة بعضهم وشدة جهلهم ، تعلموا قشوراً من العلم يستخدمونها في صناعتهم أما أخلاقهم فالى الانحطاط .

كنت أغلب حسن الظن في بعض افراد هذه الطائفة وازعم انهم اذا شبعوا يكفون عن العبث بالشريعة وانهم إذا وسع عليهم وقبضوا رواتب يتبلغون بها لا يُسفون الى ما يسف اليه سائر الموظفين من خبيث الطعمة وفساد الذمة ، ولكن الايام جاءت على خلاف هذا الظن ، أثبتت أن من اعتاد أمراً يتعذر اقلاعه عنه إذ يستحكم فيه فيصبح له في حكم العادة ، وان الفاجرة تنقض توبتها لاقل عارض ، واللص تحدثه نفسه أبداً بسرقة الناس ولو صام وصلى وحج .

عرفت في الطفولة رجلاً دخل في أول شبابه في الوظائف الحكمية وما عتم أن اشتهر باضاعة الحقوق واستحلال ما لا يحل ومضت أيام وارتقى الرجل الى أعظم المناصب في سلكه فقلت لا بد ان يكون أقلع عن خيمه وقبيح عاده ، وهو على أن يصرف جهده في خدمة دينه وامته خصوصاً وهو خفيف الحاذ قليل العلائق بالدنيا ، بيد أنه عاد الى ما شب عليه يخترع الحيل لاملاء جيبه وصندوقه ، ووسيلته الى اشباع نهمته غض الطرف عن تلاعب مرؤوسيه على حين له كل الحق في صرفهم اذا ثبت له عجزهم وتلاعبهم ، أما هو فيحميهم ليتناول الجعالات منهم بطريقة استحلها مايعطونه . وذلك ان يبعث له مرؤوسه ما يلزم بيته من الزيت مثلاً فيرسل له منه مقداراً يكفي عشرة بيوت من مثل بيته باسعار أقل من ثلث ثمنها الحاضر . والاطفال يدركون ان السعر الذي يزعم مرؤوسه انه ابتاعه به هو سعر وهمي لا وجه له من الصحة . والمأكولات لا ينقطع جلبها طول السنة وحاملها يقطع ربع او ثلث راتبه كل شهر ليسدد منه فرق الاسعار عن السوق . ولا شك ان هذا المتفقه المجوز سار مع عامة مرؤوسيه على هذا النهج الملتوي ليغض طرفه عن عبثهم بالحقوق ، وكان إذا قيل له ليسوا اهلا لعملهم ويغلطون في كثير مما تخطه أناملهم قال في معرض الدفاع عنهم يقيم الاعذار لجهلهم وقلة ذمتهم : انه إذا صح انهم يرتكبون أغلاطاً فالغلط يسري على الكبير والصغير .

لو كنت في منصب لي به السلطان على هذا المتلاعب الذي وصفت لحاسبته

حساباً غير يسير ولطهرت الدواوين من أمثاله لانه في نظري قذى يشين الدين والوطن ، ومن غر الناس بصلاته واوراده فهو حشرة سامة يجب قتلها ليسلم المجتمع من مضاره ، وليت شعري متى تصح عزيمة الحكومات على انقاذ الامة من هؤلاء العاجزين إلا عن عمل الشر .

النبل العملي

في السنة الماضيه (١٩٤٦) تفضل الاستاذ ابراهيم دسوقي اباظة باشا من وزراء مصر ومن البيوت العريقة بالمجد ورئيس جماعة ادباء العروبة ، ودعاني الى طعامه فاعتذرت بقرب السفر ، ووسدت ان عشت أن اتقاضى من قابل الدعوة دعوتين . وهبطت مصر وطالبت الوزير العزيز بحقي ، وشرطت فقط أن يطلعني الداعي الكريم على أسماء المدعوين ، فأشرت بحذف اسم شخصين لا أحب أن التقاهما ، وتكرم فوجه دعوته الى ثلة من اصحابي المصريين والسوريين ، وفيهم الادباء والشعراء ، وصاحب الدعوة نفسه اديب وشاعر ، وكانت المأدبة من أمتع الآدب أنشدت عليها أشعار . وأوردت نكات وفكاهات ، وزادت بهجة هذا الاجتماع بالتجانس بين من لبوا الدعوة (أو « الكرزمة » طعام نصف النهار ، كما سماها الداعي في بطاقه الدعوة) .

من ميزات السيد اباظة أنه يعطف كثيراً على الأدباء ، وإذا سمع بناشيء في الشعر والادب يحرص على ان يوصل اليه ما ينعشه من الرزق ، بدون أن يطلعه على اسم الساعي له بذلك ، فيرقيه ان كان من عمال الحكومة حتى يوسع عليه في معاشه قائلاً ان اطروحته قد قدمها للامة بما نشر من ديوان وألف من رواية ، واصدر من كتاب . والدرجات في القانون يسقط حكمها مع هؤلاء النوابغ ، اذ ليس من المعقول ان يقضي الواحد منهم سنين طويلة حتى يصل الى المرتبة التي تمكنه من تفرغه لأعمال عقله وقد يقنطه الانتظار ،

ولضعف همته عن المضي فيما هو بسبيله . وإذا كان النبيه الاديب خارج الحكومة عمل صاحبنا على اسناد عمل اليه يعيش به في حرمة وكرامة . وكثيراً ما يصل احسان الوزير الى المحسن اليه ، وهذا لا يعرف اليد التي قلدته هذه المنة ، وربما انقضى زمن وصديقي نفسه لايعرف الشخص الذي نشله وأنمشه.

ألا يعد هـذا الوزير العاقل حامياً من حماة الادب Mécène ؟ يشبه من بعض الوجوه بعض وزراء الدولة العباسية أيام عزها بأفضالهم على العلماء والادباء ، وكانوا يأخذون بايدي أرباب القرائح حتى نبغ بفضلهم أفراد عدوا مفخرة الدولة والملة . وكم في مصر من مخبآت إذا كشفت تبيض الوجوه ، وكم فيها من مخزيات إذا عرفت لعرق منها الجباه .

اتفق يوم كتبت هذا أن قرأت صحيفة افرنسية اسمها كارفور Carrefour جاء فيها أنه قل اليوم عنصر حماة الأدب ولم يبق امام الادباء الا توقع المعونات غير المطردة ، ومن النادر اعطاء مال بدون مقابل ، او توسيد منصب ليس فيه عمل ، واذا حدث شيء من ذلك فباقتصاد شديد خالٍ من العاطفة .

ألا نحمد الله بعد هذا على ان رأينا الشرق اقبل يستعيض بعض مجده بالعقلاء من أبنائه ؟

الى شيخ الشيوخ

نقل لي أنك قلت يوم نعيتُ على رجال الحكم تقاعسهم في تنفيذ الاحكام على الغشمة من التجار والباعة والفلاحين ، وآخذت المشايخ على تقاعدهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر — ان فلاناً قام اليوم بوظيفتنا ، وكلامك هذا يتأول على معنيين الاول اقرارك ضمناً انك وجماعتك مقصرون في وظيفتكم وانا قمت عنكم بها ، او أنك تقصد اني اعتديت على

وظيفتكم وما كان من حـقي ذلك ، وشهد الله انى كنت أحب ان أراك وجماعتك تقومون بواجبكم ولا يفتح مجال لي ولا لغيري للتعرض لـكم أتركم تتمون بوظائفـكم وجميع ما يتبعها من الفوائد بيد ان القصور الذي لمسته ولمسه العارفون في هذا الباب دعاني الى سد هذه الثلمة وأنا مقران ليس لي أن اشرك الوعاظ في مواعظهم لانها مما يتوقف الاضطلاع به على علم لدني وعلم كسبي وكلاهما في نظركم وقف على طغمتكم . وسواء كنت على استعداد للـكلام في هذا الشأن او غير مستعد فحسن نيتي يشفع لي في هذا التعدي على مقامكم . وسواء قمت بواجبي أو تعديته فليس فيما جرى ما ينكر ما دام قد مضى على محاضرتي بضع سنين ما سمع احد منكم خلالها ولا قبلها موعظة ولا خطبة ولا درساً ولا نشرتم كتاباً ولا رسالة ولا بحثاً وكذلك كنتم طوال حياتـكم الشريفة .

العلم كما لا يخفى على ثاقب ذهنكم ينضج في صدر صاحبه كلما علت به السن وأنتم قد عمّرتم ما شاء الله أن تعمروا واتجرتم مـ شئتم بما جمعتم من مال فماذا دعا الى توقفـكم عن القاء الدروس النافعة ووضع التآليف الممتعة . على حين ترون البدع عن ايمانـكم وشمائلـكم والمسلمون الذين بهم عزتـكم تقرضهم امراض اجتماعية كثيرة فهل فكرتم يوماً في مداواة بعضها والناس ألحدوا وطغوا وهم يتحللون من كل قيد فهلا دللتموهم على طريق النجاة ، وتحت اشرافـكم كثير من الموظفين هل قاموا بما اسند اليهم ام كان الامر لا يعنيهم يقبضون الرواتب ويدعون للسلطان بالنصر ؟

وظيفتـكم تدور على التعليم والهداية وساعدكم القانون فقضى ألا تخرجوا من الخدمة الا بالموت وطال امد حياتـكم على ما ليس من مصلحة هذه الامة فمن علمتم انتم وجماعتـكم ومن هديتم . انا لا اطال الى ان ابيع منـكم بضاعتي وارغب في ان يطلع الخلق على بضاعتـكم واغتبط ويغتبط كل عاقل إذا افدتم البر والفاجر والصانع والزارع والتاجر ، نفع الله بارشادكم الاسلام والمسلمين انه سميع الدعاء فعال لما يريد .

شرقي الاردن

منذ أكثر من خمس عشرة سنة وملك شرقي الاردن عبد الله بن الحسين يتلطف ويدعوني لزيارته في عمان وأنا اعتذر بكثرة اشغالي . والواقع اني اعرف قرية عمان لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف وهي الآن تربو على الاربعين الفاً حتى تكاد تعد من امهات المدن في الديار الشامية ، وماذا عسيت ان أرى من جديد في عمان وأنا دعيت منذ بضع سنين لزيارة تونس فما اجبت وكنت دعيت الى زيارة مراكش فأبيت ودعيت غير مرة الى زيارة نجد والحجاز فنكصت .واذا كنت لم أزر العراق على قربها وتكرر دعوة اخواني العراقيين لي كيف يجوز لي ان أزور شرقي الاردن وانا أعرفها وأعرف ما يحاك فيها .

ثم أنا لا اعتب على جلالة ملك شرقي الاردن الا لسعيه — ان صح ما بلغني — في ضم سورية الى بلده أو ضم بلده الى سورية وذلك تحت الانتداب الانكليزي . قدر الله لنا معاشر السوريين ونجونا من سلطان الانتداب (باعجوبة) فكيف بنا نعود سيرتنا الاولى بعد ان تمتعنا باستقلالنا واخذنا نعيش احراراً فما شأننا والعبودية .

وكاتب هذه السطور لا ناقة له ولا جمل مع العروش ولا مع الملوك ولا مع رؤساء الجمهوريات ولا مع الزعماء والاحرار والذي يدين الله به ان الحرية احسن من العبودية ولو كان الذي يحكمني من أكبر الصحابة والتابعين .

افراط وتفريط

مما يمتاز به الغربيون غرامهم الشديد بالآثار والعاديات . تشهد كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم مولعاً بالنظر اليها يناغيها ويستوحيها ويذكر فيها . والسعيد فيهم من يتمكن من اقتناء شيء منها ان لم يكن الاصل فصورة عنها لصورها يد صناع .

نظرة الغربي الى ماخلف الاجداد من المصانع والاثاث واللباس والاواني والكتب والايقونات والتماثيل غير نظرة الشرقي لها نظره لها نظر الظمآن إلى الماء والعاشق إلى قرب اللقاء ، تراه يحدق فيها تحديقه في كنز ثمين يملأ القلب والعين ، ويتمثلها بكل مافيها من معان وذكريات يهون عليه في سبيل الحصول عليها بذل المال والوقت ، وهو يفطم نفسه عن أكثر الشهوات إذا كان من ذلك احراز مجموعة شغلت مكاناً من قلبه ، ويغتبط عما يحرز ويفاخر بما يدخر ويقتني . أما الشرقي فلم يبلغ إلى الآن جزءاً مما بلغه الغربي في باب الكلف بالطرائف والاعلاق يمر بها مروره بأمر عادي لا يدرك محل الجمال منها لان ذوقه لم يهذب كما تهذب ذوق الغربي في هذا الباب ، ولذلك كان الشرقي منذ عصور يخرب بناء أثرياً من قلعة أو قصر ليبني بحجارته رصيفاً أو يرصف بما دمر قناة أو يعمر كوخاً أو قنطرة ويزهد في طنفسة أو آنية أو كتاب ليصيب من ثمنها أكلة أو سكرة .

لو حرص الشرقي على المنقول وغير المنقول من تراث أجداده ما امتلأت متاحف الغرب وبيوت بعض أفراده من آثارنا وعادياتنا . ولولا ان حكوماتنا انتبهت في العهد الاخير لجمع العاديات لافلت من أيدينا حتى الآثار القليلة المحفوظة في دور آثارنا فوصلت باهمالنا إلى أيدي من يقدرها قدرها أكثر من مالكيها الاصليين . وإن ما نشهده من كثرة مخطوطاتنا العربية في خزائن الغرب ليقوم دليلاً على زهدنا في قديمنا وحرص الغربيين على كل مايفيد في كشف أسرار المدنيات على تباين عصورها وشعوبها . وإذا عدنا فنظرنا إلى عناية الغربيين بنشر تلك المخطوطات وانتباههم قبلنا بعشرات السنين إلى احيائها نسقط على دليل مقنع نخلص منه إلى أن الغربيين يقدرون

الاشياء بقيمها أكثر منا ونستنتج أن من مجموع هذه الاذواق المثقفة في الافراد ومن جماع هذه العناية من الحكومات ظهرت هذه المدنية التي بهرتنا .

نقرأ في صحف الغرب أخبار الغلاة في حب الماديات والاعلاق النفيسة ، وغرام الغربيين بكل قديم يصور حادثاً أو يرسم رجلا ولا يبلغنا شيء من هذا القبيل عن الشرقي الذي يحتقر المهم وغير المهم . فهناك الافراط الغريب وهنا التفريط المعجيب .

قيد النظر

نقل احمد لطفي السيد باشا عن الفرنسية بعض كتب فلاسفة اليونان فجاءت الترجمة ذات لونين لون مفهوم وهو الذي نظر فيه حافظ ابراهيم عليه الرحمة وألبسه حلة عربية ، واللون الثاني وفيه التعقيد الذي يقل أن يفهمه أحد لاخذه بحظ جزيل من الغثاثة . ولما قيل المترجم البارع فى ذلك قال : أنا لم اترجم ما ترجمت لافيدكم وانما ترجمت ارسطو وافلاطون لافيد اربعة وهم طه وهيكل والعقاد واحمد امين، وكفاني ان يفهم كلامي هؤلاء الاربعة ، اي ان فيلسوف مصر لا يهمه قراء العربية بأسرهم ، بعد أن يدرك معنى ترجمته من هم في غير حاجة الى تصفحها ، على حين في وسعهم ان يتلوا الفلسفة بلغتها الاصلية لتمكنهم من بعض اللغات الغربية ، وطه حسين يطالعها في الاصل اليوناني لانه يحذق اليونانية واللاتينية أيضاً .

وهكذا أراد أحمد لطفي السيد أن يفرض نفسه على الامة العربية فيلسوفاً بهذا الغموض بعد ان ظل أعواماً طويلة يدعو الى استعمال اللغة العامية المصرية بدلاً من اللغة العربيـة الفصحى ، ثم أصبح رئيساً لمجمع لغوي عربي ، شأن ذاك اليهودي الذي كان يؤذن في منارة حمص (اتخذوا منه مؤذناً لجمال صوته) فكان يقول في آخر أذانه وأشهد أن اهل حمص يقولون ان محمداً رسول الله . وصاحبنا يشهد ان الامة العربية التي لا ترى سلامتها بغير سلامة لغتها واستعمال الفصحى منها ، يرجح العامية عليها ويرأس مجمعها اللغوي الذي وكل اليه سلامتها .

الشهرة الصادقة

قلما يشتهر رجل ليس على صفات بارعة تؤهله للشهرة ، وقد تزيد في شهرته أحوال عارضة من حوادث ذات ضجة وقعت له فيلغط الناس فيه بالخير والشر وتورثه شهرة أو تعظم بهـا شهرته بيد أن استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده وصل إلى المكانة التي وصل إليها بما كان تتحلى به نفسه من مزايا كان معاصروه مجردين منها ، كتب له التفوق عليهم وما أضرّه تحامل خصومه عليه بل زاده رفعة في الأعين ، وليس يرشق إلا مثمر الشجر .

ما أتت شهرة الاستاذ الامام من الكتب التي قرأها وأقرأها بل قامت شهرته بما تمثل من علوم الاسلام وعرضه على ميزان العقل واستخرج منه حكمة عملية تنفع أبناء عصره على اسلوب تقبله النفوس ولا يصعب حفظه واستظهاره على راويه وسامعه .

حضرت دروسه في الرواق العباسي بالأزهر في سنة ١٩٠١ في التفسير وكان ممـا عالجه من الموضوعات ثلاثة دروس عرض في الدرسين الأولين لآيات الربا وفسرها بما فسرها به المفسرون وأورد ما فتح عليه من معان جديدة فيها ، وكان الدرس الثالث فيما أثره الربا في البيوت المصرية وكان فيـه خرابها . واستخرج من روح الكتاب العزيز معاني جديدة فيها ، هي موضع الدهشة من كلامه . عدد في هـذا الدرس أسماء البيوت التي تعاملت بالربا دائنة ومدينة فاضمحلت ثروتها وافتقرت بعد الغنى وذلت بعد العز . ذكر أسر القطر المصري من الاسكندرية إلى اسوان وما كانت تملك من الاطيان العظيمة فخرجت عن ملكها بما جنت أيديها عليها وعلى بنيها .

لم يؤلف الامام كتباً ضخمة في الشريعة ، وكان من المسائل العمليـة التي نظر فيها هداية ألوف وتثقيف عقلية الجماعـة بالدين الخالص ، ودعا

إلى استعمال العقل وأصلح ما استطاع اصلاحه من أوضاعنا بما لم يؤثر بعضه عن مئات من العلماء قبله وبعده . اصلح الكتابة العربية وقضى على السجع جملة ، فأخذنا نكتب لغتنا بذوق يراعى فيه الطبع واسلوب القدماء . وأصلح المحاكم الشرعية حتى كاد يعيد الشرع إلى سالف بهائه ولم يجسر قبله انسان في العالم الاسلامي ان يفتح فاه بضرورة هذا الاصلاح . وأصلح الأزهر وكان قبل أن يرتفع صوته في ذلك اشبه برباط أو زاوية . وهكذا كان في كل ما عاناه من ضروب الاصلاح يراعي فيه المصلحة والزمن . حتى اخرج القطر المصري بل الاسلام من دور جمود مميت إلى عهد نور وعمل .

قام قبله وبعده من تولوا أكبر المناصب الدينية في مصر ، ومصر موطن العلوم الدينية والعربية ، فبماذا نفعوا المسلمين ؟ ولو تصدينا لمحاسبتهم ما كانوا أكثر من طلبة عند هـذا الشيخ ، ضعاف القرائح لا ينتجون ، عقم تفكيرهم ضئيل انتاجهم نادر ابداعهم وغرامهم أن يبقى القديم على قدمه ، ومن خالفهم كفّروه إن لم يكن جهرة إذا رأوا من مقام عالٍ امارة رضا عنهم وإلا فتكفيره سراً إذا كان في معظم قوته وعندما يحتاجون إليه في دنياهم ينافقونه ولا يرون في النفاق حرجاً .

جرأ أحـد شيوخ الأزهر على الشيخ مرة وقال له تالله تفتأ تقرعنا وتنقدنا وهل أنت تزيدنا في شيء وما كنت إلا أزهرياً مثلنا درست مادرسنا وتخرجت كما تخرجنا . فأجابه : نعم أنا أزهري ولكنني يا ظـالم بقيت سبع سنين أكنس دماغي عن خرافاتكم .

محمد عبده من الأفراد المصلحين الذين تضن بهم العصور رغم انوف منافسيه وإذا كنت تريد برهاناً محسوساً عن مكانته ومكانتهم عدّ لي اسم خمسة من أكبر كبرائهم وصلوا إلى درجة تلاميذه ليقع التنظير بينهم .

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبـاري ثم قال له الحق

كلمة لله

ما لطفف بعضهم عن التصريح باتهامي بالغلو في الاشادة باستاذي الشيخ طاهر الجزائري وما خجل حساده أن يدعوا انه لم يكن من العلم على ما وصفته . ومنهم من هزأ في قوله ان من العادة أن يحب التلميذ استاذه ويبالغ في الغناء فيه . أنا لم اغال بمناقب الشيخ ولا اخترعت له مناقب ليست له وغاية ما عرفت فيه صفات غراً لا يهتدي كثير إليها إلا بطول عشرة وكبير تأمل .

أدعو كل من يثقل على أنفسهم قول الحق أن يقارنوا بين عمله وعمل أكبر المقدمين في عصره هل يجدون فيهم ما يجدونه فيه بعلمه وأخلاقه . لنمثل برجلين عاش أحدهما في عاصمة الساحل وعاش الثاني في عاصمة الداخل من أرض الشام الأول كتب كتباً أكثرها تخريفات ومنامات وعددها كبير وفائدتها تافهة لأنها من مضعفات العقول والمسلمون انحطوا لما أخذوا يتلون أمثالها . والثاني ادعى علم الحديث وروى منه كثيراً وكان في درسه العام يطبق بعضه على المناسبات وعمّر طويلاً وفتن به العامة ولم يترك كتاباً ولا رسالة ولم يخلف تلميذاً أخذ العلم عنه ونفع به . اما الطبقة الثانية من العلماء فكانوا متوسطين في علمهم أتقنوا بعض فروعه وما أتوا بجديد ولا عرفوا معنى الاصلاح والتجديد .

نحن نحكم على علم العالم بنتائج عمل صاحبه فالشيخ طاهر الجزائري أسس المدارس الابتدائية في معظم الديار الشامية وألف لها الكتب وعلّم المعلمين اصول التعلم والتربية في زمن لم يكن فيه ما يقال له علم إلا بعض فروع الفقه وبعض الأحاديث الموضوع أكثرها أما ما يطلق عليه اسم الادب فسخيف النظم والنثر ولم يبق للبلاغة في الخطب والدروس شيء يذكر ولا لكلام الوعاظ والقصاص ما ينفع العامة . وآض كل فرع من علوم العقل إلى تفاهة .

ألف الشيخ نحو أربعين رسالة وكتاب في العلوم المختلفة وأحيا من كتب القدماء عشرات وتخرج به كثيرون في مصر والشام وتثقف بثقافات فارسية وتركية وافرنجية وعرف عدة لغات شرقية وغربية فانتم ماذا أبقيتم لنا بعد طويل حياتكم . أين تآليفكم أين دروسكم ، أين خطبكم أين أدبكم ، أين ما أثرتم به في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ آتونا ببرهان واحد على انكم خدمتم غير أنفسكم وانكم غير نقلة في الفقه مقلدون في الأحكام أما تدوين شيء من علمكم وتجاربكم فهذا قد تركتموه للشيخ وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه .

بالعنـاد لا تثبتون كفاءاتكم وبحسد العلماء العاملين لا تنقصون من منزلتهم . سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الاصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن .

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً   ما لم يروا عنـــده آثار إحسان

العدل نسبي

لما حظيت في الاسكندرية بلقاء الأمير عمر طوسون (رحمه الله) لأول مرة وجه إليّ سؤالين اثنين ، أحدهما كيف قسمت الديار الشامية بعد الحرب العامة الأولى ، الثاني هل صح كل مانقلته في وصف حكومة ابراهيم باشا في الشام . فمن الأول أجبت أن الانتداب الانكليزي كان على فلسطين وشرقي الاردن والانتداب الفرنسي شمل سورية ولبنان . فاقتطعت فرنسا من جسم سورية الأقضية الأربعة (حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك) وضمتها إلى لبنان كما ضمت اليها الهرمل وعكار وحصن الاكراد وطرابلس وما اليها . وبهذه الأراضي التي ضمت إلى لبنان أمكن هذا الجبل أن ينشيء حكومة فكبرت رقعته وزادت جبايته . ثم جعلت فرنسا من قضاء جبل الدروز امارة ومن جبال العلويين دولة ومن لواء الاسكندرونة إدارة مستقلة أي أنها نزعت أيضاً جبل الدروز والنصيرية والاسكندرونة من جسم سورية فضعفت صلة هذه الأقاليم بأمها سورية وأخذت فرنسا تعلمها وتدربها على كراهة السوريين .

أما السؤال الثاني فاني ذكرت الأمير أني أدركت طائفة من عقلاء المعمرين كانوا رجالاً مدركين أيام ابراهيم باشا في الشام وقرأت جميع ماوصل إلى يدي من كتب بالعربية والفرنسية عن عهده فكان ما كتبته هو الذي تلخص معي ومحصته بعد التفكير الطويل . قلت ولماذا أكذب وأدون ما لا أعتقد ياسمو الأمير ؟ وهل أنا مصري حتى أضطر إلى مصانعتكم ومصانعة بيتكم الكريم . هذه الحقيقة أخذتها من مصادر مختلفة ووزنتها كثيراً قبل أن أثبتها . فحمد الله على ماحصل واغتبط أن يكون جده عادلاً في حكمه الشام .

وغاب عن ذهني يومئذ أن أقول للأمير أن العدل نسبي أي أن ماقامت به حكومة ابراهيم باشا هو عظيم بالنسبة للاتراك قبله وبعده . وهذا ما قاله قنصل انكلترا يومئذ وكتب به الى دولته وذكر ان الجباية كان يتشدد في تحصيلها ويصرف بالعقل وما كانت حكومة تلك الايام تضن على البلاد بما هي في حاجة اليه من اموالها وبذلك امتد العمران وعمرت القرى والمزارع . وعندي انه لم يكن ينتقد على حكومة ابراهيم باشا الا احتكار بعض ضباطها اصنافاً من التجارة لحسابهم يتربحون بها ، وربما كانت للحكومة الابراهيمية مساوٍ اخرى فات المؤرخين ذكرها او دونت ولم تصلنا او كان الخطب فيها سهلاً تمكن الاجابة عنها .

ومن الادلة على عدل حكومة ابراهيم باشا ان اهل سورية ودعوه بدموعهم يوم غادر أرضهم الى مصر باكين عهده السعيد . اما اصوص الاعيان الذين كانوا يرجون عودة العثمانيين الى الشام حتى يشاركوهم في سلب الامة فهم كانوا فرحين مستبشرين . وقال معظم من لقيتهم من ابناء القطر ان حكم ابراهيم باشا كان صارماً ، وهل كان يتأتى ان يخضع سكان الجبال وسكان السهول من الشاميين للحكم الجديد الا بهذه الطريقة . والحكومة العثمانية ومن ورائها الحكومة الانكليزية تدسان الدسائس حتى لم تتركا لابراهيم باشا ليلة واحدة ينام فيها هادئاً مطمئناً .

حكم ابراهيم فرع من حكم والده محمد علي فيه ما فيه من محاسن وغيرها ويعد من نوع الحكم العادل بالقياس الى زمنه والى حكم العثمانيين في جميع الادوار التي مرت على الشام .

العربية عند المسلمين

قال السيد جمال الدين الأفغاني : اهمل الأتراك أمراً عظيماً وكلمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه ، واحب أن يعمل بها السلطان سليم (الأول) ، وهي جعل اللسان العربي لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأمم ، ليتفقهوا في أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله . فالعرب مانجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ما تمّ ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان اه .

شعر المسلمون بعد القرن الرابع بما طرأ من ضعف في تعليم اللغة العربية ، وقد تقسم الملك الاسلامي ملوك من الاعاجم ولا غاية لهم إلا الاحتفاظ بما ملكوا ، واللغة والعلوم في نظرهم اذا انتشرت بطبيعتها فبها ونعمت وإلا فليست مما يتوقف عليه حياة الممالك ! وحياة الممالك سيف مسلول وسياسة نافذة . وكان أكثر من جاءوا من الملوك بعد القرن الخامس إذا اعتمدوا على العربية في معاملاتهم الرسمية فلا يستعملون بثها في الناس ، وربما كانوا يتكلمون بلغتهم الخاصة في قصورهم ومع حرمهم وخدمهم .

من جملة العوامل التي حالت دون انتشار العربية ظهور نغمة القومية وذلك بأن تشدد أهل كل عنصر في نشر لغتهم الوطنية فقط . وكان الاتراك أصحاب الاقتراح الاول في اتخاذ العربية لغة الدولة أول من حاربوا هذه اللغة في جميع مظاهرها على عهد الكماليين ،حاربوها في المساجد والجوامع وفي الكتب والصحف وفي المدارس والشوارع وفي الرسميات والخصوصيات

وكان بعض الاذكياء من العناصر الاسلامية يرتادون الحواضر العربية الكبرى في افريقية وآسيا خلال قرون طويلة للاخذ عن علمائها علوم اللسان والشرع فيعود الجاوي والصيني والهندي إلى بلاده وقد أخذ يكتب العربية ويتكلمها

ويؤلف فيها إلا أن الدارسين قلائل جداً لا يكادون يسدون حاجة شعوبهم وأصبح الصيني والجاوي والفارسي يتلون القرآن في صلاتهم ولا يفهمون معناه ، وكذلك تركي تركستان وكذلك هندي باكستان .

مرّ في بعض السنين بمصر مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين وهو شيخ جليل كان يتعذر عليه النطق بالعربية فيطلب منا ان نكتب له ما نريد القاءه عليه من الكلام باللغة الفصحى مكتوباً بخط نسخي واضح وكان هو يجيبنا كذلك . على ما نرى لعهدنا بعض علماء المشرقيات يكتبون العربية كتابة جيدة ويعجزون عن التكلم بها .

بقيت العربية في الخواص من اهالي شمالي افريقية وللعوام ولا سيما في الجزائر لغة ليست من العربية في شيء ، وفي عاميتهم الفاظ افرنسية وايطالية واسبانية ومالطية ويونانية . لا جرم ان انتشار العربية اليوم تبع لانتشار المعارف عند الشعوب العربية والشرقية ، وقد اخذت كل لغة من اللغات الاسلامية الوفاً من الكلمات العربية ادمجتها في لغتها فصارت كأنها فيها اصيلة فظهر بذلك ان العربية لا تستغني عنها لغة من لغات المسلمين ومنها لسان الملايو والاردو والفارسي . وكلما حرصت العراق والشام ومصر وتونس — وهي الاقطار التي رسخت فيها العربية على الدهر وكانت من أول الاصقاع التي هبت لسير نحو المدنية الحديثة — على نشر العربية الفصحى في ابنائها يسري قبس من نورها الى الاقطار الاسلامية الأخرى .

والرجاء بعد ان يستقيم عمود السياسة في البلدان الاسلامية ، والسياسة اليوم فيها متزعزعة غير مستقرة ، يصبح للعربية شأن غير شأنها الآن ، ويسد النقص الذي احدثته الايام بجهل الملوك والحكومات . واذا رأينا اليوم تركيا تقضي على العربية في آسيا الصغرى بين ظهراني بضعة ملايين من رعاياها فان ثلاثمائة مليون مسلم في الارض لا تستطيع ان تملي ارادتها عليهم . حاربت كل ما هو عربي أو يشتم منه رائحة العربية ، وكان الخير والشر من عملها مقصوراً على ارضها فقط . والايام كفيلة بتعيين مقدار هذا الخير الذي اتاها بهذه الثورة على العربية والاسلام .

في عشر الثمانين

يانفس هو ذا الحادي يهيب بك لاجتياز المرحلة الاخيرة دراكِ ، و خفي في خف من أثقالك للحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فالوقت ضاق وانت على اوفاز ، والمنزل منزل قلعة .

يا نفس لا تغضبي ولا تعتبي فقد عمّرت طويلاً ومتعت كثيراً ، وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلان والمعارف ، وسعدت إذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغم ، وعشت في سلطان الرضا طيبة الطمأنينة لا يد لأحد عندك .

علموك ما كانوا يأملون منه اعدادك للتجارة لتغتني منها كما اغتنى اجدادك فأخفق تقديرهم ، وهدتك الفطرة لامور أخرى رفعتها فوق كل اعتبار ، وصرفت فيها نقد عمرك اعتقاداً منك أن فيها سعادة لك ولغيرك .

أخذت عن أشياخ أدخلوا الملل عليك بدساتير لهم حفظوها ، وما اهتدوا الى العمل بها ، وانصرفت عنهم بشكوك ومعميات ما انحل لك بعضها حتى اتصلت بمن تخرّجوك فيما غلب عليك ، وأصبحت تنظرين في الامور نظر تدبر . واقتديت بارباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سره ، فسلمت كما سلموا واستسلمت كما استسلموا ، واغتبطت أن أرضيت هواك فيما قرأت وبحثت ، وفيما سجلت ودونت .

وحظك الحظ فما ألفت الا أولى الفضل ، وما حرصت إلا على صداقتهم ، ولا اختلفت الا الى مجالسهم ، وما شاقك الا سماع اخبارهم ، وكنت على الاكثر لا تصحبين الا من تستفيدين من علمه وتجربته ، وتفرين من الاحاديث الغثة

فرارك من الطعام الواحد ، والمنظر الواحد . والنغم الواحد ، وما كنت كذلك شهد الله في حبك ووفائك .

هان عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعة واحدة فيما ولعت به ، يوازي في نظرك أكثر المسرات والشهوات .

درجت على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الافكار على ثورة السلاح ، ودققت في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد إلا من طريق المعرفة ، فأحرزت لك شهرة سعيت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرت اليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدى وان أكسبتك مرانة ومرونة ، وأفادتك عبرة وتجربة .

كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد حق وتقويم مائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبلة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق الى الشهرة بالحط منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء مما تتوهمين غناءه .

علمتك الايام التحلي وما كنت حليمة ، وزينت لك اللين وكنت جامحة ، وأخذت من حوادث الدهر دروساً في الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت الأيام ضد طباعها ، وما أحببت ان تستثمري احداً ، ولا أن يستثمرك احد ، وقلما أتيت شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال ولا جاه بقدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلهم ، وكنت تخلين عن أصحابك في افراحهم ولا تتركينهم في أتراحهم كأنك من اخوان الضراء لا اخوان السراء ، إذا اقبلت الدنيا على الصاحب تبتعدين عنه ، وان أدبرت تكثرين من مؤاساته .

وأكثر ما آذاك في طويل ايامك ان كنت تشهدين قوى عظيمة ضالعة ، وطريق الاصلاح مهيعاً امام اصحاب السلطان وهم لا يسلكونه ، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم ، فساءتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر . وقاتلت الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشق عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا ان ينالوا منك على ما حشروا من أبالستهم وافتروا من إفكهم ، وأنت عزلى لا سلاح لك الا الحق الذي أخذ من قلبك ، وإلا الغرام باستعادة عظمة الامة والملة .

ومن أشق ما مر بك أن كان أرباب المحك يحملونك على اثبات المثبت والتدليل على البديهي ، وان اضطررت الى عشرة قوم كان الجهل فاشياً في سوادهم الأعظم ، وقضى عليك بعد ذهاب من أخذت من أدبهم ، واستهووك باخلاقهم ، أن تسمي هراء ادعياء لو انصفوا لعادوا الى الكتاب يبتدئون بالعلم من كتاب الهجاء .

عاداك من عاداك عداء المتباينين في العقلية والثقافة ، ووجهوا اليك من التهم ما كان في وسعك رده لو جوزت اضاعة الوقت في مهاتراتهم . ومما قرفوك به أنك مستبدة فيما يبدو لك ، مفرطة في حرية رأيك ، حلوة الصداقة مرة العداوة ، ضنينة بجاهك ، تكثرين من قول لا أكثر من قول نعم ، وهم كانوا يريدونك على ان تشهدي للمحق والمبطل وتدخلي فيما يعنيك وما لا يعنيك ، وقاعدتهم ألا ضرر من العبث بحقوق الجماعة اذا كان منه تنفيس كربة الفرد ، ومن مألوفهم أن كل من قصد انساناً في أمر يقضي عليه الظرف ألا يرده خائباً .

وعابوك انك تظهرين بمظهر الشذوذ والخشونة في الأحايين ، وتخرجين على بعض مصطلحات القوم فتكسرين قيود الرسميات ، وتبالغين برعاية من لا تجب مراعاته ، اذا تخيلت فيه ناحية اعجبتك ، فتلبسينه ثوباً اطول من قامته ، وتجملينه في عيون البعيد والقريب والبغيض والحبيب .

يانفس الحق مر والصادع به معذب ، وصاحبه أبداً هدف لطعن الطاعنين ، ومن يحاول اصلاحاً وتجديداً فهو عرضة للمصفقين والمصفرين ، ولا يكرثنك هذا فالمتعنتون ما اعتادوا أن يستجيبوا لاول صارخ يحاول زحزحتهم عن عقائدهم ، ومتى هش أرباب الارواح الجامدة لمن يحاول ادخال روح جديد عليهم ؟ والناس ما خلقوا كلهم عقلاء وحكماء .

وكيف لطمعين يانفس في رضا الظالم والجاهل ، وأنت ما حلا لك غير مكافحة المستبدين والسارقين ، ومنابذة المخرقين والمضللين ، وكنت مهم بين عاملين إما اقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، او الانكار عليهم وتحمل أذاهم فتقومين بواجب وتؤدين ديناً .

سخرت من المتجرين بالوطنية ، وانحيت على المتأكلين بالدين ، وعبثت بالواغلين على الادب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تتحامل ولم تجامل ، وأنك انصفت من انتقدت ، وما لممدت أذى من زيفت كلامه ، وخالفك في آرائه .

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والترهات لا يطرب صوته كل سامع . أنت اردت العقل أن يجري طليقاً من القيود الثقيلة ، وأصحاب الاهواء حبيب اليهم الجمود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه من آبائهم وجدودهم ، وما خطر ببالهم أن يعملوا أفكارهم في اقتباس الاصلح ، ولا أن يتعبوا انفسهم في ادراك ما لم يسبق لهم معاناته .

أنت يا نفس لم تحسدي وحُسدت ، ولم تشمتي وشمت بك ، ولم تؤذي وأوذيت ، وكنت تمجدين العاملين ، وتأخذين بأيدي المبتدئين ، ولا تضنين بما تعرفين ، ولا تدّعين علم ما لا تعلمين . والى هذا كنت تهللين بسقوط المنافقين والمتجسسين ، وتهللين بوم يدب التمزيق في اموال جمعت ببيع المروءة وفساد الذمة .

انت ما عاديت إلا مأفون الرأي ، وما شاكست إلا زعانف الحشوية ،

وما تأففت إلا من زبانية السياسة ، واذا غلوت في القضاء على غلوائهم ، فمذرك كونك من الآدميين يجوز عليك ما يجوز عليهم من ضعف وغلط . والتيار قد يقذف بالواقف في جريته الى مخاضات لا يختارها .

كرهت بانفس التعصب والعصبية ، وحاربت الجهل والأمية ، وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقتّ الحزبية والجمعيات السرية ، وتفانيت في الدعوة الى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جهرة للعرب والعربية ، وللاسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتصرت فيها لخف ما حمّلتيه ، ولجاءت الثمرة أكثر جنىً وألذّ طعماً ، ولكن من الامور ما لا تتجلى للبصائر أسراره لاول نظرة ، وللايام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور .

عاشرت أجيالاً ثلاثة كان في الأول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك ومعارفك وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك . وكان جيلك الاول خير اجيالك لما تخلله من آمال واحلام ، وبشارات بما كنت ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت وارادة النفع .

جهدت كأن الموت لا يلاقيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما قصر حسابك له من أجلك ولا زاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حيلتك بل بقضاء وقدر .

وأدركت بأخرة أن ليس في العالم امس اليوم وغداً غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فاذا خرجت من هذه الفانية وحسناتك عِدْل سيئاتك ، او شالت الحسنات قليلاً في ميزانك ، فقد فزت فوزاً عظيماً ، وأنت اذا لم يحقق الزمن أغراضك كلها فلست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ولا اول من يرد فدفن في التراب ، فلا تسألي خالقك بعد الذي جرى لك الا العفو والعافية .

لحق

يقول واضع هذه المذكرات : اثبت نصوص ما كتبته بالصورة التي كتبت لاول مرة لم ادخل عليها شيئاً من التعديل . واذا امتد بي الاجل اتبعت ما دونت بذيل .

وكان الشروع في كتب هذا اول شهر نشبت فيه الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) وكففت عن التدوين في أواخر حزيران سنة ١٩٤٨ والحمد لله أولاً وآخراً .

جسرين (غوطة دمشق)

فهرس الجزء الثاني من المذكرات